

من نور القرآن

تفسير موضوعي يقتبس من القرآن الكريم والسنة الشريفة
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

الجزء الثالث

سماحة المرجع الديني

الشيخ محمد اليعقوبي

دار الصادقين
للطباعة والنشر والتوزيع
النجف الاشرف / شارع الرسول ﷺ
٠٧٨٠٨٢٨٩٣٦٤
الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م



القبس القرآني

(وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) [الفرقان :

[٣٠

شكوى القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما هو أهله وصلى الله على رسوله والأئمة الميامين من
آله وسلم تسليماً كثيراً.
[رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي،
يَفْقَهُوا قَوْلِي] (طه: ٢٥-٢٨).

الافتتاح:

اعتاد الناس افتتاح الندوات والمؤتمرات واللقاءات وبرامج الإذاعة
والتلفزيون بتلاوة آيات من الذكر الحكيم تبركاً بها وتعظيماً لها وقد جرى
على ذلك حتى غير المسلمين مما يدلُّ على هيبة هذا الكتاب الكريم حتى

(١) سلسلة محاضرات ألقاها سماحة آية الله الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظلّه الوارف)

بمناسبة حلول العام الدراسي الجديد على طلبة الحوزة العلمية الشريفة في النجف

الأشرف بدأت بتاريخ السبت ١٩ محرم / ٤٢٢ هـ الموافق ١٤ ٤ ٢٠١١ م. وصدرت في

حينها بكتاب مستقل عنوانه (شكوى القرآن) لقي رواجاً كبيراً ولا يزال يعاد طبعه.

في قلوب أعدائه، فما أحرانا نحن طلبة الحوزة الشريفة أن نفتح دروسنا بالقرآن الكريم وينبغي أن يكون افتتاحاً واعياً متفاعلاً مع روح القرآن ومضامينه ومعانيه وليس افتتاحاً شكلياً وكأنه مجرد نشيد وترنيمه أو عوذة وتميمة.

القرآن يشكو:

وقد اخترت أن أبدأ من الحديث الشريف المروي في الكافي والخصال عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ثلاثة يشكون إلى الله عز وجل مسجد خراب لا يصلي فيه أهله وعالم بين جهال ومصحف معلق قد وقع عليه الغبار لا يُقرأ فيه)^(١) وأوضح مصاديق العالم هم أهل البيت (عليهم السلام) وخصوصاً الإمام الفعلي القائم بالأمر (أرواحنا له الفداء) فالثلاثة الذين يشكون هم القرآن والعترة والمسجد ويدل عليه ما ورد في حديث آخر عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون: المصحف والمسجد والعترة يقول المصحف يا رب حرقوني ومزقوني، ويقول المسجد: يا رب عطّلوني وضيعوني وتقول العترة يا رب قتلونا وطرّدونا

(١) الكافي: كتاب فضل القرآن، باب قراءة القرآن في المصحف ٣ الخصال: ١٤٢٨ أبواب الثلاثة.

وشردونا، فأجثو للركبتين في الخصومة فيقول الله عز وجل لي: أنا أولى بذلك منك^(١).

ونستفيد من هذا الحديث أكثر من أمر:

الأول: إن أسس بناء الأمة المسلمة ومقومات كيان المجتمع المسلم هي هذه الأركان الثلاثة، لذا تم التركيز عليها، والحديث على هذا يكون بمعنى

حديث الثقلين المشهور: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً وقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة)^(٢). والثقلان هما اثنان من هذه الثلاثة، أما الثالث وهو المسجد فهو المحل الذي يمارس الثقلان من خلاله دورهما في المجتمع ويرتبطان في أجوائه المقدسة بالأمة.

الثاني: الإشعار بأن الأمة ستعرض عن هذه الثلاثة وستخلفها وراء ظهورها لذلك أخبر صلى الله عليه وآله عن الشكوى كحقيقة واقعة وهو صلى الله عليه وآله

(١) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٥ حثي ٢

(٢) روي في كتب العامة والخاصة، وللمزيد راجع كتاب (المراجعات) للسيد عبد

الحسين شرف الدين الموسوي.

يحذر الأمة من هذا التضييع ويبالغ في العقوبة عليه حتى كأن الله تبارك وتعالى هو الخصم المطالب بحقها وهو الحكم العدل.

وما دامت هذه الثلاثة هي أسس كيان المسلمين فتضييعها يعني زوال هذا الكيان وفناءه لذا كان لزاماً علينا أن نفرّد كل واحد منها ببحث خاص لبيان أثره في حياة الأمة وعظيم خسارتها بالإعراض عنه، وأساليب تفعيل دوره في حياة المسلمين.

وأرى من واجبي أن أنصب نفسي (مدعيّاً عاماً) كما يعبرون اليوم لأرفع هذه الشكاوى الثلاث وأبدأ برفع شكوى ثقل الله الأكبر: القرآن الكريم وهو الحبل الممدود من الله تبارك وتعالى إلى عباده، هذه الشكوى التي يرفعها رسول الله (ﷺ) يوم القيامة: [وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا] (الفرقان: ٣٠) وحذر المسلمين من هذا الخطر حين عرض عليهم سبب انحراف الأمم السابقة وهو ترك ما أنزل الله إليهم، قال تعالى: [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ] (المائدة: ٨). فمن تمسك به فقد سلك الطريق الموصل إلى الله ومن أعرض عنه هلك وهوى.

ومنشأ هذه الشكوى إعراض مجتمعنا المسلم حتى الملتمزين^(١) منهم عن تلاوة القرآن والاهتمام به وتدبر آياته فضلاً عن إعطائه دور الريادة والإمامة في الحياة ليكون هو النبراس والدليل الذي يهتدي به المهتدون في جميع تفاصيل الحياة، حتى عاد منسياً عندهم ولا يذكرونه إلا قليلاً في شهر رمضان المبارك، ونحن نحث على زيادة الاهتمام بالقرآن في هذا الشهر المبارك للعلاقة الحميمة بينهما، حتى ورد في الحديث: (إن لكل شيء ربيعاً وربيع القرآن شهر رمضان)^(٢) لكن هذا لا يعني إهماله أو قلة التعرض له في غيره من الشهور.

البعد عن القرآن سبب انحطاط المسلمين:

(١) استقرت عدداً من العينات العشوائية وكانوا من الطلبة المتقدمين للقبول في الحوزة الشريفة لاستبيان علاقتهم بالقرآن والمفروض أنهم يمثلون درجة من الوعي والإيمان الذي دفعهم لاختيار هذا المسلك فوجدت أن بعضهم لم يختم القرآن ولا مرة وآخر - وهو متصدي للمنبر - ختمه مرتين في حياته والكثير منهم يقرأ سوراً متفرقة في المناسبات والمواسم الدينية هذا على صعيد تلاوته أما فهمه واستيعاب معانيه والتأمل في مفاهيمه ومضامينه فالجهل هنا مطبق.

(٢) معاني الأخبار: الشيخ الصدوق ص ٢٨ ٢

إن اختيار الحديث عن هذه الشكوى لم يأت اعتباراً وليس هو من الترف الفكري بل هو ناشئ عن بصيرة نافذة ونظر ثاقب في تحليل واقع المسلمين وما تردت إليه أوضاعهم حتى صاروا يهدون مقتلهم على طبق من ذهب إلى أعدائهم الذين هم إبليس والنفس الأمارة بالسوء وصنيعتها الغرب الكافر الذي جهد على أن يفصل بين المسلمين وعنوان عزمهم وشرفهم وكرامتهم وهو القرآن وها هو غريب بينهم، لذا ثارت في قلبي شجون.

إن أسباب انحطاط الأمة وما آلت إليه من ضعف وانحلال هو إعراضها وعدم تمسكها بحبل الله تبارك وتعالى الذي أمرهم بالاعتصام به فقال عز من قائل: [وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا] [آل عمران: ١٠٣]، وقد بين رسول الله (ﷺ) هذا الحبل فقال (ﷺ): (وإنني مخلف فيكم الثقلين: الثقل الأكبر القرآن والثقل الأصغر عترتي أهل بيتي هما حبل الله ممدود بينكم وبين الله عز وجل ما إن تمسكتم به لم تضلوا، سبب منه بيد الله وسبب بأيديكم . . . الحديث) (١).

ما تمسك بالقرآن من أعرض عن العترة الطاهرة:

ولكن الأمة تركت كتاب الله وابتعدت عنه منذ أن أقصت العترة الطاهرة عن مكانها الذي اختارهم الله سبحانه له لعدم إمكان الفصل بينهما معرضين عن

قوله تعالى: [وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ] (القصص: ٦٨).
ومن خطل القول وتسويلات الشيطان ونزغات النفس الأمارة بالسوء أن يقول قائل (حسبنا كتاب الله) التي لا يزال يكررها وينفثها الشيطان على لسان من يريد أن يقوض بناء الإسلام من أسسه بما فيها القرآن الذي يدعي أنه حسبه لأنه يعلم أن القرآن إنما يكتسب فاعليته ويؤدي دوره بالقائم به الواعي لأحكامه ومفاهيمه وهم العترة.

وهذه الفتنة - الفصل بين القرآن والناطق به - قديمة وممن ابتلي بها أمير المؤمنين حينما أجبر على التحكيم وعلى أن يجعل القرآن حكماً، قال (عليه السلام): (هذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان وإنما ينطق عنه الرجال) (١) فالكتاب والعترة لصنوان لا يفترقان ولا يمكن التمسك بأحدهما دون الآخر فإن أهل البيت (عليهم السلام) هم باب الله الذي لا يؤتى إلا منه وقد أمرنا بإتيان البيوت من أبوابها.

فما يزعمه غيرنا من اهتمامه بالقرآن أكثر منا باطل جزمًا، نعم، اهتموا بمخارج حروفه وتحسين الصوت إلى حد الغناء بقراءته وضبط

قواعد التجويد التي وضعوها هم وبعضها مخالف للحكم الشرعي، وهذه كلها اهتمامات قشرية والمهم هو استيعاب المحتوى والمضمون والعمل به فإن اللفظ هو قشر والمعنى هو اللب والمتكلم لا يلحظ اللفظ بنفسه بل يتخذه وعاءاً للمعنى وآلة لإيصاله إلى المخاطب والمعنى هو المراد الحقيقي للمتكلم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم المتشدين بألفاظ القرآن وحروفه المضيعين لمعاني القرآن وحدوده ففي الحديث المشهور (كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه)^(١) وهو خصمه لأنه غير عامل بما فيه وفي حديث عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (قرأ القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدر به الملوك واستطال به على الناس فذاك من أهل النار، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده فذاك من أهل النار، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله وأظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فرشه فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء، وبأولئك يدل الله من الأعداء-أي ينصرهم على الأعداء- وبأولئك ينزل الله الغيث من السماء فوالله هؤلاء قراء القرآن أعز من الكبريت الأحمر)^(٢). وفي حديث عن الإمام الحسن (عليه السلام): (وإن أحق الناس

(١) مستدرك الوسائل: كتاب الصلاة، أبواب قراءة القرآن، باب ٧ حديث ٧

(٢) الخصال: ١٤٢

بالقرآن من عمل به وإن لم يحفظه وأبعدهم منه من لم يعمل به وإن كان يقرأه^(١).

لكي يفرغوا مضمون القرآن:

فيبدو من هذا أن خطة الفصل بين الكتاب والعترة وبالتالي تفريغ الكتاب من محتواه ومضمونه والتشجيع على الاهتمام بألفاظه فقط قديمة، وقد نبه إليها المعصومون (عليهم السلام) فأبي اهتمام بالقرآن وهو يقرأ قوله تعالى: [وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ] (القصص: ٦٨) ثم يعرضون عن اختيارهم الله تبارك وتعالى ويقدمون غيرهم وقد جعل الله تعالى هذا الأمر كله في كفة ورسالة الإسلام كلها في كفة أخرى [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ] (المائدة: ٦٧).

وأبي اتباع للقرآن الذي يقول برفيع صوته [قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى] (الشورى: ٢٣) وهم ينصبون العداة لأهل بيت النبوة ويتبعونهم تحت كل حجر ومدر ولو كان لهم أدنى فهم لكتاب الله لضموا هذه الآية إلى قوله تعالى [قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا] (الفرقان: ٥٧) ليحصلوا على حقيقة أن أهل البيت هم السبيل

الذي أمر الله تعالى باتباعه بقوله [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (الأنعام: ١٥٣) وبه فسر الإمام الباقر (عَلَيْهِ السَّلَامُ) الآية فقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (نحن السبيل فمن أبى هذه السبيل فقد كفر) (١).

كلمة حق يراد بها باطل:

ولا أقول أن كلمة (حسبنا كتاب الله) والأبواق التابعة لها التي ترددها إلى الآن وتطلب الدليل من القرآن فقط على أي شيء يقال لهم هي كلمة حق يراد بها باطل بل هي كلمة باطل يراد بها باطل وهؤلاء إنما يريدون بذلك هدم أسس الإسلام لأن الاكتفاء بالقرآن - كما يزعمون - يعني استغناءهم حتى عن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو يعني الجهل بكل تفصيلات الشريعة، فإن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) والأئمة المعصومين من آلهم القائمون على أمر الكتاب والمبينون لأحكامه.

وهذه العلوم كلها بين يديك هل تستطيع أن تكون طبيباً أو مهندساً من دون أخذه على يد المتخصصين العارفين بأسراره وفك رموزه؟ فكيف بالقرآن الذي هو: [تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ] (النحل: ٨٩) و[مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ] (الأنعام: ٣٨) وفيه صلاح البشرية جميعاً ولكل الأزمنة [مَا لَكُمْ كَيْفَ

(١) بحار الأنوار: ١٣٢٤، باب: أنهم عَلَيْهِ السَّلَامُ السبيل والصراط وهم وشيعتهم.

تَحْكُمُونَ] (الصفات: ١٥٤) وقد نبه رسول الله (ﷺ) إلى هذا الخطر بقوله: (لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه) (١).

التخطيط لقتل الإسلام:

ولكن أعداء الله سبحانه وأتباع الشيطان علموا أن القرآن هو حصن هذه الأمة الحامي لها من الزيغ والانحراف، وأن أهل البيت (عليهم السلام) هم بيانه وترجمانه والعارفون بحقائقه وحبل الوصل بينه وبين الأمة فخططوا لإبعادهم عن الأمة فبقيت الأمة بلا راع والحصن بلا حام، وأصبحت فريسة سهلة بيد الأعداء والمتربصين بها السوء، وها أنت تراها تتزعزع لأبسط شبهة وتسقط في أول فتنة وتنهار بأول اختبار (وهذه أعظم ثلثة انثلم بها علم القرآن وطريق التفكير والتفكير الذي يندب إليه، ومن الشاهد على هذا الإعراض قلة الأحاديث المنقولة عنهم (عليهم السلام) فإنك إذا تأملت ما عليه علم الحديث في عهد الخلفاء من المكانة والكرامة وما كان عليه الناس من الولع والحرص الشديد على أخذه ثم أحصيت ما نقل في ذلك

(١) الميزان في تفسير القرآن ج ٣ في البحث الروائي للآيات ٢٨ ٣٢ من سورة آل

عمران، نقله عن أحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم من رواة

عن علي والحسن والحسين وخاصة ما نقل من ذلك في تفسير القرآن لرأيت عجباً: أما الصحابة فلم ينقلوا عن علي (عليه السلام) شيئاً يذكر وأما التابعون فلا يبلغ ما نقلوه عنه (عليه السلام) - إن أحصي - مائة رواية في تمام القرآن، وأما الحسن (عليه السلام) فلعل المنقول عنه لا يبلغ عشرًا، وأما الحسين (عليه السلام) فلم ينقل عنه شيء يذكر، وقد أنهى بعضهم الروايات الواردة في التفسير إلى سبعة عشر ألف (ذكره السيوطي في الإتقان) حديث من طريق الجمهور وحده، وهذه النسبة موجودة في روايات الفقه أيضاً^(١).

الخسارة الجسيمة:

فماذا كانت خسارة القرآن بإبعاد أهل البيت (عليهم السلام) عن ممارسة دورهم الذي اختارهم الله تبارك وتعالى له:

١- غياب الكثير من العلوم الحقيقية التي لا يفهمها من الكتاب إلا هم (عليهم السلام).

٢- تراجع القرآن عن ممارسة دوره في إصلاح النفس والمجتمع لأنه والعترة صنوان لا يفترقان ولا يستطيع أن يكون فاعلاً في حياة

(١) الميزان في تفسير القرآن ج ٥/ بحث تاريخي في ذيل الآيات ١٥ ١٩ من سورة

الأمة إلا بأيديهم.

٣- وقوع القرآن فريسة بأيدي المتلاعبين وأصحاب الأهواء والأغراض الشخصية بل والأعداء أيضاً، فترى كلاً منهم يجد دليلاً على معتقده في كتاب الله حتى الخوارج كانوا يستدلون بالقرآن كما حصل بعد التحكيم بينهم وبين ابن عباس فنهاه علي (عليه السلام) عن الاحتجاج بالقرآن لأنه (حمال ذو وجوه)^(١) وراحت معانيه الحقيقية ضحية التأويلات التي حذر القرآن من اتباعها: [فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ]، لكن الجواب واضح وأعطاه القرآن مقدماً: [وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ] (آل عمران: ٧)، وأوضح مصاديق الراسخين في العلم هم أهل البيت (عليهم السلام).

٤- تشتت الأمة وضياعها وتمزيقها لأن عصمتها ومحور تجمعها القرآن وأهل البيت بحسب تفسير رسول الله (صلى الله عليه وآله) لقوله تعالى: [وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا] (آل عمران: ١٠٣)، فقال (صلى الله عليه وآله): إنهم الكتاب والعترة، وقد عبرت الزهراء (عليها السلام) عن هذه العصمة في خطبتها في مسجد رسول

١ الله (ﷺ): (وجعل إمامتنا نظاما للملة)^(١) أي بها تنتظم أمورهم وتستقر، فكانت نتيجة ابتعادهم عن أهل البيت فناءهم بيد المتسلطين وعبدة الأهواء الذين استغلوا نفس هذا القرآن ليهلكوا الحرث والنسل وكان من (وعاظ السلاطين) والسائرين في ركابهم من يبرر لهم هذه الأفعال المنكرة، كقوله تعالى: [أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ] (النساء: ٥٩)، فجعلوا أولئك الكفرة الفسقة أولياء لأُمور المسلمين.

الوصية بحفظ القرآن

٢ فلا تغرنكم دعوى هؤلاء بأنهم ملتزمون بالقرآن أكثر منا^(٢) واحفظوا القرآن لأنه أهل للحفظ والعمل به وكونوا كما أوصاكم أمير المؤمنين (عليه السلام) قبيل استشهاده: (الله بالقرآن لا يسبقكم إلى العمل به غيركم)^(٣)،

(١) كشف الغمة: ١١٠٢

(٢) وقد أكدت على هذه النقطة لانخداع كثير من السذج بهذه الدعوى وراحوا يصدقونهم بعدم الإيمان بشيء إلا إذا وجد دليل عليه من القرآن وإسقاط الاستدلال بالسنة من الحساب.

(٣) بحار الأنوار: ٢٥٦٤٢

وفي وصية النبي (ﷺ) لأمر المؤمنين في العمل بأربعين حديثاً قال (ﷺ): (وأن تكثر من قراءة القرآن وتعمل بما فيه) (١).

القرآن طريق الوصول إلى المعرفة:

فمن أراد الله سبحانه وطلب الوصول إليه لأن أول الدين معرفته تبارك

وتعالى فعليه بالقرآن (لقد تجلى الله لخلقه في كلامه، ولكن لا يبصرون) (٢)، كما هو مروى عن الإمام الصادق (عليه السلام) ومن أراد إصلاح نفسه وتهذيبها وتخليصها من أمراضها فعليه بالقرآن، ومن أراد إصلاح مجتمعه وإقامة أمره على السلام والسعادة والطمأنينة فعليه بالقرآن فإنه الدليل لكل هدى والمرشد لكل خير وصلاح.

ومن العجب أنك حين يعطل جهاز تذهب إلى الجهة المصنعة له لكي تصلحه فإن صانع الشيء خبير به، وإذا مرضت -لا سمح الله - فتذهب إلى الطبيب المختص لكي يعالج المرض، ثم عندما تريد أن تصلح النفس الإنسانية ذات الأسرار الغامضة الخافية عن صاحبها فضلاً عن غيره، أو أن تضع نظاماً يكفل للبشرية سعادتها وإصلاحها تلتمس العلاج عند

(١) الخصال: أبواب الأربعين، حديث ١٩

(٢) عوالي اللآلي: ١١٦٤

نفس البشر الناقصين العاجزين القاصرين. ولا تذهب إلى صانع هذا الإنسان وخالقه ومصوره والعارف بالنفس البشرية.

وقد صدقت ذلك -أي فاعلية القرآن في إصلاح النفس والمجتمع- التجربة العظيمة لرسول الله (ﷺ) فإن مقارنة بسيطة بين مجتمع ما قبل الإسلام وما بعده والنقلة الضخمة التي حصلت للأمة من أناس همج جهلة متشتتين قد تفتت بينهم الرذائل يتفاخرون بالمنكرات والقبائح إلى أمة متحضرة كريمة الأخلاق ذات نظام لم ولن تعرف البشرية البعيدة عن الله سبحانه مثله وبفترة قصيرة وكل ذلك ببركة هذا الكتاب الكريم وحامله العظيم.

حاجتنا إلى إعادة القرآن إلى الحياة:

فنحن إذن بحاجة إلى إعادة فاعلية القرآن في حياة المسلمين وإخراجه من عزله بحيث اقتصر وجوده على المآتم التي تعقد للموتى والعوذ والأحراز .

وقد ورد في بعض الكلمات (إن آخر هذه الأمة لا ينصلح إلا بما صلح به أولها)، وقد صلح أولها بالقرآن فإذا أرادت الأمة أن تستعيد عافيتها وتعود إلى رشدنا فعليها بالقرآن، عن المقداد (رضوان الله عليه) عن رسول الله (ﷺ) أنه قال في حديث: (فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدليل يدل

على خير سبيل^(١)، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في بعض خطبه: (واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى ونقصان من عمى، واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى فاستشفعوه من أدوائكم واستعينوا به على لأواءكم فإن فيه شفاءً من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغبي والضلال فاسألوا الله عز وجل به وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه إنه ما توجه العباد إلى الله بمثله، واعلموا أنه شافع مشفع وماحل ومصدق وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة صدق عليه فإنه ينادي مناد يوم القيامة: (ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن)، فكونوا من حرثته وأتباعه واستدلوه على ربكم واستنصحوه على أنفسكم واتهموا عليه آراءكم واستغشوا فيه أهواءكم^(٢).

اهتمام النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) بالقرآن:

(١) الكافي: ٢٩٩٢

(٢) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: ١ / ٣٤٧. الخطبة (١٧٧) وأولها: (انتفعوا ببيان الله واتعظوا بمواعظ الله).

ولقد بلغ اهتمام أهل البيت (عليهم السلام) بالقرآن أقصاه حتى قال الإمام السجاد (عليه السلام): (لومات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي) (١).

لقد أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بتلاوة القرآن: [وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً] (المزمل: ٤) وأمره تبارك وتعالى بالاستعداد لتحمله بالالتزام بنافلة الليل فقال تعالى: [إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً] (المزمل: ٥-٦) ولم يكتب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بتلاوته بل كان يطلب من عبد الله بن مسعود أن يقرأ القرآن عليه فيعتذر إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) ويقول له: (إنه نزل عليك يا رسول الله وتريد أن تسمعه مني. فيقول (صلى الله عليه وآله وسلم): أحب أن أسمع منك. فيقرأ عبد الله وعينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تفيض من الدمع). يريد بذلك أن يتمتع جميع جوارحه بالقرآن عينه وأذنه وقلبه ولسانه وهو يعلم أن لكل جارحة طريقته في اكتساب المعرفة فأراد - وهو أكمل الخلق - أن تتكامل لديه كل أسبابها، وقد ورد حديث معناه أن من فقد حساً - أي أحد حواسه الخمس - فقد فقد علماً، فيريد أن يستفيد من معارف القرآن عن طريق جميع جوارحه، لذا ورد استحباب أن يقرأ القرآن بصوت مسموع. هذا غير ما ورد في فضل وثواب الإنصات

إلى القرآن والنظر في المصحف وإن كان يحفظ ما يقرأ حتى لو كان في الصلاة، مما سيأتي إن شاء الله تعالى في مجموعة الأحاديث الشريفة.

وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يتفاعل مع القرآن، قرأ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سورة الرحمن على المسلمين وهم منصتون له فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن استماعاً منكم، قالوا وكيف يا رسول الله؟ قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): كانوا كلما قرأت: [فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ] يقولون هم: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، وإذا قرأ قوله تعالى: [أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ] يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): بلى سبحانك اللهم، لأنه كان يسمع من الله تبارك وتعالى مباشرة من خلال السطور. وسيأتي أن الإمام الكاظم (عَلَيْهِ السَّلَام) كان يقرأ وكأنه يخاطب إنساناً، قرأ رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سورة الزمر على شاب نقي القلب طاهر السريرة فلما وصل إلى قوله تعالى: [وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا] (الزمر: ٧١) وقوله تعالى: [وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا] (الزمر: ٧٣) شهق ذلك الشاب شهقة كانت فيها نفسه، وقرأ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سورة هل أتى على الإنسان حين من الدهر وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود فلما بلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه فقال رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): أخرج نفس صاحبكم الشوق إلى الجنة، فهؤلاء ممن وصفتهم الآية الشريفة: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] (البقرة: ١٢١).

دواعي الاهتمام بالقرآن:

وقد ظهر مما سبق أكثر من محفز للاهتمام بالقرآن الكريم ألخصها مع نقاط جديدة غير ما سمعته إن شاء الله تعالى في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة:

١- إنه العلاج الناجح والكامل لأمراض البشر النفسية والاجتماعية والروحية بل والجسدية أيضاً، كما سيأتي في بعض الأحاديث الشريفة.

٢- عدم استغناء طالب الكمال والسعادة الأبدية - وهو الهدف الأسمى وغاية الغايات - في الدنيا والآخرة عنه والاهتداء بهديه والأخذ بسبيله، ويزداد سمو الإنسان وتكامله كلما ازدادت استفادته من القرآن.

٣- إن في الاهتمام به تأسياً برسول الله (ﷺ) وبأهل بيته الكرام وقد أمرنا بذلك في قوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا] (الأحزاب: ٢١).

٤- إن القرآن هو رسالة الحبيب المطلق والإنسان لا يمل من إعادة قراءة رسالة حبيبه وملء النظر منها والتدبر في معانيها والله تبارك وتعالى هو المحبوب الحقيقي لاجتماع أسباب المحبة فيه، فإن الحب إما أن يكون لكمال المحبوب وحسنه

وقد اجتمعت صفات الكمال والأسماء الحسنى فيه تبارك وتعالى، أو يكون لأجل صدور الفضل والإحسان منه، والله هو المنعم المتفضل المنان ابتداءً من غير استحقاق وحتى للعاصيين من عباده [وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا] (النحل: ١٨)، وهكذا. وبهذا المعنى ورد في الحديث عن الصادق (عليه السلام) قال: (القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي للمرء المسلم أن ينظر في عهده وان يقرأ منه كل يوم خمسين آية) (١).

٥- الثواب العظيم والأجر الجزيل الذي لا حدود له الذي يعطي لقارئ القرآن والمتدبر في آياته مما سنقرأه إن شاء الله تعالى في الأحاديث الشريفة.

٦- إن القرآن لما كان كتاباً حياً خالداً لكل زمان ومكان فإن المواقف التي عالجها والمشاكل التي واجهها لا تختص بزمان دون زمان، فيستفاد من القرآن إذن الحلول الدائمة المستمرة للمواقف المتجددة، وسنعرض الكثير منها في طي البحث كفكرة المقارنة بين الجاهليتين الأولى والحديثة، وفي هذا المعنى ما ورد عن الحارث الأعور قال: (دخلت

المسجد فإذا أناس يخوضون في أحاديث فدخلت على علي فقلت: ألا ترى أن أناساً يخوضون في الأحاديث في المسجد؟ فقال: قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أما إنني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتن، قلت: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم..^(١)

٧- تعلمّ المعارف والعلوم وأسرارها المودعة فيه، بحيث أن مثل أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي يصف علمه عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن بأنه: ما علمي وعلم جميع أصحاب رسول الله ﷺ في علم علي (عليه السلام) إلا كقطرة في بحر، أقول مثل علي (عليه السلام) في علمه (قيل له: هل عندكم شيء من الوحي؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبداً فهماً في كتابه)^(٢).

(١) سنن الدارمي: ٢ ٤٣٥ كتاب فضائل القرآن، ومثله في كتب الخاصة.

(٢) ذكره في الميزان عن بعض المصادح ٣ في تفسير الآيات ٩٧ من آل عمران.

ففي هذا الكتاب من العقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة والتشريعات الحكيمة ونكات البلاغة وحسن البيان ما يلبي كل حاجة، وفيه أسرار الخلق وعجائب المخلوقات داخل جسم الإنسان وفي الكون والطبيعة، وفيه ما لم تتوصل إليه عقول المكتشفين. ولا يعني هذا أن القرآن كتاب فيزياء أو كيمياء أو فلك أو طب حتى تنعكس عليه أخطاؤها ونقائصها، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح يوظف كل الأدوات لتحقيق غرضه، وهذه العلوم كلها تصب في هذا الهدف ويأخذ منها مقدار ما يحقق غرضه.

٨- براءة الذمة من شكوى القرآن إذا هجر، كما في الحديث الشريف المتقدم (ثلاثة يشكون . . .) وشكوى القرآن لا ترد عند الله تبارك وتعالى، كما في الحديث الشريف في وصفه أنه: (ما حلُّ مصدِّق) أي أنه خصم مصدق ويعطى الحق له ويدعم هذه الدعوى شكوى رسول الله (ﷺ) المذكورة في القرآن: [وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا] (الفرقان: ٣٠).

٩- الفوز بشفاعاة القرآن، فقد وصفه الحديث بأنه: (شافع مشفع) وفي صفه شفاعته يقول الحديث: (وكان القرآن حجيلاً عنه

- أي حاجزاً وساتراً عن قارئ القرآن - يوم القيامة، يقول:
يا رب إن كل عامل أصاب أجر عمله غير عاملي فبلغ به
أكرم عطائك، قال: فيكسوه الله العزيز الجبار حلتين من حلال
الجنة ويوضع على رأسه تاج الكرامة ثم يقال له: هل
أرضيناك فيه؟ فيقول القرآن: يا رب قد كنت أرغب له فيما
هو أفضل من هذين قال: فيعطى الأيمن بيمينه والخلد بيساره
ثم يدخل الجنة فيقال له: اقرأ آية فاصعد

درجة ثم يقال له هل بلغنا به وأرضيناك؟ فيقول: نعم^(١).
وغير هذه الفوائد كثير، وأنت ترى أن بعضها لا يختص بالمسلمين، لذا
تجد إقبال المفكرين والعلماء والقادة على الأخذ من هذا القرآن وإن لم
يكونوا مسلمين.

وإلى هنا يكون ما ذكرت من المحفزات كافياً لأن يثير الإنسان
ويحركه ويدفعه نحو احتضان هذا الكتاب الكريم المعطاء والاهتمام به
حتى يخالط لحمه ودمه، وإني هنا ألزم^(٢) كل من يرى لي حقاً عليه سواء
كان أخلاقياً أو شرعياً أن يختم القرآن على الأقل في السنة مرتين. وهذا

(١) الكافي: ٦٠٤٢

(٢) شكّل هذا الإلزام حافزاً قوياً لدى الكثيرين للعمل به، جزاهم الله خير جزاء
المحسنين.

مقدار يسير جداً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن شهر رمضان وحده يمكن أن يقرأ فيه نصف هذا المقدار أو أكثر.

وأهم مما ذكرت من المحفزات ما ورد في الأحاديث الشريفة التي اخترت لك منها مجموعة تتجاوز الأربعين حديثاً جرياً على سنة السلف الصالح الذين ألفوا الكثير من كتب (الأربعون حديثاً) في شتى حقول المعرفة عسى أن يكونوا وأكون معهم من أهل هذا الحديث الشريف، قال رسول الله (ﷺ): (من حفظ عني من أمتي أربعين حديثاً في أمر دينه يريد به وجه الله عز وجل والدار الآخرة بعثه الله يوم القيامة فقيهاً عالماً^(١)).

القرآن يصف نفسه:

ولكن الأهم من ذلك أن أتلو عليكم بعض الآيات التي وصف بها

القرآن

الكريم نفسه لتتعرف عليه، فإنه أعرف بذلك وهو كلام خير القائلين. ومن هذه الآيات تعرف جلاله قدر هذا الكتاب وعظمة آثاره وبركاته:

١- [هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ] (آل عمران: ١٣٨).

٢- [إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ] (النساء:

١٠٥).

(١) الخصال: ٥٤٢٢ باب (الأربعون).

٣- يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا [النساء: ١٧٤-١٧٥].

٤- [قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (المائدة: ١٥-١٦).

٥- [وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ] (المائدة: ٦٦).

٦- [قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ] (المائدة: ٦٨).

٧- [مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ] (الأنعام: ٣٨).

٨- [وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ] (الأنعام: ٩٢).

٩- [وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] (الأعراف: ٢٠٤).

١٠- يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتُكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ [يونس: ٥٧].

- ١١- [إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ] (الإسراء: ٩).
- ١٢- [اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَفْشَعُهُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ] (الزمر: ٢٣).
- ١٣- [وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ] (فصلت: ٤١ - ٤٢).
- ١٤- [اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ] (الشورى: ١٧).
- ١٥- [وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدِينًا لِّعَلِيٍّ حَكِيمٍ] (الزخرف: ٤).
- ١٦- [وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ] (الزخرف: ٣٦).
- ١٧- [فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ] (الزخرف: ٤٣-٤٤).
- ١٨- [هَذَا بَصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ] (الجاثية: ٢٠).
- ١٩- [أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا] (محمد: ٢٤).
- ٢٠- [ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ] (ق: ١).

- ٢١- [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ] (القمر: ٤٠).
- ٢٢- [إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ] (الواقعة: ٧٧-٧٩).
- ٢٣- [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ] (الحديد: ١٦).
- ٢٤- [لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (الحشر: ٢١).
- ٢٥- [وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا] (المزمل: ٤ - ٥).
- ٢٦- [بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ] (البروج: ٢١ - ٢٢).
- ٢٧- [إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلُ] (الطارق: ١٣ - ١٤).
- ٢٨- [الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قِيمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ] (الكهف: ١ - ٢).
- ٢٩- [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ] (النحل: ٨٩).

٣٠- [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى] (طه: ١٢٤).

هذا بعض ما يتصف به القرآن من صفات وآثار حسنة فهو كتاب مبارك عزيز كريم مجيد وهو بيان وهدى وموعظة ورحمة وشفاء وذكر ونور نزل بالحق ليحكم بين الناس ويدخل المؤمنين في رحمة الله وفضله ويهديهم صراطاً مستقيماً وهو عليّ حكيم وبصائر للناس وقول ثقيل وفصل وما هو بالهزل، لذا فهو - أي حقائقه التي جعلت هذه الألفاظ وعاءاً لها وهي كالأمثلة لتقريب تلك الحقائق والمعاني العميقة إلى الأذهان - في كتاب مكنون ولوح محفوظ لا يمسه ولا يصل إلى فهم حقائقه الواقعية بشكل كامل إلا المطهرون من الذنوب والمعاصي والآثام وانجلت مرآة قلوبهم عن كل دنس فصارت تعكس بشكل كامل صفحة اللوح المحفوظ، أما غيرهم فليسوا جديرين بحمله إلا بمقدار ما أوتوا من الكمال [أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا] (الرعد: ١٢٤).

أمر الناس بتدبره وترتيبه والتمسك به والإنصات له ولو كان من غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، فإن أقاموه وتمسكوا به أكلوا من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم وخشعت قلوبهم ولانت، وكانوا أهلاً للفيوضات الإلهية وإن أعرضوا عنه أصبحوا في عيشة ضنكى واعتورتهم الشياطين حتى تصبح قرناء لهم وقست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد

قسوة فإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يهبط من خشية الله وهذه القلوب البعيدة عن القرآن وذكر الله سبحانه صمّ جامدة لا تجري فيها ولا قطرة من أنهار المعرفة [وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (الحشر: ٢١).

شرح لبعض أوصاف القرآن:

ولكن هذا الشرح الإجمالي لصفات القرآن غير كافي، لذا أرى من الضروري تقديم شرح أكثر تفصيلاً لبعض هذه الصفات مما لها آثار اجتماعية أو أخلاقية تاركاً البعض الآخر إلى التفاسير المطولة في موارد الآيات التي ذكرتها، وإنما اذكر هذه الأوصاف ليس فقط للتعرف على القرآن بل للتعرف على أهل البيت (عليهم السلام) لأنهم عدل الكتاب وهما صنوان لا يفترقان فإذا كان القرآن ينطق بالحق فإنهم مع الحق والحق معهم وهو لا يأتيه الباطل وهم معصومون وإذا كان الكتاب قيماً ومهيماً، فلهم (صلوات الله عليهم أجمعين) قيمومة وسلطنة على الناس وهم أئمتهم وقادتهم وأولى بهم من أنفسهم، وهكذا:

مبارك:

أي كثير البركة وهو كذلك من عدة جهات فهو مبارك في محل صدوره لأنه نازل من الله تبارك وتعالى المتفضل المنان مفيض النعم التي لا حصر لها ولا عد، ومبارك في محل نزوله وهو قلب رسول الله (ﷺ) الرحيم الكريم الذي لأرسل رحمة للعالمين، ومبارك في آثاره ففيه الهداية والخير والسعادة في الدنيا والآخرة وفيه نظام حياة البشرية وقوامها وحفظ كيائها وفيه السلام والطمأنينة، ومبارك في حجمه فهو كتاب واحد إلا أن جميع أرباب العلوم والمعرفة يغترفون منه وهو معين لا ينضب فتجد الأصولي والفقهي والنحوي والأديب والمفكر والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والطبيب والمشرع والحاكم يأخذون منه ويستدلون بآياته ومع ذلك يبقى خالداً معطاءً وهذا دليل نزوله من الله فإن هذا كله مما لا يمكن لكتب عديدة أن تضمه وتحويه، وهو مبارك بعدد الذين اهتدوا على يديه وتنورت قلوبهم وعقولهم ببركته.

عزيز:

أي يصعب مناله فإنه في كتاب مكنون وحقائقه العليا محفوظة في اللوح المحفوظ وما هذه الكلمات إلا أمثال لتقريب تلك المعاني إلى أذهان البشر المستأنسة بالماديات والتي لا تسمو لتتال تلك الحقائق، نعم، يمسه ويصل إليها ويعيها المطهرون الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وهم آل محمد (ﷺ) وقد سمعت أمير المؤمنين (عليه السلام)

يقول: إننا لا نملك علماً أكثر من فهم لهذا الكتاب، وهو عزيز بمعنى يندر وجود مثله وهو كذلك لأنه كلام من ليس كمثله شيء، وهو عزيز أي ممتنع عن أن ينال بسوء، فيكون بمعنى الآية الشريفة: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] (الحجر: ٩)، وهو عزيز بمعنى أنه قاهر وغالب ومتسلط لأنه كلمة الله وكلمة الله هي العليا فهو يعلو ولا يعلى عليه وموقعه دائماً التسلط والحاكمية على العباد والتصرف في شؤونهم، وهو عزيز بمعنى مطلوب كما قيل كل موجود مملول وكل مفقود مطلوب، وهذا الكتاب مطلوب لكل من أراد الوصول إلى الله تبارك وتعالى.

مجيد:

قال الراغب في المفردات: المجد: السعة في الكرم والجلال وأصله في قولهم (مَجَدْتُ الإِبِلَ) إذا حصلت في مرعى كثير واسع فوصف القرآن بالمجيد لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية وعلى هذا وصفه بالكريم بقوله تعالى: [إِنَّهُ لَقَرِيبٌ كَرِيمٌ] (الواقعة: ٧٧).

لسعة فيضه وكثرة جوده، وقد أشرنا في شرح صفة (مبارك) إلى هذه

الآثار الواسعة.

قيما:

من القيمومة، فهذا الكتاب قيّم على العباد ليسوقهم ويقودهم ويدلّهم على ما يصلحهم ويهيئ لهم كل أسباب السعادة في الدنيا والآخرة كما يفعل القيّم على الأسرة أو على المجتمع، ومنهج القرآن قيّم على جميع المناهج الأخرى سواء على مستوى العقائد أو التشريعات وهو مقدم عليها وقائد لها وهي تابعة وخاضعة ومحكومة له، فالقيمومة العليا في هذه الحياة للقرآن إن أرادت البشرية خيرها وسعادتها لا ما فعلته بالابتعاد عن منهج القرآن وتحكيم عقول البشر القاصرة الخاضعة غالباً لمنطق الأهواء والمصالح وقد مهدت الآية لهذه القيمومة بأن وصفته أنه لا عوج فيه ولا نقص ولا خلل ولا قصور، فقال تعالى: [وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِجَابًا] (الكهف: ١). فمن شروط القيمومة على البشر من يريد تكميل غيره أن يكون كاملاً في نفسه فإن فاقد الشيء لا يعطيه كما قالوا، ومن ضرورة القيمومة على البشر أن يتصدى لها من لا نقص فيه ولا خلل ولا قصور ولم يتحقق ذلك إلا في هذا الكتاب الكريم وعدله الثقل الأصغر أهل بيت النبوة وكل ما سواهم لاحق له في إمامة المجتمع والقيمومة عليه، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة أوجبت تقديم الكتاب والعترة.

[وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا] (طه: ١٢٤)، أي ضيقة وهذه صفة كل من يعرض عن ذكر الله تبارك وتعالى ويكون مقطوع الصلة به سبحانه ويعيش بعيداً عن القرآن الكريم فإنه يكون في ضيق وتعاسة

وَألم لأنه انسلخ من رحمة الله الواسعة ووقع فريسة الأهواء والمطامع والشهوات التي لا تقف عند حد فهو في رعب خشية الموت فيخسر الدنيا التي هي همه وما له في الآخرة من نصيب، ويعيش الحرص على ما في يده خشية الفوت، ويعيش التعب لأنه يلهث وراء سراب، فما يحقق شيئاً يظن أن فيه سعادته حتى يكتشف أنه متوهم فيسعى إلى غيره، فمثلاً يظن أن سعادته في المال حتى جمع المليارات فما تحققت سعادته، فيظن أنها في الدور الفارحة فيبني منها ما لا عين رأت فلا تحقق سعادته، فيظن أنها في النساء فيستمتع بما شاء منهن ثم يجد نفسه قد وصل إلى طريق مسدود فينطبق عليه قوله تعالى: [فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي]، والقمر كناية عن المال فظن أنه ربه وكافل سعادته [فَلَمَّا أَفَلَ] وفشل في تحقيقها له [قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ]، [فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً]، وهي كناية عن أمور دنيوية أخرى [قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ] وهذا الذي يحقق لي السعادة وطمأنينة القلب لأنه [هَذَا أَكْبَرُ].

وأهم وأعظم تأثيراً [فَلَمَّا أَفَلَ] وفشل هذا الرب الجديد في تحقيق السعادة [قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ] وهؤلاء الأرباب الناقصين الذين لا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم ضرراً ولا نفعاً، وعندئذ إن كان مخلصاً في البحث عن الحقيقة كتبت له الهداية وقال مقالة المؤمنين: [قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [(الأنعام: ٧٦-٧٩)، وإن لم يكن كذلك كتبت عليه الشقاوة وكان جوابه: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَخْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] (النور: ٣٩).

وهكذا يبقى في شقاء ونكد وضيق بين مطرقة الموت الذي يمكن أن يختطفه في أية لحظة، وسندان الحرص والطمع [وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاتِهِ] (البقرة: ٩٦)، وأنت ترى أن أكثر حالات الانتحار هي في الدول المرفهة اقتصادياً والتي تعيش التخمة ومنشأه هذا النكد والفتك الذي يعيشه بسبب الخواء الروحي.

[قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (المائدة: ١٥-١٦)، فهو نور لأنه يشرق أولاً في قلب المؤمن فيطهره من أدران المعاصي وكدورات الذنوب ويجلي صفحته ليكون مستعداً لتجليات الحق فيه وهو نور للأمة وللمجتمع يرشدها إلى النظام الذي يكفل سعادتها.

ومن لطيف التعبير القرآني أنه جعل لفظ النور مفرداً والظلمات جمعاً لأن طريق الحق واحد لا يتعدد وإن تعددت سبله ومصاديقه . قال

تعالى: [اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ] (الفاتحة: ٦)، بينما الظلمات عديدة والآلهة التي تصد عن الله تبارك وتعالى كثيرة.

ومن آثار القرآن وبركاته أنه يهدي من اتبع رضوان الله تعالى سبل

السلام

وأول سلام ينعم به هو سلام النفس وطمأنينة القلب وصفاء الذهن [أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] (الرعد: ٢٨)، ثم السلام داخل العائلة والأسرة التي تقوم على أساس الإسلام وتعاليم القرآن [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (الروم: ٢١)، ثم السلام بين أفراد المجتمع عندما تسودهم آداب الإسلام [فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا] (آل عمران: ١٠٣)، [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ] (الفتح: ٢٩)، [وَيُؤَثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ] (الحشر: ٩).

قول ثقيل:

والثقل للمعنى الذي يحمله القول أو اللفظ هو ثقل على النفس لأنه يمسك بزمام شهواتها فلا يطلق لها العنان وإنما يهذبها ويقومها ويقودها، وهو ثقل على العقل لما يتضمنه من أسرار ودقائق يصعب تحملها على العقول الجبارة وثقل على الروح لما فيه من تكاليف شاقة وتربية مكثفة

وإليه أشار (ﷺ) شيبني هود والواقعة لأن فيها فاستقم كما أمرت وهو (ﷺ) يعرف ثقل هذا الأمر.

ومنشأ ثقله صدوره من الله العظيم، لذا تنقل كتب السير حالته (ﷺ) عند نزول الوحي عليه وقد وصف القرآن ثقله بقوله: [لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (الحشر: ٢١).

وهو ثقيل لما يصيب حامله والساعي إلى إقامته في المجتمع من محن وبلايا وصعوبات. قال تعالى: [المص، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ] (الأعراف: ١-٢) لذلك أمر (ﷺ) بقيام الليل والتعلق بالله تبارك وتعالى وتعميق الصلة به استعداداً لتلقي هذا القول الثقيل والمسؤولية العظيمة وقد وعده تعالى بتحصيل هذه النتائج، قال تعالى: [وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا] (الإسراء: ٧٩).

موعظة وشفاء وهدى ورحمة:

وأختصر هنا ما ذكره السيد الطباطبائي (قده) في تفسير الآية^(١):
قال الراغب في المفردات: الوعظ: زجر مقترن بتخويف. وقال
الخليل. هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب وشفاء الصدور كناية عن
ذهاب ما فيها من الصفات الروحية الخبيثة التي تجلب إلى الإنسان الشقاء
وتنغص عيشته السعيدة وتحرمه خير الدنيا والآخرة، وإنما عبر بالصدور
لان الناس لما وجدوا القلب في الصدر وهم يرون الإنسان إنما يدرك ما
يدرك بقلبه وبه يعقل الأمور ويحب ويبغض ويريد ويكره ويشتاق ويرجو
ويتمنى عدوا الصدر خزانة لما في القلب من أسرارهِ والصفات الروحية
التي في باطن الإنسان من فضائل وذنائب.
أقول: وتدلل الأحاديث على أن القرآن شفاء حتى من الأمراض
البدنية بل في بعضها أن سورة الفاتحة لو قرأت سبعين مرة على ميت فقام
حيّاً لم يكن ذلك عجباً.
والرحمة تأثر خاص في القلب على مشاهدة ضرر أو نقص في الغير
يبعث الراحم إلى جبر كسره وإتمام نقصه، وإذا نسبت إلى الله سبحانه كان

(١) الميزان ج ٠ ٨ في تفسير الآيات من ٥٧ ٧٠ من سورة يونس، والمقصود في المتن
الآية ٥٧ وهو قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي
الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ].

بمعنى النتيجة دون أصل التأثير لتنزهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيته تعالى وإفاضته الوجود على خلقه.

أقول: هذا أحد الوجوه في شرح هذه الأسماء المباركة التي لا يمكن فهم نسبتها إلى الله تبارك وتعالى كما تنسب إلى المخلوقين. وإذا أخذت هذه النعوت الأربعة التي عدّها الله سبحانه للقرآن في هذه الآية - أعني انه موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة -، وقيس بعضها إلى بعض ثم اعتبرت مع القرآن كانت الآية بياناً جامعاً لعامة أثره الطيب الجميل وعمله الزاكي الطاهر الذي يرسمه في نفوس المؤمنين منذ أول ما يقرع أسماعهم إلى آخر ما يتمكن من نفوسهم ويستقر في قلوبهم.

فإنه يدركهم أول ما يدركهم وقد غشيتهم الغفلة وأحاطت بهم لجة الحيرة فأظلمت باطنهم بظلمات الشك والريب وأمضت قلوبهم بأدواء الرذائل وكل صفة أو حالة رديئة خبيثة فيعظهم^(١) موعظة حسنة ينلّهم بها من رقدة الغفلة،

(١) وأنت ترى ذلك في السور المكية التي نزلت أولاً كالمدرثر والمزمل فإنها ذات إيقاعات سريعة تستعمل حروفاً قوية فيكون تأثيرها بما يشبه الصعقة الكهربائية التي تستعمل لإيقاظ الغافل كما أن مضامينها يتركز على التذكير بالآخرة والموت وأحوال القيامة وعاقبة المكذابين وبيان سنن الله تعالى في الأمم ونحوها من الصعقات.

ويزجرهم عما بهم من سوء السريرة والأعمال السيئة ويبعثهم نحو الخير والسعادة.

ثم يأخذ في تطهير سرهم عن خبائث الصفات ولا يزال يزيل آفات العقول وأمراض القلوب واحداً بعد الآخر حتى يأتي على آخرها.

ثم يدلهم على المعارف الحقة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة دلالة بلطف يرفعهم درجة بعد درجة وتقريبهم منزلة فمنزلة حتى يستقروا في مستقر المقربين، ويفوزوا فوز المخلصين.

ثم يلبسهم لباس الرحمة وينزلهم دار الكرامة ويقعدهم على أريكة السعادة حتى يلحقهم بالنبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ويدخلهم في زمرة عباده المقربين في أعلى عليين.

فالقُرآن واعظ شافٍ لما في الصدور هادٍ إلى مستقيم الصراط مفيض للرحمة بإذن الله سبحانه، وإنما يعظ بما فيه ويشفي الصدور ويهدي ويبسط الرحمة بنفسه لا بأمر آخر فإنه السبب الموصل بين الله وبين خلقه فهو موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين.

الحياة في كنف القرآن:

وقد جرّبت الحياة في كنف القرآن ومن الله تعالى عليّ أن عشت في رعايته منذ ريعان الشباب وكنت أختمه في السنة عشر مرات أو أكثر في بعض السنين حتى خالط لحمي ودمي وفكري ولساني وقلبي وكنت مع

تلاوتي له اقرأ في البداية تفسيراً مختصراً وهو تفسير شبر ثم بدأت أطالع بإمعان في التفاسير المفصلة كالميزان ومجمع البيان وبعض التفاسير الحركية، فكان لهما ولغيرهما مما كنت أطالع الفضل في تكوين شخصيتي العلمية والفكرية في وقت مبكر من حياتي -بداية العشرينات من عمري- حتى أكملت بعضها ولخصت رؤوس أفكارها حتى أرجع إليهما باستمرار فتتقدح في ذهني تلك الأفكار وفي روعي وقلبي تلك اللحظات السعيدة.

ما الذي وجدته في رحاب القرآن؟

فماذا وجدت في رحاب القرآن؟ وماذا سيجد من يعيش في رعاية

القرآن؟

سيرى عظمة الله سبحانه تتجلى في آياته وقوانينه وسننه وقدرته على كل شيء، فالأرض جمعياً قبضته والسموات مطويات يمينه والعزة لله جمعياً والقوة والملك له وحده فهو الذي يرث الأرض ومن عليها وإليه مرجع العباد وهو أقرب إليهم من حبل الوريد ويحول بين المرء وقلبه ولا يملك شيء لشيء نفعاً ولا ضراً إلا بإذنه، فعندئذ يتصاغر أمام حامل القرآن كل ما سوى الله تبارك وتعالى مهما عظم ظاهراً أو حاول أولياؤه وأتباعه تعظيمه والنفخ في صورته فإذا قدرة الله تلفف ما يافكون فلا إرم ذات العماد ولا فرعون ذو الأوتاد ولا صاحب الكنوز التي تنوء مفاتيحه بالعصبة أولي القوة، أما حامل القرآن فقوته متصلة بالله فلا يخشى ما سواه

[مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] (العنكبوت: ٤١)، و(من خاف الله أخاف الله منه كل شيء) (١).

وعندئذ سترى أن هذه القوى الكبرى التي [يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَى] (طه: ٦٦)، وقادرة على تحقيق كل ما تريد، وإذا بها تنهار وتذوب كما يذوب الملح في الماء بلا حرب ولا أي عدو ظاهر لكن الله ينبئك عن الذي يقف وراء فنائهم [فَأَتَى اللَّهُ بُيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَشَاقُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ] (النحل: ٢٦-٢٧).

وسيرى وعد الله وطمأنينته للمؤمنين بأن العاقبة لهم ولكن بعد أن: [مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ] (البقرة: ٢١٤)، وأن لا بد من الفتنة والابتلاء ليمحص الله الذين آمنوا [أَلَمْ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ] (العنكبوت: ١-٣). وعندئذ يقر بال مؤمن مهما واجهته من صعوبة ومحنة لأنه من سنة الله في عباده فعليه أن يصدق في المواقف

وسيجزي الله الصادقين ويهون الخطب عليه انه كله بعين الله سبحانه قال تعالى: [فَأِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا] (الطور: ٤٨)، [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ] (التوبة: ١٢٠).

وسيرى من علو الإيمان الذي يعمر قلبه والمعارف العليا التي يحملها إلى هذه البشرية التائهة التي تلهث وراء السراب تعيش لأغراض زائفة وتمني نفسها بأمان باطلة يزينها لهم أولياء الشيطان من مال وجاه وشهوات يتنافسون عليها ويتقاتلون على شيء لا يبقى لهم بل يكون وبالاً عليهم. يصنعون لأنفسهم آلهة يصطلحون على عبادتها وطاعتها وتقديم الولاء لها فيقيمون لها الطقوس والاحتفالات والمهرجانات ويذبحون من أجلها القرابين ليس من الحيوانية فقط بل البشرية ويهدرون على أقدامها المليارات.

وسيرى أنه ليس وحده حتى يشعر بالضعف أو الذلة أو الخضوع والاستسلام ولا أن ما يعاينه ويشاهده ويعيشه بدعاً من الحوادث ولا أن تجربته فريدة [قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءٍ مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ] (الأحقاف: ٩)، فإذن قد سبقه على هذا الخط أنبياء عظام وأولياء كرام وحملة رسالات ومصالحون

وعباد صالحون عانوا أكثر مما عانى وصبروا على أشد ما صبر عليه
 وواجهوا من مجتمعاتهم أعظم مما يواجه والصورة نفس الصورة قال
 تعالى: [فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ] (الحديد: ٢٦)، [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ] (المائدة: ١٠٥).

وسيرى تكريم الله لخلقه حين خاطبهم بنفسه ووجه إليهم كلامه

مباشرة،

الله العظيم خالق السموات والأرض ذو الأسماء الحسنی يرسل إليهم بنفسه
 رسالة ويعهد إليهم بعهد، أي تكريم أعظم من هذا وأي تفضيل فوق هذا
 [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا] (الإسراء: ٧٠) فكيف يا ترى
 مشاعر الإنسان وهو يقرأ رسالة حبيبه بل الحبيب المطلق (إن القرآن عهد
 الله إلى خلقه فينبغي لكل مؤمن أن ينظر فيه) (١).

وسيرى أن كل شيء في هذا الكون بقدر وحساب دقيق، قال تعالى:
 [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ] (القمر: ٤٩)، [وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ] (ال
 الحجر: ٢١)، [وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ] (الأنبياء: ٤٧)، وكل المخلوقات أفراداً
 ومجتمعات تجري وفق سنن ثابتة [سَنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ] (النساء:
 ٢٦)، [وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلَكُم مَّا

(١) الكافي: ٦٠٩٢، باب في قراءته (قراءة القرآن) ج ١

فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ] (الأنعام: ٣٨) لا يستطيع أحد أن يخرج من هذا القانون الإلهي العظيم [فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا] (فاطر: ٤٣)، فكيف يعبد الإنسان غيره تبارك وتعالى وهو لا يستطيع أن يخرج من قبضة سننه وقوانينه، فلا مجال للعب ولا العبث واللغو [رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ] (آل عمران: ١٩١)، [وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ] (الذاريات: ٥٦)، [لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ] (الأنبياء: ١٧) ولا مجال للصدفة العمياء التي طالما تشدق بها الملحدون وضحكوا بها على عقول الناس ردحا من السنين وأضلوهم بها فتعساً للتابع والمتبوع، فمن وراء خلق الإنسان هدف فلا بد ان يحيا من اجله ويكرس كل طاقاته لتحقيقه وهو رضا الله تبارك وتعالى.

وسيجد في القرآن الوعد الإلهي بالإمداد والقوة الغيبية في كل موقف وشدة ومأزق ومعركة مع النفس الأمارة بالسوء أو الشيطان، وأن الله معه وكفى به ناصراً ما دام هو مع الله قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نَزَلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ، وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ] (فصلت:

٣٠ - ٣٣) وآيات كثيرة تخبر عن إنزال السكينة في قلوب المؤمنين والإمداد بالملائكة المسومين وغيرها.

وسيجد في كنف القرآن الطمأنينة قال تعالى: [أَلَا بَدْرًا لِلَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] (الرعد: ٢٨)، وهدوء البال وشفاء الصدور والهدى والبركة وكل خير مما وصف القرآن به نفسه.

فإذا وجد حامل القرآن كل ذلك اشتدت عزيمته وقوي قلبه وصلحت نفسه وازدادت همته وظهرت حكمته وسيكون عندئذ مصدراً للعطاء ومنبعا للخير لنفسه وللمجتمع كما هو شأن المصلحين العظام وعلى رأسهم رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَام).

ضرورة العودة إلى القرآن:

أبعد كل هذا نحتاج إلى ذكر المزيد من المحفزات للعودة إلى القرآن والحياة في كنفه وهل بقي من لا يعي فداحة الخسارة التي حلت بنا بسبب ابتعادنا عن القرآن. إذن فلنرجع جميعاً إلى القرآن تائبين نادمين ملتجئين إياه أن يعود إلى إمامتنا وهدايتنا إلى الله تبارك وتعالى وعلينا أن نفكر في سبيل إلى إخراج هذا الكتاب الكريم من عزلته التي فرضناها نحن عليه وتفعيل دوره في الحياة المجتمع.

وقد تقول: إن مثل هذا حاصل من خلال ما نشاهده من كثرة حلقات تعليم القرآن وحفظه وتجويده وبيان قواعده ورسمه .
وأقول: مع احترامي لهذا كله إلا أن هذا اهتمام بالقشور والمهم هو اللب فإن اللفظ وعاء لإيصال المعنى وقشر لحفظ المعنى الذي هو اللب وآلة لنقل المعنى إلى الذهن فهل يكفي الاهتمام بالقشر وترك اللب؟ فالمطلوب هو إعادة القرآن بروحه ومضامينه ومعانيه وأفكاره ومفاهيمه، ولا شك أن الخطوة الأولى منه هي الاهتمام بتلاوته ومعرفة معاني ألفاظه وتطبيق القواعد العربية على مخارج حروفه.

مسؤولية الحوزة في إعادة القرآن:

وأعتقد أن أول شريحة في المجتمع تقع عليها المسؤولية هي الحوزة الشريفة بطلبتها وفضلائها وخطبائها وعلمائها لأن صلاح المجتمع من صلاح الحوزة وفساده بفسادها والعياذ بالله، فقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله (ﷺ): (صنفاً من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل يا رسول الله (ﷺ) ومن هم؟ قال (صاعقة) :
الفقهاء والأمرء) (١).

(١) الخصال: أبواب الاثنين، حديث ١٢

وقد قلت في بعض كتبي^(١) أنه من المؤسف حقاً غياب القرآن عن مناهج الدراسة الحوزوية، فقد نظمت بشكل لا يحتاج فيه الطالب إلى التعمق في القرآن الكريم من أول تحصيله إلى نهايته ولا يمر به إلا لماماً عند الاستدلال على قاعدة نحوية أو مبحث أصولي أو مسألة فقهية، فأصبح مسرحاً للتدقيقات العقلية ولم يتخذ غذاءً للقلب والروح ودواءً للنفس، وربما يبلغ الحوزوي مرتبة عالية في الفقه والأصول وهو لم يحي حياة القرآن ولم يخض تجربة التفاعل مع القرآن واستيعابه كرسالة إصلاح، وقد تمر الأيام والأسابيع ولا تجد طالب العلم يمسك المصحف الشريف ليتلو آياته ويتدبر فيها لعدم وجود صلة روحية عميقة بينه وبين القرآن، ولو وجد فيه زاده وغذاه الذي يغنيه عن غيره لما استطاع تركه، وهذه مصيبة عظيمة للحوزة والمجتمع، وربما لا يحسن بعضهم قراءته مضبوطةً بالشكل. ولما كانت رسالة الحوزة الشريفة التي تصدت لحملها هي إصلاح المجتمع وتقريبه إلى الله تبارك وتعالى فإن أول مهمة لهم هي فهم القرآن والسعي إلى تطبيقه فإن الأمة لا تكون بخير إلا إذا تمسكت بقرآنها واهتدت بهديه واستضاءت بنوره كما هو نص حديث الثقلين المشهور:

(إني تارك فيكم الثقلين

(١) وصايا ونصائح إلى الخطباء وطلبة الحوزة الشريفة (وقد تقدم في هذا المجلد).

كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً^(١).

جاهلية اليوم:

إن البشرية تعيش اليوم جاهلية جديدة - وإن تسمى بعضهم بالإسلام - بحسب المفهوم الذي يعطيه القرآن للجاهلية، إذ أنه لا يعتبرها فترة زمنية انتهت بطلوع شمس الإسلام بل هي حالة اجتماعية تتردى إليها الأمة وينتكس إليها المجتمع كلما أعرض عن شريعة الله سبحانه [أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ] (المائدة: ٥٠)، وقد نبه القرآن الكريم إلى حصولها حينما قال: [وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى] (الأحزاب: ٣٣) وكأنه إشعار بوجود جاهلية ثانية وهي هذه التي تعيش البشرية اليوم شؤمها وتعاستها وشقاءها.

بل جمعت جاهلية اليوم مساوئ الجاهليات القديمة كلها فالقوي يأكل الضعيف، واللواط يسن بقانون رسمي يجيزه ويرتضي الزواج بين الذكرين، والزنا يفوح برائحته الكريهة وهمجته الحيوانية وأمراضه الفتاكة كالأيديز ونحوه في كل أرجاء العالم، والبخس في الميزان منتشر بجميع أشكاله ليس على مستوى الأفراد فقط بل على مستوى الدول فلا يوجد إنصاف في العلاقات بين المجتمعات البشرية وهو ما يسمى بالمصطلح

(١) تقدم ذكره.

(الكيل بمكيالين)، واتخاذ الأحبار والرهبان وسائر رؤوس الضلال من شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً أرباباً من دون الله يحرمون ما أحل ويحلون ما حرم، والآلهة التي تعبد من دون الله سبحانه قد تعددت ولم تعد مقتصرة على الحجرية منها فقط، بل ما زالت الذهنيات الشيطانية تتفتق عن المزيد وشياطين الأنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ويصدون عن صراط الله المستقيم [لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ] (الأعراف: ١٦-١٧)، [وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوَعَدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا] (الأعراف: ٨٦)، وما أكثر هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً عن الفطرة السليمة من فاسقات نصبن فخوخ الفتنة والإغراء، إلى بورصات اقتصادية يسيل لها اللعاب، إلى فنانيين لا عمل لهم إلا تدمير الأخلاق والقيم الاجتماعية وغيرها.

كل هذه من صفات وعلامات جاهلية اليوم وفي كل زمان ومكان، وهذا المفهوم من المفاهيم القرآنية التي يجب استيعابها وفهمها.

مقارنة بين الجاهلية الأولى والجاهلية اليوم:

ولمزيد من البيان نعقد مقارنة بين عقائد وممارسات الجاهلية الأولى

والجاهلية التي نعيشها اليوم، وأريد بهذا البيان عدة أهداف:

- ١- تنقيح المفاهيم والمصطلحات القرآنية واستنباط معانيها التي يريدها القرآن وإزالة الغبار المتراكم عليها نتيجة الغفلة عن القرآن، وإعمال العقول فيه من دون الرجوع إليه.
- ٢- استيعاب الحاجة إلى القرآن إذا فهمنا أن البشرية عادت إلى جاهليتها الأولى فهي بحاجة إلى أن يعود القرآن ليمارس دوره من جديد في الأخذ بيدها نحو الإسلام الحقيقي.
- ٣- تعزيز فكرة الإمام المهدي (أرواحنا له الفداء) وإقامة الدليل العلمي عليها إذ أن البشرية لما عادت إلى جاهليتها الأولى فإن القرآن وحده لا يكفي لممارسة دوره في إنقاذها بل لابد له من حامل يجسده على أرض الواقع كما رسول الله (ﷺ) وإن لم يكن نبياً لانقطاع النبوة به (ﷺ) ولا تجتمع هذه الأوصاف إلا في الحجة بن الحسن (أرواحنا له الفداء)، وها هي إرهاصات ظهوره تتحقق ويقترب يومه الموعود^(١). وتفصيل الكلام في بحث خاص^(٢) به (ﷺ).

(١) لذا ورد في الخبر أنه (ﷺ) يأتي بإسلام جديد وقرآن جديد وهي لا تعني دلالتها المطابقة لأنه (ﷺ) لا يخرج عن دائرة إسلام وقرآن جده (ﷺ) وإنما يراد به أنه ينفذ الغبار عن القرآن ويزيل عنه ركام السنين ويعيده إلى الحياة من جديد.

صفات ومميزات المجتمع الجاهلي بحسب المفهوم القرآني:

وأول صفة من صفات الجاهلية هي عبادة الناس لغير الله تبارك وتعالى والعبادة بمعنى الطاعة والولاء كما ورد عنهم (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: [اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ] (التوبة: ٣١) قال (عليه السلام): (أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراما، وحرموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون)^(١) هذه العبادة كانت قبيحة ذلك المجتمع الجاهلي لغير الله تبارك وتعالى لذا جاء في أول سورة من سور القرآن

(١) صدر الكتاب يومئذ بعنوان (شكوى الإمام عليه السلام) وجمع مع هذا الكتاب و(شكوى المسجد) في كتاب عنوانه (ثلاثة يشكون).

(٢) الكافي: ٥٣١ باب (التقليد) حديث ١

وهذا المصطلح القرآني المهم (العبادة) يحتاج إلى إشباع لعدم وضوحه في أذهان المجتمع فيظنون أن العبادة هي الصلاة أو السجود وليست هي الطاعة لذا لا يجدون قدحاً في دينهم أن يصلوا ويصوموا لله لكن معاملاتهم وسلوكياتهم في الحياة تكون بغير ما أنزل الله وهو معنى خطير يجب إزالة الشبهة عنه لذا ورد عن الإمام الجواد (عليه السلام) قوله: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان هذا الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق ينطق عن لسان إبليس . . .) (تحف العقول: صفحة ٣٣٦).

المطالبة بعدم طاعة ما سوى الله [كَلَا لَا تَطَعُهُ] (العلق: ١٩)، فكانت الطاعة
 لآلهة متعددة يومئذ: [مَا نَعْبُدُهُمْ - أَي الْأَصْنَامَ - إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ
 زُلْفَى] (الزمر: ٣)، [وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ] (آل عمران: ٦٤)،
 [إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا] (الأحزاب: ٦٧)، [فَاتَّبَعُوا أَمْرَ
 فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ] (هود: ٩٧)، [فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا
 الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا] (مريم: ٥٩)، [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولُو كَانٍ آبَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
 شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ] (البقرة: ١٧٠)، [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
 وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ، كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّ وَيَهْدِيهِ إِلَى
 عَذَابِ السَّعِيرِ] (الحج: ٣-٤)،

[إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ] (الفتح: ٢٦).

هذه بعض آلهة الجاهلية الأولى التي كانت تعبد من دون الله تبارك
 وتعالى وهي (الأصنام، العلماء غير المخلصين، الفراعنة، هوى النفس
 الأمارة بالسوء وشهواتها، إبليس، العصبية، العادات والتقاليد الموروثة عن
 السلف) وأصلها اتباع الهوى [فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ
 أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] (القصص: ٥٠).

فهل اختلف حال الناس اليوم؟ ولا أريد بالناس هذه الأمم التي تسمي أنفسها متحضرة فإنها غارقة في مستنقع الجاهلية من قرنها إلى أخصم قدميها، ولكن هلم بنا إلى الخطب الأفضع إلى الذين يسمون أنفسهم مسلمين وهم يسرون في ركاب أولئك الكفار وينغمسون في طاعة الشهوات والهوى وما يصدرون إليه من آلهة جديدة كالرياضة والفن وبعض النظريات والقوانين المنحرفة، وما زالت طاعة السادة والكبراء كرئيس العشيرة والوجهاء تمتثل من دون رعاية للشرع المقدس فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله تبارك وتعالى، وما زالت الأعراف والتقاليد وسنن الآباء والأجداد تطاع أكثر من شريعة الله سبحانه بحيث يرضى المجتمع بمعصية الله ولا يرضى بالخروج عن هذه الأعراف والتقاليد، ولسان حالهم يقول: (النار ولا العار) خلافا للإسلام الذي مثله الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء بقوله:

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

وهذا واضح في السنيّة العشائرية وغيرها، وهذه المرأة المسكينة تطيع المودة ودور الأزياء وما يقتضيه الأتيكت وما يصدره الغرب من ملابس وأدوات زينة وكماليات حتى لو كانت مخالفة للشرعية فهل. بقى من العبادة والطاعة والولاء شيء؟ هذا على مستوى الشرك الجلي، والقرآن

يخبرنا أن هذه الآلهة كلها ستتبرأ من عبادها يوم القيامة ولا ينفع الندم حينئذ: [وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ، إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ، وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُم مِّنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ] (البقرة: ١٦٥-١٦٦).

ويصف هذه الآلهة التي يعبدها البشر بتقديم الولاء والطاعة لهم من دون الله تبارك وتعالى قال تعالى: [مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ] (العنكبوت: ٤١)، وقال تعالى: [وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ] (النور: ٣٩).

وهذا بحث جدير بالاهتمام لأنه يلفت نظر الناس إلى انحراف عقائدهم وأنهم بعيدون عن التوحيد الخالص وأن طاعتهم لله تبارك وتعالى اقل بكثير من طاعتهم لهذه الأصنام المتعددة. وليكن البحث بعنوان (أصنام الجاهلية الحديثة) التي يزيد لها خطورة خفاؤها وعدم الالتفات إليها حتى للمؤمنين فضلاً عن غيرهم.

أما على مستوى الشرك الخفي فالمصيبة أعظم، ولما تجد عملاً مخلصاً وإن ظن صاحبه ذلك، فلماذا يكتب اسمه على لوحة كبيرة عندما يشيد مسجداً لو كان عمله لله ولماذا يمنّ بعطاءه ويتحدث به لو كان مخلصاً؟

والصفة الثانية من صفات الجاهلية هي أن الشريعة التي تنظم أمورهم وتنظر في خصوماتهم بعيدة عن شريعة الله سبحانه [أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ] (المائدة: ٥٠)، وعن الصادق عليه السلام: (الحكم حكمان حكم الله وحكم الجاهلية فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية)^(١). فكل حكم بغير ما أنزل الله هو حكم جاهلية على تعبير القرآن، ونحن نرى أن أكثر أفراد مجتمعنا منضوون تحت عشائر تحكمها سنن عشائرية ما أنزل الله بها من سلطان وضعها ناس جهلة بعيدون عن الله تبارك وتعالى، وهذا كمثل ويمكن أن تضرب بطرفك في شرائح اجتماعية أخرى لترى مصداق ذلك، وها أنت ترى أن دول العالم المختلفة تتحكم فيها قوانين وتشريعات و(أيديولوجيات) من صنع البشر الناقص الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا يرى أبعد من أرنبه أنفه، فتراه كل يوم يغير مادة ويضيف فقرة ويلغي أخرى ويكتشف خطأ غيرها فيرتق ما فتق، وهكذا وقد وصف

() الكافي: ج ٧ ص ٤٠٧.

الحديث الشريف كل مخالفة للشريعة وتقصير في تطبيقها جاهلية
نحو

قوله (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (من مات ولم يوص مات ميتة جاهلية)^(١).
ففرعون الذي يقول: [مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى] (غافر: ٢٩)، ليس حالة
خاصة فردية بل هي متكررة دائماً عند الكثيرين ممن ينصبون أنفسهم
مشرعين من دون الله تبارك وتعالى.

ومن سمات الجاهلية انحراف عقائدها وإليها أشير بقوله تعالى:
[يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ] (آل عمران: ١٥٤)، فقد كانوا
يعتقدون مثلاً أنه مهما ارتكب الإنسان من موبقات فإنه ينجو من العقاب
إذا قرب إلى الآلهة قرباناً، ومجتمعنا بفعل ما رسخه خطباء المنبر الحسيني
في أذهانهم يعتقدون أنه مهما فعل من منكرات وكبائر فإن دمعة واحدة
على الحسين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) تكفيه لدخول الجنة، انطلاقاً من الحديث الشريف:
(من بكى على الحسين ولو مقدار جناح بعوضة وجبت له الجنة)^(٢)،
واستدلوا بقول الشاعر:

فإنَّ النار ليس تمس جسماً
عليه غبار زوار الحسين

(١) الرسائل العشرة: الشيخ الطوسي، صفحة ٣١٧

(٢) كامل الزيارات: صفحة ٢٠١

ونحن لا ننكر كرامة الحسين (عليه السلام) على الله تبارك وتعالى فهو يستحق هذا التكريم وأزيد: لكن هذا على نحو المقتضي وجزء العلة لدخول الجنة ولا بد من تمامه من جزء العلة الأخرى من الشروط وعدم الموانع وأول الشروط طاعة الله تعالى في أوامره ونواهيه وهذا القرآن صريح: [وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى] (الأنبياء: ٢٨)، وفي حديث الإمام الصادق (عليه السلام): (لن تنال شفاعتنا مستخفاً بالصلاة) (١)، ومناف للآية الشريفة: [فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ] (الزلزلة: ٧ - ٨)، إلا أن يتدارك عمله بالتوبة الصادقة.

وهذا الانحراف في الاعتقاد له أثره الخطير في ابتعاد الناس عن الدين وقلة وعيهم بعد أن خدروا بهذه العقيدة البعيدة عن القرآن وركونهم إليها فتركوا العمل بالقرآن.

ومن معالم الجاهلية السفور والتبرج وإظهار المفاتن والتهمت وشيوع الفاحشة، قال تعالى: [وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى] (الأحزاب: ٣٣)، والمجتمع اليوم قد فاق تلك الأمم بفسقه وفجوره وتفننه في الغواية والإضلال وإيقاع البشر في الفاحشة وتسخر كل إمكاناتها المتطورة لترويجها، وكما كانت الجاهلية تبتكر الأساليب وتضع قوانين لإشباع غريزتها الجنسية بطرق شيطانية، فمثلا سنت قريش قراراً يقتضي حرمة

طواف الطائف بالبيت بثيابه لأنه قد عصى الله بها وارتكب المآثم فيها فلا بد أن يطوف بملابس من أهل مكة أو جديدة أو يطوف عارياً.

وأولياء الشيطان اليوم سنوا أساليب لإشاعة الفاحشة غير ملاهي الفسق والفجور باسم الرياضة مثلاً التي لا تقل تهتكاً عما يجري في تلك الملاهي بل الملاهي أرحم لأنها في الخفاء ويستهنها الجميع ويستحيي صاحبها أن يلصق به عارها، أما هذه فتمارس علناً ويفتخر بها صاحبها ويبارك عمله الجميع. أترى أي العوبة أصبح هؤلاء بيد الشيطان يتصرف بهم كيف يشاء. وهكذا العناوين والأسماء الأخرى كملكة الجمال أو باسم عرض الأزياء أو باسم الفن وكلها استهتار ومجون وفسق وفجور ولكن بغطاء مقبول لدى المجتمع لا ينجو منه إلا من عصم الله، والهدف واحد هو أن تعيش البشرية همجية الحيوان وفوضى الجنس ونار الشهوة المستعرة التي لا تبقي ولا تذر.

ومن سمات الجاهلية فساد التصورات وانحراف الرؤية للحياة فمثلاً كان بعض الجاهليين يرفضون تزويج بناتهم من غيرهم لأنهم يرون أنفسهم فوق الآخرين وهم ما يسمون بـ(الحمس)، وفي جاهلية اليوم توجد شرائح كثيرة كذلك ولعل أوضح مصاديقها بعض السادة المتسبين لرسول الله (ﷺ) فإنهم لا يزوجون نساءهم إلا لسيد مثلهم وقد تعنس بناتهم ويفوتهن الزواج ويحرمن من ممارسة حق مشروع لهن في التمتع بتكوين

أسرة وليعشن سعادة الأمومة. كل ذلك بسبب هذا التصور الخاطئ الجاهلي فأين هذه التصورات من مبادئ القرآن: [خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً] (النساء: ١)، ومن تعاليم رسول الله (ﷺ): (إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه)^(١)، وإذا كان لهم شرف بانتسابهم لرسول الله (ﷺ) فإن شرف رسول الله (ﷺ) بانتسابه للإسلام ولطاعة الله تعالى، وليس لأنه محمد بن عبد الله قال تعالى: [لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكوننَّ من الخاسرين] (الزمر: ٦٥)، [ولو تقول علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين] (الحاقة: ٤٤ - ٤٧)، ويقول هو (ﷺ): (ولو عصيت لهويت)^(٢) فما قيمة هؤلاء الذين يتاجرون باسمه (ﷺ) وهم يخالفون شريعته؟

ومن معالمها اختلاف القيم والموازين التي يتفاضل بها البشر من إلهية حقيقية إلى شيطانية وهمية، فالقرآن يصرح: [إن أكرمكم عند الله أتقاكم] (الحجرات: ١٣)، [قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون] (يونس: ٥٨) بينما الجاهلية تتفاضل بالمال والجاه وكثرة الولد [ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر] (التكاثر: ١-٢)، [وقالوا نحن أكثر

(١) وسائل الشيعة: كتاب النكاح: أبواب مقدمات النكاح وآدابه، باب ٢٨، حثي ١

(٢) بحار الأنوار: ٢٢ / ٤٦٧

أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمَعْدِيِّينَ] (سبأ: ٣٥)، وهذه الأمور من الوضوح بحيث لا أحتاج إلى ذكر أمثلة، والآيتان التاليتان توضحان هذه المقارنة الصارخة بين المقاييس: [زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأَبِ، قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ] (آل عمران: ١٤ - ١٥). ويقول تعالى: [وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ] (سبأ: ٣٧).

ومن الخصائص المشتركة للجاهليتين انتشار الرذائل الخلقية وأوضحها شرب الخمر والتطيف في الميزان والغش والكذب واللواط قال تعالى: [وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ] (العنكبوت: ٢٩)، [وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ] (الأعراف: ٨٥)، [وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ] (المطففين: ١-٣)، بل يستهزئون من الإنسان النظيف [وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ

مَنْ قَرَيْتَكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [الأعراف: ٨٢]، بحيث أن جعفر بن أبي طالب سجل اسمه في التأريخ على أنه ممن حرّم على نفسه الخمر والزنا في الجاهلية، ومن رذائل أخلاقهم أن القوي يأكل الضعيف وانعدام الأخلاق والمثل الإنسانية فضلاً عن الإلهية والمهم هو المنافع الشخصية. وها هي حضارة اليوم تسحق شعوباً بكاملها وتهلك الحرث والنسل من أجل ما يسمونه (المصالح) التي هي فوق كل شيء عندهم، أما الهدف الحقيقي وهو رضا الله تبارك وتعالى والفوز في الآخرة فهذا تخلف ورجعية، قال تعالى: [وَمَا أَتَيْنَا مِنْ نَجْمٍ إِلَّا نَحْنُ نَكْتُبُ مَا نَشَاءُ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَمْرَنَا لَئَلَّامٌ مِمَّا يَفْعَلُونَ لَئَلَّامٌ يَكْفُرُونَ] (الأنعام: ١٠٤)، فهذه غايتهم وهذا هو هدفهم الذي يعيشون من أجله هل لنا من الأمر من شيء.

ومن أهم خصائص الجاهلية بل هي السبب في تحققها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا الذي حذر منه رسول الله (صلى الله عليه وآله): (كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ فقول له: ويكون ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم، وشر من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ فقول له يا رسول الله

ويكون ذلك؟ فقال (ﷺ): وشر من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً(١).

وهذا ما وصلت إليه المجتمعات اليوم والتقصير أول ما يبدأ من علماء الدين أو الربانيين على تعبير القرآن وتخاذلهم وتقاعسهم عن أداء وظيفتهم، وأوضح مصداق للربانيين هم انتم يا طلبة وفضلاء الحوزة الشريفة. قال تعالى: [وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ، لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] (المائدة: ٦٢ - ٦٣)، [كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسَهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ] (المائدة: ٧٩-٨٠).

وهذه خصيصة أخرى من خصائص المجتمع البعيد عن الإسلام وهي موالاته ومداهنة الفاسقين والذين كفروا، وعن هذا التقصير يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (أما بعد فإنه إنما هلك من كان قبلكم حيثما عملوا من المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار عن ذلك، وأنهم لما تمادوا في

(١) الكافي: ٥٩٥ باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المعاصي نزلت بهم العقوبات فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر واعملوا
 أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لن يقربا أجلاً ولن يقطعاً رزقاً^(١).
 وبدون القيام بهذه الفريضة لا تبقى للمؤمنين قيمة لا عند الله
 ولا عند

رسوله بل ولا حتى عند أعدائهم، لذلك كان هناك موحدون بين قريش
 وهم الأحناف الذين نبذوا عبادة الأصنام وتفرغوا لعبادة الله سبحانه، لكن
 لم تكن لهم قيمة عند المشركين ولم يأبهوا بوجودهم لأنهم تركوا هذه
 الفريضة العظيمة.

بينما جعل القيام بهذه الوظيفة من صفات المجتمع المسلم بحق:
 [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] [آل عمران: ١١٠]، [وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
 عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
 بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ] [الحج: ٤٠ - ٤١]، [وَلَتَكُنَّ
 مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ] [آل
 عمران: ١٠٤]، [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [التوبة: ٧١]، وغيرهم

كثير ولسنا هنا بصدد الاستقصاء فإن هذا البحث مبني على الإشارات فقط ومجرد فتح الباب للتفكير في هذه القضايا وكل باب يفتح منه ألف باب بلطف الله تبارك وتعالى وسعة رحمته.

ومن معالم الجاهلية سيطرة الخرافات والأساطير، فمثلاً كانت العرب تتشاءم من صوت الغراب والبوم، والغرب اليوم يتشاءم بلا معنى من رقم (١٣) وانتشر يومئذ العرافون والكهنة وراجت سوقهم، واليوم نرى إقبال الناس على قارئ الكف والرمل والأبراج والطريحة وأصحاب النور والمطوعات ونظائرها مما ينظلي على الجهلة والسذج.

ومن سمات الجاهلية الصد عن القرآن وعزل الناس عنه بشتى الطرق فقد كان النضر بن الحارث وهو ممن ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم يتعقب رسول الله (ﷺ) فإذا قام (ﷺ) من مجلس جلس إليهم النضر وتحدث لهم بتلك القصص والأخبار ثم يقول: بالله أيّنا أحسن حديثاً قصصاً أنا أو محمد؟ وكانوا يصفون القرآن بأنه أساطير الأولين أو أحاديث اكتتبتها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً أو حديث يفترى، أو يصفقون بصوت عال عند تلاوته (ﷺ) للقرآن ليحولوا دون سماعه، ويصف القرآن موقفهم هذا بقوله: [وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ] (فصلت: ٢٦)، وقال تعالى: [وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ] (القمر: ٢)، وها هي جاهلية اليوم تصف

القرآن نفس الأوصاف بأنه من كلام محمد وقد أنشأه وفق البيئة التي عاشها، وانه يمثل نبوغاً إنسانياً وليس وحياً إلهياً، وحاولوا التأليف في متناقضات القرآن ولكنهم لما عجزوا واكتسحهم القرآن وفرض وجوده عليهم عمدوا - بما أوتوا من خبث ومكر وخداع - إلى تفرغته من مضمونه وعزله عملياً عن واقع الحياة وحوّلوه إلى ما يشبه الأناشيد والأغاني التي يترنم بها المطربون ويعبر الجالسون عن طربهم بصيحات (الله الله يا شيخ) وحوّلوه إلى تعويذات يعلّقها على صدورهم أو في بيوتهم لا أزيد من ذلك. وهذا الأسلوب كما ترى أخطر من أسلوب النضر بن الحارث وأمثاله وأشد مكرّاً وأفتك أثراً.

ومن التصرفات البارزة التي يتصف بها الجاهليون: هي الجمود على التقاليد الموروثة عن السلف والتزمت في الالتزام بها وعدم الخروج عنها وإن قام الدليل والحجة على خلافها، وهذا التصرف نتيجة التحجر وعدم السلامة في التفكير وتحكيم العاطفة باعتبار أن الشيء الذي تتوالى عليه أجيال من الآباء والأجداد يكتسب قداسة يصعب اختراقها. وقد كرر القرآن هذا المعنى كثيراً بحيث نستطيع أن نفهم منه أن هذه كانت من المحن التي اشترك فيها جميع الأنبياء. قال تعالى: [وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ] (البقرة: ١٧٠)، [إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يَهْرَعُونَ]

(الصفات: ٦٩ - ٧٠)، [قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا مَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ] (الأعراف: ٧٠)، [بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ، وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ، قَالَ أُولُو جُنُودِكُمْ بَأْهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ] (الزخرف: ٢٢ - ٢٤)، فالآيتان الأخيرتان تدلان على أن هذه المحنة الكبيرة تواجه كل من يريد أن يحرر مجتمعه ويسعى لإصلاحه، لقوله تعالى: [وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ] (الزخرف: ٢٢-٢٤)، وليست مختصة بالأنبياء وحدهم.

وجاهلية اليوم لا تختلف عن الجاهلية الأولى في ذلك، والشواهد عليها كثيرة وقد عانت مجتمعاتنا كثيراً من هذه (النزعة الاستصحابية) على تعبير أحد المفكرين الحوزويين^(١).

(١) والمقصود به هو السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله ولم يكن سماحة الشيخ يصرح به جهاراً حيث ألقى هذه المحاضرات أيام البطش الصدامي ما قبل سنة ٢٠٠٣ حيث كان التصريح والتلميح تهمة كافية لإعدام صاحبها، إلا أن سماحة الشيخ كان يخلل أفكاره ببعض طروحاته ونظرياته رحمته الله ويتمثل له ويعيش أفكاره ويشير إليه بطريق خفي في الوقت الذي تخلت الكثير من الجهات الدينية عن خط الحماسة والوعي

ومن علامات الجاهلية عدم معرفة الإمام الحقيقي (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)^(١) ولا يراد بالمعرفة معرفة الاسم فقط بل معرفة المسؤولية الكاملة والتكليف التام تجاه الإمام والقيام بها حق القيام وهذا التقصير واضح منا تجاه صاحب العصر (أروحنا له الفداء) وقد وصف الدعاء المأثور هذه الجاهلية (اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك اللهم عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك اللهم عرفني حجّتك فإنك إن لم تعرفني حجّتك ضللت عن ديني)^(٢) والضلّال عن الدين هو عين الجاهلية.

وهذا ما يحتاج إلى بحث كامل عن لزوم وجود الإمام والحجة في كل زمان وتكليفنا في زمان الغيبة ومسؤوليتنا تجاه الإمام (عليه السلام) والإجابة عن الكثير من التساؤلات والمشاكل الفكرية التي تحاط بها قضية الإمام (عليه السلام) مما هو غائب عن ذهن المؤمنين به فضلاً عن غير المؤمنين به

الإسلامي، بل إن السلطات الصدامية أخذت ترفع التقارير المتتالية عن حركة الشيخ الدينية حتى وصفته بعض التقارير الأمنية والتي عثر عليها بعد سقوط النظام البعثي بأن حركته وخطته شبيهة بحركة باقر الصدر في الشباب.

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٤٠٩

(٢) الكافي: ٣٣٧١

أصلاً، بينما هم (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) (باب الله الذي لا يؤتى إلا منه) (١) فكيف يهتدي إلى الله سبحانه من لا يعرف بابه فماذا بعد الله إلا الضلال المبين.

ومن سماتها الخضوع للماديات وعدم الاعتراف بما وراء المادة وإنكار الغيب قال تعالى: [وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ] (الأنعام: ٢٩)، [وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ] (الجاثية: ٢٤)، فيأتي القرآن ليؤسس لهم أهدافاً سامية يعيشون من أجلها [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] (الذاريات: ٥٦)، [قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبَّوْا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ] (هود: ٦١)، [ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ] (يونس: ١٤)، فالإنسان ما خلق فقط لهذه الدنيا حتى يكرس همه لها بل جعل في الأرض خليفة ليستعمرها ويجعلها حراثاً لآخرته وخالقه يحصى عليه أعماله لينظر كيف يعمل، ويأتي التوبيخ الإلهي لمثل هذا الإنسان الغارق في الماديات [أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْهُ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى] (القيامة: ٣٦ - ٤٠)، بلى سبحانه اللهم أنت قادر على ذلك وعلى كل شيء، نعم،

لكن هذا لا يمنع من أن يأخذ نصيبه من الدنيا من دون أن يجعله هدفاً وغاية وإنما يوظفه لخدمة الهدف الحقيقي وهو رضا الله تبارك وتعالى: [وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ] (القصص: ٧٧)، فليس النقص والخلل في حيازة الدنيا لذا قيل: (الدنيا مزرعة الآخرة)^(١) وفي حديث آخر: (الدنيا متجر أولياء الله)^(٢) ففيها يتاجرون مع الله تجارة لن تبور.

ومن سمات الجاهلية التشتت والتفرق والتمزق، قال تعالى: [وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ] (الروم: ٣١-٣٢)، وكل ذلك بسبب تضييعهم للمحور الواحد الذي يجب أن يجتمعوا حوله وهو توحيد الله تبارك وتعالى، وجعلت الكعبة المشرفة رمزاً له، لكن المجتمع البعيد عن الله يتمزق دوماً وبلداناً أولاً، حتى وصل عدد دول العالم اليوم أزيد من (١٨٠) دولة ويتمزق أجناساً ويتفرق قوميات حتى داخل البلد الواحد ويتمزق فكرياً فهذا شيوعي وهذا رأسمالي وهم أبناء بلد واحد وقومية واحدة ودين واحد ويتمزقون أيديولوجياً حتى داخل الدين الواحد بل داخل المذهب الواحد

(١) عوالي اللآلي: ٢٦٧/١

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٢٠٣١٥

وكل طائفة تنقسم على نفسها فرقاً وهكذا: [كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ] (المؤمنون: ٥٣)، وقد نبه القرآن إلى أن هذا التفرق هو إحدى عقوبات الابتعاد عن المنهج الإلهي: قال تعالى: [قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَفْقَهُونَ] (الأنعام: ٦٥)، وجاء الإسلام ليوحدهم بهذا القرآن قال تعالى: [وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ] (آل عمران: ١٠٣)، [وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين، وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم] (الأنفال: ٦٢ - ٦٣).

ومن سمات الجاهلية الواضحة الرعب من الموت ومن كل ما يوحى به أو يشير إليه وذلك لأنهم خسروا الآخرة وجعلوا غاية همهم إشباع شهواتهم وأطماعهم [قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ، وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمَزْحُوحٍ مِنَ الْعَذَابِ

أَنْ يَعْمَرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ] (البقرة: ٩٤ - ٩٦)، [قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ] (الجمعة: ٧-٦)، [فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ] (الأحزاب: ١٩)، لكن القرآن يقرر لهم حقيقة دامغة لا مفر منها [قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] (الجمعة: ٨)، [قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا] (الأحزاب: ١٦)، [أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ مَشِيدَةٍ] (النساء: ٧٨)، [قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ] (٢١٥)]، فالخوف من الموت لا يكون إلا بالاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح وإعمار الآخرة بما يرضي الله تبارك وتعالى ويقرب منه.

وأشعر أنني إلى هنا قد قدمت إشارة كافية وفتحت باب التفكير بمقدار كافٍ في هذا الاتجاه لأن أهم خطوة في معالجة أمراضنا الاجتماعية هي تشخيص الداء بدقة ومن ثم وصف العلاج المناسب.

واتضح لدينا الآن من خلال هذه النقاط العديدة تحقق عنوان الجاهلية في البشرية اليوم وعلما أن لطف الله بعباده دائم ولا يختص بقوم دون قوم، فجاهلية الأمس ليست أولى من جاهلية اليوم ولا خصوصية لها

حتى ينزل إليها تبارك وتعالى قرآناً ويبعث إليهم رسولاً، ويترك جاهلية اليوم سدىً، فما أحوجها إلى مصلح وهو الحجة بن الحسن (أرواحنا له الفداء) وما أحوجنا إلى القرآن لينقذنا من حضيض الجاهلية إلى قمة الإسلام.

القرآن علاج لأمرضنا الاجتماعية:

فلنكرس جهدنا في الاستفادة من قابلية القرآن وقدرته على علاج أمراض البشرية والارتقاء بها في سلم الكمال، فإن القرآن خالد وحي ومعطاء إلى يوم القيامة ومن خلوده قدرته على تشخيص الداء وتقديم الدواء لكل مجتمع وكل زمان ومكان وما علينا إلا أن نستشير كوامن القرآن ونلتمس منه دواء دائنا وأمراضنا الاجتماعية والفردية.

فإذا أصيبت الأمة بالتمزق والتشتت فدواءهم قوله تعالى: [وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا] (آل عمران: ١٠٣)، بعد معرفة أن حبل الله هما القرآن وأهل البيت (عليه السلام) بحسب الحديث الشريف.

وإذا أصيبت الأمة بالجبن والخور فعلاجهم قوله تعالى: [أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مُّشِيدَةٍ] (النساء: ٧٨)، [قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأِكُمْ] (الجمعة: ٨).

وإذا مر المجتمع ببلايا ومصاعب ومحن فشفأؤهم في قوله تعالى: [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ

الْبَاسَاءَ وَالضَّرَّاءَ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ
أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ [البقرة: ٢١٤].

وإذا شعروا بالإحباط واليأس فعلاجهم قوله تعالى: [وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ
رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ] (يوسف: ٨٧)،
[وَمَنْ يَقْطَعْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ] (الحجر: ٥٦)، [إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ] (غافر: ٥١).

وإذا ألقينا مسؤولية الانحراف والظلم على غيرنا أو على الزمن فلنقرأ
قوله تعالى: [وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ] (النساء: ٧٩) [إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ
مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ] (الرعد: ١١)، [وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ] (آل عمران: ١١٧).

وإذا انصاع الناس وراء الكثرة الكاثرة ولسان حالهم (حشر مع
الناس عيد) بلا تعقل وروية وبصيرة، أجبهم القرآن: [وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ
حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ] (يوسف: ١٠٣)، [وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ] (الأنعام: ١١٦)
[وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ] (يوسف: ١٠٦).

ومن الأمراض الاجتماعية التي عالجها القرآن (الإشاعة)^(١) وهو داء
فتاك يفرق المجتمع ويزلزل كيانه ويبلبل، أفكاره فقال فيها وفي علاجها:

(١) صدر لاحقاً كتيب عن هذا الموضوع ضمن سلسلة (نحو مجتمع نظيف).

[وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا] (النساء: ٨٣)، وغيرها الكثير مما يعالج عللنا المزمنة.

دروس مستفادة من طريقة القرآن في إصلاح المجتمع:

وهنا ينبغي الإشارة إلى بعض الدروس المستفادة من طريقة القرآن

في إصلاح المجتمع وهدايته:

١- الالتفات إلى جانب العلة أكثر من المعلولات عند معالجة حالة معينة وهو شيء مهم وضروري، فعندما يراجع المريض طبيا ويشرح له الأعراض التي يعاني منها فإن أهم ما يقوم به الطبيب تشخيص العلة وتعيين العلاج لها، أما الاكتفاء بمعالجة الأعراض المرضية كوجع الرأس وألم البطن أو ارتفاع درجة الحرارة من دون أن يشخص العلة فهذا من خطل التفكير، فمثلا إن من يريد أن يعالج ظاهرة التبرج، أو ميوعة الشباب وتقليدهم للغرب، أو امتناع الناس عن دفع الخمس أو أداء الصلاة، أو ارتكابهم للفواحش كشرب الخمر واللواط، أو قل: عموم ابتعاد الناس عن تطبيق شريعة الله وتعمدهم مخالفتها لا يكتفي بأن يقول لهم هذا واجب

فافعلوه وهذا حرام فاتركوه لأنهم مسلمون ويعرفون ذلك، فلا بد من تشخيص العلة لضعف الوازع الديني عندهم الذي هو الدافع للتطبيق ومن ثم علاجه، وضعف الوازع الديني إنما منشأه ضعف الجانب الأخلاقي والعقائدي لدى المجتمع، لذا ركز القرآن في مكة - أي في أوائل نزوله - على هذين الجانبين. بما طرح من عقائد ودافع عنها بالأدلة المختلفة ورد الإشكالات الموجهة إليها، وغالبا ما كان يثير كوامن فطرتهم لأنه دليل وجداني مرتكز في باطن كل إنسان ولا يستطيع أحد إنكاره والتنصل منه، واهتم بعرض مشاهد يوم القيامة وسنن الله في الأمم السالفة وعرض الكثير من مواقف العظة والعبرة حتى أيقظ عقولهم وطهر قلوبهم وعندئذ كلفهم بالأحكام فاستجابوا لها طواعية، ونحن نعلم ان فترة التربية في مكة كانت أكثر منها في المدينة ومن هذا يعلم الاهتمام المتزايد بجانب العلل أكثر من المعلولات.

-٢-

ومن هنا يفتح الكلام عن الدرس الثاني المستفاد من طريقة القرآن في إصلاح النفس والمجتمع وهي ضرورة بناء الجانب الأخلاقي والعقائدي لشخصية المسلم، وقد اعتمد القرآن في هذا البناء على عدة أساليب ذكرتها في دروس

(فلنرجع إلى الله) وقلنا هناك: أنه سلك طريق العوالم الثلاثة التي يعيشها الإنسان (العقل، القلب، الروح) فمثلاً يربط بين منع السماء بركاتها والأرض خيراتها وتسلط الأشرار وعدم استجابة الدعاء فيجعل علتها ابتعاد الناس عن شريعة الله وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن أراد أن يتخلص من هذه النتائج السيئة فليؤد هذه الفريضة. ففي الحديث: (إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نزعنا عنكم البركات ونزلنا عليكم البليّات وسلطنا عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم)^(١).

وكان على رأس هذه الأساليب ما أشرنا إليه من عرض مشاهد وأهوال الموت وما بعده ويوم القيامة وحوار الكافرين والفاستقين في النار ومع شياطينهم والتذكير بسنن الله تبارك وتعالى في المعرضين عن طاعته. قال تعالى: [دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها] (محمد: ١٠)، [فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب] (آل عمران: ١١)، وتعداد نعمه على العباد التي لا تعد ولا تحصى مع إقرارهم بحقيقة فطرية: [هل جزاء الإحسان إلا الإحسان] (الرحمن: ٦٠)، ثم

(١) تهذيب الأحكام: ١٧٦/٦

بيان السعادة التي تعمر قلب الإنسان وحياته ومجتمعه لو طبق شريعة الله. قال تعالى: [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ] (الأعراف: ٩٦).

إن العقيدة والأخلاق هما اللذان يرسمان الهدف الذي يعيشه الإنسان وبالتالي فهما يحددان معالم مسيرته، فمثلاً إذا أريد التبرع لمشروع خيري أو مساعدة محتاج فأيهما الذي يبادر إلى المشاركة: المؤمن الذي يتبغى رضا الله سبحانه ويرجو العوض منه أم البعيد عن الدين الذي غاية همه الاستزادة من الدنيا والذين هم [قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسُؤُا الْكُفَّارِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ] (المتحنة: ١٣)، فالأول أسرع للمشاركة. فهذا مثال على اثر العقيدة والأخلاق في دفع الإنسان إلى التطبيق، فالمؤمن هدفه الله تبارك وتعالى، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، وإنما انحدرت الأمة وضلت لأنها أضاعت الهدف الذي تعيش من أجله فترقت بهم السبل. قال تعالى: [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ] (الأنعام: ١٥٣).

فما علينا إلا ملء هذا الفراغ في عقول وقلوب المجتمع حتى تصح مسيرته وتتنظم حياته وفق ما أراد الله تبارك وتعالى، وان نأخذ بطريقة القرآن في إحياء القلوب وترقيتها وتهذيب النفوس وتغذيتها بالعقائد الحقة التي هي منشأ الأخلاق الفاضلة. قال تعالى: [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ] (الحديد: ١٦).

وهذا باب ينبغي للمفكرين والمربين الولوج فيه وهو أسلوب القرآن في الموعظة وإحياء القلوب وجميع الآيات الشريفة فيه التي لو تأملها العاقل لأعاد النظر في منهج حياته، كقوله تعالى في سورة الدخان: [كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ] (الدخان: ٢٥ - ٢٩).

وإني أنصح بقراءة كتاب (القلب السليم)^(١) الذي
يتألف من
جزئين أولهما في العقائد والآخر في الأخلاق وهما صادران
من قلب مخلص طاهر.

٣- التدرجية في الهداية والإصلاح والأخذ بأيدي الناس برفق
ومثالهم الرئيسي على ذلك: التدرج في تحريم شرب الخمر
- باعتباره عادة راسخة في المجتمع وقد أشربت في قلوبهم
وعقولهم - فتدرج في المنع على مراحل، أولها: [يَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ] (البقرة:
٢١٩)، فقال بعضهم لا نشربها لأنها إثم وقد حرم الله
الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم، وقال بعضهم نشربها
بمقدار المنافع فيها، ثم نزل قوله تعالى: [لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ] (النساء: ٤٣)، فامتنع
بعضهم وقالوا لا نتناول شيئاً منافياً للصلاة، ثم نزلت آية
المائدة التي أفادت المنع المؤكد الجازم: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) للمرحوم الشهيد السيد عبد الحسين دستغيب ولم يكن سماحة الشيخ يستطيع
التصريح بالاسماء لأنه يعرضه لعقوبة النظام الصدامي، وكانت هذه الكتب تدخل الى
العراق سرّاً ثم تستنسخ خفية وتوزع كذلك.

إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ [المائدة: ٩٠].

ونفس نزول القرآن نجوماً أي مبعضاً على مدى (٢٣) سنة
إنما يهدف - فيما يهدف إليه - المعالجات الآنية آخذاً بنظر
الاعتبار الزمان والمكان والظروف الموضوعية وتباين مستوى
الناس واستعدادهم للتلقي والتطبيق.

ويمكن أن يكون التدرج بعدة أشكال فعندما يراد معالجة
ظاهرة

اجتماعية متأصلة - كالسنينة العشائرية مثلاً - فنبدأ أولاً
بإثارة الإشكالات حول مدى صحتها وجدواها والتشكيك
فيها ثم طرح البدائل والخيارات الأخرى المقابلة لها فإذا
زرع في النفوس هذا التشكيك وبدأ الالتفات إلى البديل
الأفضل فستنشأ القناعة بإبدالها، وعندئذ يمكن التصدي
لنقضها، أما محاولة نقضها مباشرة ومن دون هذه التهيئة فإنه
يعني الفشل الذريع، وما دامت راسخة ومتأصلة وقد جبل
الإنسان على احترام ما هو مألوف ومورث عنده والتعبد به
فسيكون هؤلاء المتعبدون كلهم ضد اية محاولة لتغيير هذه
الظاهرة الاجتماعية.

فعندما بعث الرسول (ﷺ) بالنبوة لم يتعرض للأصنام مباشرة بل كان يعبد الله تعالى هو (ﷺ) وعلي (عليه السلام) وخديجة (عليها السلام) بمراى ومسمع من قريش من دون أن تتعرض له بسوء، لكنه (ﷺ) فتح الباب للعديد من التساؤلات: ماذا يفعل هؤلاء الثلاثة ولمن يعبدون ولماذا تركوا طريقة قومهم وما هذه الشجاعة والإيمان الراسخ في قلوبهم الذي يجعلهم يقفون بكل اطمئنان مقابل الجميع ... هذه التساؤلات أدت إلى إسلام جماعة - راجع قصة عبد الله بن مسعود في كتب السيرة - ولم تعارضه قريش لأنه لم يستفزها ولم يثر حفيظتها فيما لو تعرض للأصنام مباشرة.

٤- الاهتمام وإلفات نظر الأمة إلى المرتكزات الأساسية لكيان الأمة الذي لا يحفظ إلا بها خصوصاً تلك التي يعلم إعراض الأمة عنها وإهمالها لأمرها من بعده (ﷺ) فشدد عليها كثيراً، مثلاً، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإمامة والولاية للمؤمنين ومشاققة الكافرين ومودة ذوي القربى والاعتصام بالقرآن والعترة والمواظبة على المساجد والجماعات والجمعات، وما أن غاب شخصه (ﷺ) حتى أهملت الأمة هذه الأسس الرصينة لحفظ كيانها فبدأ العد

السريع للانحراف فأى عودة للصالح والإصلاح لا بد لتحقيقها من إعادة دور هذه الأمور في حياة الأمة إلى بحوث مستقلة بإذن الله تعالى.

٥- التسلية وتطبيب خاطر والتخفيف عن المصاعب والآتعب التي تواجه الشخص الذي يسعى إلى إصلاح المجتمع وهدايته أو ما سميناه بحامل القرآن كرسالة إصلاح، قال تعالى: [المص، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ] (الأعراف: ١-٢)، و[فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ] (هود: ١٢)، و[وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ] (النحل: ١٢٧ - ١٢٨)، [لَتَبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَتْوَا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ] (آل عمران: ١٨٦)، وأرقّ تعبير وألطفه قوله تعالى: [وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا] (الطور: ٤٨)، عين الرعاية واللطف والرحمة والحراسة والتوجيه والبصيرة وغيرها.

وتجد سوراً كاملة نزلت لهذا الغرض كسورة يوسف التي تحس إنها نزلت في الفترة العصبية التي عاشها رسول الله (ﷺ) في مكة قبل الهجرة حيث فقد الناصر بموت أبي طالب وخديجة (عليها السلام) ويأس عمليا من إسلام قريش وحاول ان يجد مأوى آخر غير مكة كالطائف فلم يفلح فضاقت الدنيا بالمؤمنين، وفي ذلك الحين نزلت عليهم سورة يوسف تقص عليهم كيف تأمر الأخوة على أخيهم الصغير ورموه في الجب وهو يعني الموت بحسب الأسباب الطبيعة، لكن الله تعالى يرسل قافلة تستنقذه ويبيع إلى بيت ملك مصر ثم يقع في محنة امرأة العزيز وباقي النساء فيسجن سنين لكن الله تعالى ينقذه من السجن ويعلمه تأويل الأحاديث، فنال ببركة ذلك موقع أمين خزائن مصر، ثم أصبح ملكا عليها بعد أن ملك قلوب الناس بأخلاقه وحسن تدبيره. وهنا يأتي أولئك الإخوة المتآمرون ذليلين بين يديه فيعفو عنهم بنفسه الكبيرة وقلبه الرحيم ويقول لهم: [لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ] (يوسف: ٩٢)، ويجمع الله شمله مع أبيه وأخيه. واستعار رسول الله (ﷺ) نفس الكلمة حين فعلت قريش نفس الفعل حتى نصره الله عليهم ومكنه

من رقابهم في عقر دارهم مكة فأعاد عليهم كلمة أخيه
الكريم يوسف (عليه السلام) وقال (صلى الله عليه وآله): (لا تثريب عليكم اليوم
اذهبوا فانتم الطلقاء) بعد أن استنطقهم: ما تروني فاعلاً بكم،
قالوا (أخ كريم وابن عم كريم)^(١)، وهذا إقرار منهم بسمو
ذاته (صلى الله عليه وآله).

٦- الحث على طلب العلم والتعلم والتفقه بكل ما يقرب إلى الله
سبحانه ويزيد من المعرفة به، وقيل أن في القرآن أكثر من
خمسمائة آية تحث على العلم والتفكير وتثني على العلماء
وتذمّ الجهل والجهلاء وتصف عاقبتهم، حتى جعل القرآن
صفة الفقه والعلم والمعرفة بالله تبارك وتعالى سبباً لمضاعفة
قوة المؤمنين على أعدائهم عشرة أضعاف بحسب التعليل
المستفاد من ذيل الآية الشريفة، قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ
يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ] (الأنفال: ٦٥) بينما جعل الصبر الذي
هو من الأسباب المهمة للنصر بمثابة زيادة القوة ضعفاً

واحدًا فقط: قال تعالى: [الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ
 ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
 أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] (الأنفال: ٦٦).

من فقه المواجهة مع الكفار والطواغيت:

وهذا الفقه شامل لكل نواحي الحياة، فماذا ضحك القرآن من أفكار
 تندرج في ما يمكن تسميته فقه المواجهة مع الكفار؟ قال تعالى: [وَلَا تَهِنُوا
 فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ
 اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] (النساء: ١٠٤)، فلماذا الفرار من
 لقاءهم ما دامت الأضرار تحل بالطرفين؟ والفرق أنكم ترجون ما عند الله
 في الآخرة فلا خسارة، بينما هم لا يرجون ما عند الله شيئاً إلا العذاب
 الأليم.

وقوله تعالى: [وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانَعَتَهُمْ حِصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَآتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
 حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي
 الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ] (الحشر: ٢).

وقوله تعالى: [مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ
 يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ
 ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ
 وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ، وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] (التوبة: ١٢٠ - ١٢١) فلماذا التقاعس والتقصير في تقديم ما تقتضيه طاعة الله تبارك وتعالى من جهد ومال ولماذا سوء الظن بالله تعالى هذا الذي يعتري الناس حين يطلب منهم دفع ما بذمتهم من حقوق شرعية كالخمس

والزكاة ونحوهما؟

ومنها قوله تعالى: [ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ] (يونس: ١٠٣).

ومنها هذه الآيات المباركة من سورة محمد، وإذا استطعت أن تنتقل بروحك وفكرك وقلبك إلى تلك الفترة الزمنية السعيدة من حياة البشرية وتصور أنك ضمن الجماعة المؤمنة المحيطة برسول الله (ﷺ) التي واكبته من الزمان الصعب أول الرسالة عندما كانوا قلة مستضعفين تسومهم قريش سوء العذاب حتى هذه الفترة التي دب فيها العجز واليأس لدى المشركين بعد وقعة الأحزاب حيث أصبح زمام المبادرة بيد رسول الله (ﷺ) وتوالت انتصاراتهم من فتح الحديبية إلى فتح خيبر وفتح مكة والطائف ثم اليمن والجزيرة كلها، فتصور أنك هناك وينزل عليك هذا الخطاب القرآني العظيم ومن لدن ربك ومدبر أمورك وخالق السموات والأرض يتحدث إليك مباشرة ليقول لك: [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]

[الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ، فَإِذَا لَقِيتَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبِ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١)، إِنَّ

(١) وهذه الآية تمثل الإطار العام لهذه المقابلة المؤمنين لهم مولى يرعاهم ويتولى تربيتهم وسعادتهم وصلاحهم وهو الله تبارك وتعالى بينما الكفار لا مولى لهم وإنما مولاهم الشيطان الضعيف الذي يفر عند المواجهة ويخذلهم [وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بريءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أرى ما لا ترون إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ]

(سورة الأنفال: ٤٨)

اللَّهُ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ، وَكَأَيِّنْ
مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ،
أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سَوَاءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ [محمد: ١-١٤]،
وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ
فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي
ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا
وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [النور: ٥٥].

وهو أثناء ذلك يحذر من محاولات المنافقين الذين يخذلون المؤمنين
عن مواجهة الأعداء ويسخرون من ضعف إمكانياتهم متغافلين عن سر قوة
المؤمنين وهي اتصالهم بالله تبارك وتعالى، فاسمعه سبحانه يقول: [إذ يقول
المنافقون والَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هُوَآءُ دِينِهِمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [الأنفال: ٤٩].

وتندرج في هذا السياق - أعني فقه المواجهة مع الكفار - كل
الوعود الإلهية بالنصر والغلبة ووراثة الأرض، وأن العاقبة لهم، وأن الله
معهم، وتنزل الملائكة عليهم بالسكينة من ربهم، ورفع الخوف والحزن
عنهم، وعقد صفقة الشراء معهم فيشتري منهم أنفسهم وأموالهم والثلث

الجنة، وكذا مضاعفة القرض لله تبارك وتعالى والإنفاق في سبيله. ولا يسع هذا المختصر كل التفاصيل.

والحقيقة الكبرى التي يثبتها القرآن الكريم بهذا الصدد أن النصر والهزيمة أمام العدو الخارجي - الكفار - إنما هي فرع النصر والهزيمة مع العدو داخل النفس الأمارة بالسوء وهو الشيطان، فتراه عندما يعد المؤمنون بخلافة الأرض ووراثتها ومن عليها فإنه يجعل الخطوة الأولى في ذلك إصلاح الذات وتطبيق المنهج الإلهي على النفس أولاً، قال تعالى: [ونريد أن نمنَّ على الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ] (القصص: ٥ - ٦)، فأولاً جعلهم أئمة وهو يعني تطهير ذواتهم وتنزيهها، ويؤكد أن لا قيمة للنصر على الكفار إذا لم يكن مقترناً بالنصر على الشيطان وإخلاص العمل لله سبحانه لأن العمل أن لم يكن ابتغاء مرضاة الله فهم والكفار على حد سواء وكلاهما أهل دنيا وما لهما في الآخرة من نصيب.

فمثلاً في خضم هزيمة المسلمين في معركة أحد والخسارة الأليمة التي حلت بهم يخاطبهم سبحانه: [إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا] (آل عمران: ١٥٥) فهزيمتهم وإدبارهم كان بسبب ما اكتسبوا من السيئات، وبالمقابل يقول

تعالى: [إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ] (محمد: ٧)، ونصر الله يكون بطاعته تبارك وتعالى وإلا فإنه غني عن العالمين، والآية المتقدمة [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ]، ومن هنا خاطب رسول الله (ﷺ) سرية مجاهدين عادت من القتال: (مرحبا بكم، قضيتم الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر. قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: جهاد النفس)^(١).

الكيان الصهيوني من الأعراض المرضية فعالجوا أصل المرض: فعندما يهتم المسلمون اليوم بأمر الدولة الصهيونية اللقيطة ويسعون إلى إزالتها، عليهم أن يلتفتوا إلى أن هذه الدولة ما هي إلا أحد الأعراض المرضية التي تظهر على جسد الأمة الإسلامية نتيجة وجود مرض كامن فيها هو الأصل والعلة لهذه الأعراض، والمرض هو ابتعاد المسلمين عن المنهج الإلهي في حياتهم فلا ينبغي لهم الاهتمام بالأعراض المرضية والغفلة عن علة هذه الأعراض، ويكون مثلهم كما يجري في ساحة مصارعة الثيران - على تشبيه احد المفكرين^(٢) - فالثور الهائج يركّز كل همه وعدائه وغضبه وقوته على الخرقه الحمراء ويفغل عن المصارع الحامل لها، فراح هذا المصارع يغرز في عنقه الخناجر التي تصيب مقتله

(١) الكافي: ١٢٥، باب: وجوه الجهاد.

(٢) وهو: الشيخ جودة سعيد.

وهو غافل عنه حتى يموت ويفنى. فلا يكون حالنا كحال ذلك الثور؟! وأنت ترى أن الأمة تقترب من النصر على أعدائها كلما اقتربت من النصر على أنفسها وبمقدار ما تعود وترجع إلى الله تبارك وتعالى.

فائدة تكرار القصص في القرآن:

٧- تكرار واستمرار جرعات العلاج وعدم الاكتفاء بعرض العلاج لمرة واحدة عند التصدي لتصحيح حالة منحرفة أو سد نقص أو علاج خلل موجود في فكر الأمة أو عقيدتها أو سلوكها، فمثلاً تجد قصص بعض الأنبياء قد تكررت أكثر من عشر مرات وكل طرح له ذوقه وأثره ودوره في تحقيق الغرض وبترك انطبعا غير الذي يتركه الآخر وان كان الجميع بنفس المضمون.

فعندما نريد أن تناول قضية تبرج المرأة أمام الرجل وخلاعتها ونصب نفسها شيطانياً يصد عن ذكر الله تعالى وطاعته لتجسيد قول إبليس عملياً: [لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ] (الأعراف: ١٦ - ١٧)، وهذه الفاسقات يستعملن شتى الأساليب لغواية الرجال وإيقاعهم في المعصية من السفور المتبرج في

الشارع إلى الحركات المتميزة في الجامعات إلى إبداء مفاتن الجسد إلى الرياضة إلى المشاهد الخليعة في الفن. فعندما نريد أن نتصدى لمواجهة هذا الداء الفتاك في المجتمع فيمكن معالجته في كتاب عن الظواهر الاجتماعية المنحرفة وكتاب عن قضايا المرأة وكتاب عن اثر الرياضة والفن في تدمير أخلاقيات المجتمع وكتاب عن مشاكل طلبة الجامعات وهمومهم وتطلعاتهم وكتاب بنفس المضامين عن الشباب وكتاب عن فقه العائلة ويتضمن الروابط الأسرية والاجتماعية وفق تعاليم الشريعة وهكذا لان هذه المشكلة الخطيرة تدخل في جميع هذه المحاور، وتناولها في كل المحاور يعطيها صورة ونمطا غير الذي يعطى عند عرضها في محور آخر، ولا اقل من ازدياد عدد الشرائح التي تخاطبها هذه الكتب وبالنتيجة تكون الصورة متكاملة عندما تتناول من جميع الاتجاهات^(١).

١

(١) تم إصدار كتيبات ونشرات تغطي كل هذه المحاور المذكورة بفضل الله تبارك وتعالى، وكانت تنتشر بسرعة وبكميات كبيرة مما أدى الى رعب النظام وارتبائه وسعى بمكره وخدعه لمعرفة من يتولى الطبع والنشر واعتقل بعضهم.

٨- سلوك مختلف الطرق لهداية الإنسان ولما كان له عوالم ثلاثة هي النفس والعقل والقلب فتجده قد سخرها جميعاً ووظفها لاستمالة البشر إلى طاعة الله تبارك وتعالى وقد شرحت

ذلك بشيء من التفصيل في دروس (فلنرجع إلى القرآن).
وتجده كثيراً ما يستنطق الفطرة ويستشيرها وقد وصف علة إنزال القرآن في بعض الأحاديث أنه: (ليستشير كوامن فطرتهم) فإن الوجدان أوضح دليل وأصدق لا يناقش فيه أحد، فاستمع إليه تعالى وهو يخاطب الفطرة في إثبات الصانع: [أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ، أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ]، [أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ]، [أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ]، [أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تَوْرُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ] (الواقعة: ٥٨ - ٧٢)، أو يقول تعالى وهو في مقام عتاب الإنسان العاصي: [هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ] (الرحمن: ٦٠)، وأنت ترفل في نعم الله تبارك وتعالى: [وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا] (إبراهيم: ٣٤).

كيف السبيل إلى إعادة تفعيل دور القرآن؟

وأعود الآن إلى التساؤل الذي طرحناه وهو كيف السبيل إلى إعادة القرآن إلى الحياة والاستفادة منه، ويتحمل مسؤولية ذلك طرفان: المجتمع والحوزة الشريفة التي هي عنوان ورمز وعي الأمة وفكرها ومستواها الديني فقد قلنا إن أهم وظيفة تقوم بها الحوزة في المجتمع هي طرح مفاهيم القرآن ورؤاه وتصوراته وأخلاقه وعقائده - التي أشرنا إلى بعضها - إلى المجتمع بالفهم الصحيح النقي كما يريد القرآن وبالشكل المناسب ليكون دوره فاعلا في حياة الأمة ويكون ذلك بعدة قنوات كالمنبر الحسيني والمحاضرات والندوات وخطب الجمعة والجماعة والكتب والمجلات والنشرات ونحوها.

ولكن قبل ذلك يجب إعادة القرآن إلى مناهج الدراسة الحوزوية ويتم ذلك على مستويين:

الأول: الدراسات الأولية أي مستوى المقدمات والسطوح الابتدائية فيعطون المناهج التالية^(١):

١

(١) أدخل سماحة الشيخ هذه المفردات كلها في برامج الدراسة في جامعة الصدر الدينية التي يشرف عليها.

- ١- حفظ وتلاوة القرآن الكريم وضبطه بالشكل وفق قواعد اللغة العربية وإتقان قواعد تجويده ضمن الإطار الشرعي.
- ٢- تفسير إجمالي للألفاظ ولو على نحو شرح المفردات كما في تفسير شبر ونحوه، لياخذ الطالب أفكاراً عامة عن معاني القرآن.
- ٣- دراسة علوم القرآن، وأفضل كتاب في ذلك (البيان) أو مقدمة كتاب آلاء الرحمن المطبوعة في أول تفسير شبر.
- ٤- إقامة المسابقات في العلوم المختلفة عن القرآن وتخصيص جوائز للفائزين والمتفوقين.

الثاني: الدراسات العالية ويكون على شكل عدة خطوات:

- ١- فتح باب التخصص في الدراسات القرآنية، وأفضل وقت له هو بعد إكمال السطوح العالية حيث يعد الطالب المتخصص منهجاً خاصاً به ويمكن أن يستفاد من بعض الكتب الموجودة بعد أن يجرى اختبار معين لاكتشاف أهلية الطالب الذي يريد التخصص في هذا المجال ويفرغ لهذه الدراسة مع توفير المصادر ذات الصلة ليكون مدرساً أو مفسراً أو باحثاً قرآنياً.

٢- دراسة تفسير القرآن بشكل معمق أما كل القرآن أو آيات ومقاطع منتقاة منه تخدم هدفاً معيناً، ويمكن أن يتخذ أحد التفاسير متناً يتولى المدرس شرحه والتعليق عليه وإضافة ما يمكن إضافته من المعلومات النافعة المستفادة من التفاسير والمصادر الأخرى، وفي رأيي القاصر إن من المصادر المفضلة هما الميزان وفي ظلال القرآن لأن لكل منهما اتجاهات خاصة في التفسير غير الآخر يعلمه من نهل من معارفهما.

٣- وضع مناهج للدروس في مفاهيم القرآن وتصورات ونظرياته وأطروحاته وفلسفته في الكون والحياة بعد أن يكون الطالب قد أخذ تفسيراً اجمالياً لألفاظ القرآن في دراسته السابقة، وتحصل هذه الأمور بدراسة آيات القرآن دراسة موضوعية وليس بالطريقة التجزيئية المتعارفة وإن كانت هذه الطريقة هي الأساس لتلك، وقد قارنت بين المنهجين في كتابي المخطوط (مدخل إلى تفسير القرآن) الذي يعد هذا البحث مقدمة له.

ويركز على المواضيع العلمية أي التي لها واقع معاش سواء

على صعيد

العقائد أو الأخلاق أو الفكر، فتناول مثلاً: التقوى، الصبر، الفقه، التوحيد، الإمامة، الولاية، الشيطان، المعاد، المجتمع المسلم مقومات بنائه وعوامل انهياره، الرجاء والأمل، الموعظة والعبارة، سنن الله في الأمم والمجتمعات، وهكذا، وعندئذ ستتغير الكثير من أفكارنا لأن المعاني المتداولة الآن للألفاظ القرآنية لا تنطبق بالضبط على الفهم القرآني لها بحسب استقراء موردها في القرآن بسبب ما تراكم من غبار التأويلات والتفسير بالرأي وتحكيم الأهواء والتعصبات وحملات المغرضين وغيرها.

الفقه والفقهاء في المصطلح القرآني:

وقد عرضنا قبل قليل مفهوم الجاهلية في المصطلح القرآني وصفات وخصائص المجتمع الجاهلي والبدائل الإلهية التي يقدمها القرآن وهكذا كنموذج لمفهوم اجتماعي.

وأقدم الآن الفهم القرآني للفظ حوزوي وهو (الفقه) كمثال آخر، فالفقه يتداول عندنا على انه العلم بالأحكام الشرعية رغم أنه في المصطلح القرآني بمعنى المعرفة بالله تبارك وتعالى ولا ملازمة بينهما كما هو واضح بل النسبة بينهما العموم من وجه.

ففي الآية الشريفة: [فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ] [٢٦٩] ونحن نعلم ان الحذر والتقوى لا ينشآن من المعرفة بالأحكام الشرعية بل للحذر

مناشئه الروحية والنفسية والعقلية وبعد حصول التقوى والمعرفة في القلب يندفع إلى تعلم الأحكام الشرعية وتطبيقها وتستطيع أن تجرب ذلك بنفسك فاقراً كتب الفقه وتعمق فيها من أولها إلى آخرها هل تراها غدت قلبك بشيء أو زادت فيه الحذر والتقوى؟ وكم رأينا فقيها بالمعنى الاصطلاحي وهو مكب على الدنيا وبعيد كل البعد عن الله تبارك وتعالى.

والقرآن يقص علينا خبر مثل هذا الفقيه: [وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦).

ومن الشواهد على أن معنى الفقه هو المعرفة بالله تعالى جعل محله القلب في الآيات الشريفة وهو محل المعرفة الحقيقية بالله تعالى، بينما الأحكام الشرعية محلها العقل، قال تعالى: [رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَّبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ] (التوبة: ٨٧)، وقال تعالى: [لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا] (الأعراف: ١٧٩).

لذا جعلت الآية هذا الفقه أي المعرفة الراسخة بالله والمبدأ والمعاد سببا لمضاعفة القوة عشرة اضعاف. قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ [(الأنفال: ٦٥).

ويؤكد هذا المعنى ما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله (ﷺ) قال: (ألا أخبركم بالفقيه حقاً؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من عذاب الله ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يرخص في معاصي الله ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره، ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه) (١) هذا في كتاب الوسائل. وللحديث بقية في مصدر آخر (٢) كالتالي: (فإنه إذا كان يوم القيامة نادى نادى مناد: يا أيها الناس إن أقربكم من الله تعالى مجلساً أشدكم له خوفاً، وإن أحبكم إلى الله أحسنكم عملاً، وإن أعظمكم عند الله نصيباً أعظمكم فيما عنده رغبة، ثم يقول عز وجل: لا أجمع لكم اليوم خزي الدنيا وخزي الآخرة، فيأمر لهم بكراسي فيجلسون عليها، وأقبل عليهم الجبار بوجهه وهو راض عنهم وقد أحسن ثوابهم).

فترى أن صفات الفقيه كل ما يقرب إلى الله تبارك وتعالى، وفي حديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (كانت الفقهاء والحكماء إذا كاتب بعضهم بعضاً كتبوا ثلاثاً ليس معهن رابعة: من كانت الآخرة همته كفاه الله

(١) بحار الأنوار: ٤٩٢ باب: صفات العلماء وأصنافهم، حديث ٨

(٢) مدينة البلاغة: صفحة ٩٨ عن كتاب الجعفریات.

همه من الدنيا، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته، ومن أصلح فيما بينه وبين الله عز وجل أصلح الله فيما بينه وبين الناس^(١).

وفي حديث عن أبي الحسن (عليه السلام): (من علامات الفقه الحلم والعلم والصمت، إن الصمت باب من أبواب الحكمة وإن الصمت يكسب المحبة وإنه

٢

دليل على كل خير)^(٢).

ويمكن استفادة هذا المعنى بالجمع بين حديثين ففي الخصال عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي: الأمراء والفقهاء)^(٣) وفي الوسائل عن الأماشي. بدل العلماء القراء فإذا ضمنا إليه الحديث الآتي في صفة القراء نحصل على المعنى المذكور.

فبين الفقيه بالمصطلح القرآني والفقيه بالمعنى الحوزوي عموم من وجه إذ قد يكون فقيها بالمعنى القرآني وهو ليس كذلك بالمعنى الحوزوي إذ يوجد الكثير من أولياء الله العارفين ولهم الكرامات المشهودة مع أنهم لم يبلغوا درجة عالية في العلوم الحوزوية وقد يكون العكس فتجد شخصاً

(١) الخصال: صفحة ٢٩١ باب الثلاثة.

(٢) الاختصاص: ٢٣٢

(٣) تقدم مصدره في بداية الكتاب.

امتلاً ذهنه بالنظريات والأفكار الأصولية والعقلية والمسائل الفقهية بحيث تجده ملماً حتى بدقائق المسائل لكن قلبه غير معمور بذكر الله تعالى ولو سألته عن أبسط مسألة في تهذيب النفس والسلوك الصالح إلى الله تبارك وتعالى وتصفية الباطن وتطهير القلب لبقى متحيراً، فمثل هذا ليس فقيها بالمعنى القرآني، والكامل هو من جمع المعنيين كما هو شأن علمائنا المقدسين الذين بلغوا مقاماً عالياً في الفقه والأصول وشامخاً في العرفان، وهم المقصودون في الحديث الشريف: (الفقهاء أمناء الرسل) (١)، وبمثل هذا المنظار القرآني يجب أن نفهم الأحاديث الشريفة لئلا تضيع علينا معانيه السامية.

مسؤولية الحوزة عن تفعيل دور القرآن:

وإني هنا أذكر حديثاً واحداً فقط يبين مسؤولية الحوزة الشريفة عن توعية المجتمع وهدايته وإصلاحه فقد روي أن رسول الله (ﷺ) (خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر طوائف من المسلمين فأثنى عليهم، ثم قال: ما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون؟ والذي نفسي بيده ليعلمن جيرانهم أو ليتفقهن أو ليتفطنن أو لأعاجلهم بالعقوبة في دار الدنيا، ثم نزل ودخل بيته، فقال أصحاب رسول الله (ﷺ): من يعني

بها الكلام؟ قالوا: ما نعلم يعني بهذا الكلام إلا الأشعرين فقهاء علماء ولهم جيران جفاة جهلة.

فاجتمع جماعة من الأشعرين فدخلوا على النبي (ﷺ) فقالوا: ذكرت طوائف من المسلمين بخير وذكرنا بشر فما بالنا؟ فقال رسول الله (ﷺ) لتعلمن جيرانكم ولتفقهنم ولتأمرنهم ولتنهئنهم أو لأعاجلنكم بالعقوبة في دار الدنيا، فقالوا: يا رسول الله فأمهلنا سنة ففي سنة ما نعلمهم ويتعلمون فأمهلهم سنة ثم قرأ رسول الله (ﷺ): [لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ] (١).

هذه هي بعض المقترحات التي أقدمها بين يدي الحوزة الشريفة في

هذا

المجال والوظيفة المشتركة للجميع هي المواظبة على تلاوة القرآن والاستفادة منه آناء الليل وأطراف النهار وستعرف الكثير عن هذا من خلال الأحاديث الشريفة الآتية.

وهذه الوظيفة للحوزة لا تخصهم وإنما خاطبناهم بها لوجوبها عليهم أكثر من غيرهم، وإلا فالمجتمع كله مسؤول عن اتباع هذه الخطوات

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦ / ٨٤ في تفسير الآية، عن كتاب الدر المشور.

بحسب ما يناسب كل فرد، فذوو المعرفة القليلة يبدأون بقراءة التفاسير المبسطة كتفسير شبير.

وإني أنصح كل مسلم - وهو ما جربته أنا - أن يبدأ حياته مع القرآن بأن يتلوه في مصحف وعلى هامش كل صفحة تفسيرا مختصراً كتفسير شبير؛ ليتسنى له فهم مفردات الآيات خلال تلاوتها، ويستمر على هذا الحال عدة ختمات إلى أن يمتلك معرفة إجمالية بالقرآن، ثم يعود إلى نسخة المصحف يتلو فيها مع تطوير قابليته بقراءة كتب التفسير المتقدمة كالميزان وفي ظلال القرآن ويقرأ الكتب التي شرحت مفاهيم القرآن أو تناولت القرآن بحسب الموضوعات، حيث يتخذ احدها عنواناً للبحث ثم يستقري القرآن فتجتمع كل الآيات المتعلقة بذلك العنوان ثم يستنتج من المجموع تصور القرآن ونظريته - وأنا هنا استعير هذه المصطلحات الفكرية لأجل استئناس الأذهان بها مع بعض التحفظات - لهذا الموضوع الذي يفترض فيه أن يعالج مشكلة واقعية يعيشها المجتمع سواء كانت عقائدية أو أخلاقية أو فكرية أو غيرها.

وقد يكون من الأفضل متابعة ذلك مع بعض فضلاء الحوزة الشريفة ليوجهوهم ويحيبوا عن تساؤلاتهم ويرشدوهم لما ينفعهم فإن المجتمع والحوزة احدهما يكمل الآخر، فالحوزة توجه المجتمع والمجتمع يضغط على الحوزة لتكون بمستوى المسؤولية وبمستوى حاجة الأمة وطموحاتها

ومواكبة للزمان الذي تعيشه وعندئذ ستنفرد العناصر الكفوءة من الحوزة عن غيرها وستعرف الأمة من هو الأصلح لها.

إن القرآن لا يفهم حق فهمه إلا عندما يحمله الإنسان كرسالة يصلح بها نفسه والذين من حوله ويواجه بها الخطأ والانحراف الذي يضرب بأطنابه على البشرية، عندئذ يعيش في مثل الأجواء التي نزل فيها وعندئذ تنفتح له أسراره، ولا تكفي قراءته لمجرد التبرك وإن كان في ذلك فضل لا ينكر.

ومن الضروري أن تتناول إحدى الدراسات القرآن بحسب تأريخ نزول آياته وإن كان الإلمام بذلك تفصيلاً أمراً متعسراً لعدم وجود دليل قطعي عليه إلا أنه يمكن اقتناص بعض موارده ويستفاد من هذا البحث فوائد كثيرة في مجال معرفة خطوات القرآن في إصلاح المجتمع باعتباره نزل تدريجياً بحسب الوقائع والحوادث.

إن هذا التنزيل المتدرج للقرآن بدلاً من النزول دفعة واحدة له وقعه المباشر وتأثيره الفعال في الحالات التي عالجها، قال تعالى: [وَقَرَّاناً فَفَرَّقَانَهُ لِنَتَقَرَّاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا] (الإسراء: ١٠٦)، وما دام هو كتاب تربية وهداية وإحياء فلا بد أن يكون تدريجياً وبلطف فيصف العلاج المناسب في الوقت المناسب وبالجرعة المناسبة لا أقل ولا أكثر

ولا قبل الموعد ولا بعده، وهكذا أخذ القرآن بيد هذه الأمة برفق لتجد
نفسها بعد عقدين من الزمان في قمة
السمو والكمال والرفعة والعزة والمنعة.

بعض الآداب والمستحبات المتعلقة بتلاوة القرآن:
وأود هنا أن أذكر بعض الآداب والسنن والمستحبات المتعلقة بقراءة
القرآن والمستفادة من الروايات الشريفة:

١- يستحب ختم القرآن في الشهر مرة، وأن لا تزيد عن أربعة
أشهر أي يختمه في السنة ثلاث مرات غير الزيادات التي
ينبغي إضافتها في شهر رمضان المبارك.

٢- أن تكون قراءته على نحو الختمة أي يبدأ من أول القرآن
إلى آخره، وليس قراءة سور متفرقة اشتهر فضلها بين الناس
مهما كانت أهميتها، ليمر على القرآن كله وينال كل بركاته
وهو المعبر عنه في الحديث الشريف الآتي: (الحالُّ
المرتحل) (١).

٣- أن يصادف الختم يوم الجمعة وأن يقرأ عند ختم القرآن
الدعاء المختص به وهو موجود في الصحيفة السجادية.

- ٤- عندما يختم القرآن لا يقف عند نهايته بل يصله مباشرة
بافتتاح ختمه جديدة ولو بأن يبدأ بسورة الفاتحة وأول
خمس آيات من سورة البقرة.
- ٥- أن يكون على طهارة وفي مصلاه مستقبلاً القبلة.
- ٦- ورد في تفسير قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا
وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا] (آل عمران: ٢٠٠)، إن من المرابطين من
يثبت على مصلاه ينتظر حلول وقت الفريضة، فلتحصيل
فضل المرابطين يستغل المؤمن هذه الحالة وهي فترة انتظار
وقت الصلاة لتلاوة القرآن ويكون الأجر أعظم لو كان ذلك
في المسجد منتظراً صلاة الجماعة.
- ٧- وورد استحباب النوم على طهارة وقراءة القرآن قبل أن يأوي
المؤمن إلى فراشه وفي حديث إنه: (من أحدث ولم يتوضأ
فقد جفاني ومن توضأ ولم يصل ركعتين فقد جفاني ومن
صلى ركعتين ولم يدعني فقد جفاني ومن دعاني ولم أجبه
فقد جفوته ولست برب جاف)^(١)، وإذا أضيف لها
الاستحباب المؤكد لصلاة الليل، واستحباب التخلي قبل
النوم، واستحباب السواك، خرجنا من ضم المجموع بورده

(١) وسائل الشيعة: كتاب الطهارة، أبواب الوضوء، باب ١١١ حديث ٢

مهم وهو أن المؤمن قبل أن يأوي إلى فراشه يتخلى وينظف أسنانه ثم يتوضأ ويصلي صلاة الليل، إما كلها أو بعضها، ويؤد البعض الآخر إلى ما قبل طلوع الفجر ثم يقرأ مقداراً من القرآن الكريم ويدعو الله سبحانه له وللمؤمنين فإنه سيجمع كل هذه المستحبات. أما الإنسان الذي يسهر الليل على البرامج والأفلام الفاسدة التي تتعب أعصابه وترهقه فيعيش في معاناة ونكد.

٨- أن تكون تلاوته للقرآن خصوصاً للمبتدئين في تفسير شبر الذي يتضمن أكثر من فائدة ففيه نسخة من المصحف الشريف وفيه تفسير إجمالي لمعاني القرآن، وهو ما قلناه أنه ضمن مناهج الدراسات الأولية للقرآن، وفيه مقدمة في علوم القرآن وهو درس آخر، وفيه ملحق بفهرس الألفاظ القرآنية بحيث أن أي آية تريد معرفة موضعها تستخرج من هذا الدليل وموضع أي كلمة منها، وفيه القراءات المتعددة للكلمة الواحدة إن وجدت في هامشه، وفيه ترتيب نزول السور ففي عنوان كل سورة يقول أنها نزلت بعد كذا سورة، كل هذه الفوائد في هذا الكتاب الجليل.

٩- أن يبدأ بإهداء الختمة الأولى لرسول الله (ﷺ) ثم الثانية
 لأمير المؤمنين (عليه السلام) وهكذا لجميع المعصومين الأربعة
 عشر (عليهم السلام)، فقد وردت فيه رواية شريفة وهم أكرم الخلق
 فسردون الهدية بما يليق بكرمهم يوم القيامة.

١٠- رفع الصوت بالقرآن عند التلاوة، وان يكون حزينا وان يتدبر
 معانيه ولا يكن هم أحدكم نهاية السورة، كما في الحديث.

١١- استحباب القراءة في المصحف حتى لو كان حافظاً لما يقرأ،
 ويستحب أن يكون لكل فرد من أفراد العائلة نسخة من
 المصحف الشريف خاصة به يضع فيه علامة.

١٢- الإنصات إلى القرآن وتدبر ما يسمع في أية فرصة تسنح
 للاستماع.

أسأل الله تعالى أن يحيينا حياة القرآن وينيلنا شفاعته ويجعلنا ممن
 يهتدي بهداه ويستضيء بنور علمه إنه ولي النعم وهو اللطيف بعباده ومن
 لطفه بنا أن هدانا إلى دينه القويم وأتحفنا بكتابه الكريم ونبيه العظيم وأهل
 بيته الميامين الغرر. الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا نهتدي لولا أن هدانا
 الله.

الأربعون حديثاً في فضل القرآن وآثاره وأدب تلاوته:
وسأكتفي هنا بذكر نصوص الأحاديث مع جعل عنوان مناسب
لمضمونها، وتصنف الأحاديث بحسب المضامين، أما شرحها وبيان ما فيها
من نكات فيمكن أن يكون له محل آخر، وسوف لا أتحدد بالعدد أربعين
لأن الأخبار التي حثت على حفظ أربعين حديثاً لا نفهم منها أنها بشرط لا
عن الزيادة فالزيادة خير إذن.
١- ضرورة تعلمه:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ينبغي للمؤمن أن لا يموت حتى يتعلم القرآن أو أن يكون في تعليمه) (١).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (لا يعذب الله قلباً وعى القرآن) (٢).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (خياركم من تعلم القرآن وعلمه) (٣).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (حملة القرآن في الدنيا عرفاء أهل الجنة يوم القيامة) (٤).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده) (٥).

وعنه (صلى الله عليه وآله) قال: (إذا قال المعلم للصبي: بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبويه وبراءة للمعلم) (٦).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (الحافظ للقرآن العامل به مع السفارة الكرام البررة) (٧).

٢- تعلم القرآن أعظم نعمة:

عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (من قرأ القرآن فظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد حقر ما عظم الله، وعظم ما حقر الله) (٨).

(١) في (٢) في (٣) في (٤) و(٥) و(٦) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب قراءة القرآن ولو

في غير الصلاة، ١، الأحاديث ٤، ٥، ٦، ١١، ١٥، ١٦ بحسب الترتيب.

(٢) المصدر السابق، باب ٥ حديث ١.

٣- القرآن شافع مشفع وخصم مصدق:

عن الرسول (ﷺ) أنه قال في حديث: (إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وما حلُّ مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان تحصيل - إلى أن قال - لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائب، مصابيح الهدى ومنار الحكمة) (١).

٤- صفة قارئ القرآن:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: (ينبغي لمن قرأ القرآن إذا مرَّ بآية من القرآن فيها مسألة أو تخويف أن يسأل عند ذلك خير ما يرجو ويسأله العافية من النار ومن العذاب) (٢).

وعن رسول الله (ﷺ): (إني لأعجب كيف لا أشيب إذا قرأت القرآن) (٣)، ومن خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف المتقين قال: (أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء الكتاب يرتلونه ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به تهيج أحزانهم، بكاء على ذنوبهم، ووجع كلوم جراحهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وأبصارهم فاقشعرت منها جلودهم ووجلّت قلوبهم فظنوا أن سهيل جهنم وزفيرها

(١) المصدر، بيا ٢، حديث ٣

(٢) في ٤ و (٥) المصدر، باب ٣ الأحاديث ٣، ٢، ٦ بحسب الترتيب.

وشهيقها في أصول آذانهم، وإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت أنفسهم إليها شوقاً، ووطنوا أنها نصب أعينهم^(١).

٥- وجوب إكرام حملة القرآن وحرمة الاستخفاف بهم:

عن رسول الله (ﷺ) قال: (إن أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميين ما خلا النبيين والمرسلين فلا تستضعفوا أهل القرآن حقوقهم، فإن لهم من الله العزيز الجبار لمكاناً)^(٢).

٦- ثواب من يصعب عليه تعلم القرآن وحفظه:

عن الصادق (عليه السلام) قال: (من شدد عليه القرآن كان له أجران ومن يسر عليه كان مع الأولين)^(٣).

وعنه (عليه السلام) قال: (إن الذي يعالج القرآن ويحفظه بمشقة منه وقلّة حفظ له أجران)^(٤).

٧- وجوب قراءة البسملة قبل السورة:

عن الصادق (عليه السلام): (إذا أمّ الرجل القوم جاء شيطان إلى الشيطان الذي هو قرين الإمام فيقول: هل ذكر الله يعني هل قرأ بسم الله الرحمن

(١) المصدر، نفس الباب، حديث ٦

(٢) المصدر، باب ٤ حديث ١

(٣) المصدر، باب ٣

(٤) المصدر، حديث ٢

الرحيم فإن قال نعم هرب وإن قال لا ركب عنق الإمام ودلى رجله في صدره فلم يزل الشيطان أمام القوم حتى يفرغوا من صلاتهم^(١).

٨- استحباب قراءة القرآن عند زيارة القبور:

في (من لا يحضره الفقيه) عن الإمام الرضا (عليه السلام): (ما عبد مؤمن زار قبر مؤمن فقرأ عنده إنا أنزلناه في ليلة القدر سبع مرات إلا غفر الله له ولصاحب القبر)^(٢).

وفي رواية أخرى: (أمن من الفزع الأكبر) وفي معناه روايات عديدة.

وفي أخرى استحباب إضافة سورة الفاتحة والمعوذتين والتوحيد وآية الكرسي كل منها ثلاث مرات، وورد في ثوابها: (إن الله يبعث إليه ملكاً يعبد الله عند قبره ويكتب له وللमित ثواب ما يعمل ذلك الملك فإذا بعثه الله من قبره لم يمر على هول إلا صرفه الله عنه بذلك الملك الموكل حتى يدخله الله به الجنة)^(٣).

٩- فضل تعلم القرآن في الشباب وآثاره:

(١) بحار الأنوار: ٢٠٨٢

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الطهارة، أبواب صلاة الجنائز، باب ٥٧ حديث ٥

(٣) جامع أحاديث الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب زيارة القبور، باب ٢ وفيه عشرة

أحاديث.

عن الصادق (عليه السلام) قال: (من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه، وجعله الله من السفرة الكرام البررة، وكان القرآن عنه حجيلاً يوم القيامة، يقول: يا رب إن كل عامل قد أصاب أجر عمله غير عاملي، فبلغ به أكرم عطائك، قال: فيكسوه الله العزيز الجبار حلتين من حلل الجنة ويوضع على رأسه تاج الكرامة، ثم يقال له: هل أرضيناك فيه؟ فيقول القرآن: يا رب قد كنت أرغب له فيما هو أفضل من هذا، قال: فيعطى الأمن بيمينه والخلد بيساره ثم يدخل الجنة فيقال له اقرأ آية فاصعد درجة، ثم يقال له: هل بلغنا به وأرضيناك؟ فيقول: نعم) (١).

١٠ - ضرورة تعليم الأولاد القرآن:

عن الرسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث إلى أن قال: (ويكسى أبواه - أي حامل القرآن - حلتين إن كانا مؤمنين ثم يقال لهما هذا لما علمتماه القرآن) (٢) [٣٠٦] وفي حديث عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إن الله ليهم بعذاب أهل الأرض جمعياً حتى لا يحاشي منهم أحد إذا عملوا بالمعاصي واجترحوا السيئات، فإذا نظر إلى الشيب ناقلي أقدامهم إلى الصلوات والولدان يتعلمون القرآن رحمهم فأخّر

(١) الكافي: ٦٠٤٢

(٢) نهج السعادة: ٢٢٣/٧

١

ذلك عنهم) (١).

١١- أقسام قرآن القرآن وصفة القارئ الحق:

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (قرآن القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذة بضاعة واستدر به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيع حدوده) (٢) وأقامه إقامة القدح، فلا كثر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله واطمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عنه فراشه، فبأولئك يدفع الله البلاء وبأولئك يديل الله من الأعداء وبأولئك ينزل الله الغيث من السماء، فوالله لهؤلاء في قراءة القرآن اعز من الكبريت الأحمر) (٣).

٣

(١) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب أحكام المساجد، باب ٣ حديث ٣

(٢) وهم هؤلاء الذين يدققون في قواعد التجويد التي وضعوها وغفلوا عن معاني ما يقرأون.

(٣) و (٢) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب قراءة القرآن ولو في غير الصلاة، باب ٨

حديث ٣ ١

٣ المصدر السابق، باب ١١، حديث ١٨

٤ المصدر السابق، باب ١١، حديث ٢

وعن رسول الله (ﷺ) قال: (يا حامل القرآن تواضع به يرفعك الله، ولا تعزز به فيذلك الله، يا حامل القرآن تزيّن به لله يزينك الله به، ولا تزين به للناس فيشينك الله به) (٢).

١٢- فهم القرآن مرتبة قريبة من النبوة:

عن رسول الله (ﷺ) من حديث قال: (من ختم القرآن فإنما أدرجت النبوة بين جنبيه ولكنه لا يوحى إليه) (٣).

١٣- الطريق الأكمل لقراءة القرآن أن تبدأ من أوله إلى آخره وليس بأن تقرأ سوراً متفرقة:

عن الزهري قال: (قلت لعلي بن الحسين (عليه السلام): أي الأعمال أفضل؟ قال: (الحال المرتحل) قلت وما الحال المرتحل، قال (عليه السلام): فتح القرآن وختمه، كلما جاء بأوله ارتحل في آخره) (٤) وفي النهاية سئل: أي الأعمال أفضل فقال: الحال المرتحل، فقليل: وما ذلك، قال: الخاتم المفتوح هو الذي يختم القرآن بتلاوته ثم يفتح التلاوة من أوله؛ شبهه بالمسافر يبلغ بالمنزل فيحل فيه ثم يفتح السير أي يبدأه وكذلك قراءة أهل مكة إذا ختموا القرآن بالتلاوة ابتدأوا وقرأوا الفاتحة وخمس آيات من أول سورة البقرة إلى قوله: [هُم الْمُفْلِحُونَ] ويقفون ويسمون فاعل ذلك الحال المرتحل أي أنه ختم القرآن وابتدأ بأوله ولم يفصل بينهما بزمان.

وفي هذا المعنى حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام): (قيل يا ابن رسول الله أي الرجال خير قال (عليه السلام): الحال المرتحل، قيل يا ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله): وما الحال المرتحل؟ قال (عليه السلام): الفاتح الخاتم الذي يقرأ القرآن ويختمه فله عند الله دعوة مستجابة^(١).)

١٤- الوصية بكثرة قراءة القرآن:

وفي وصية النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) قال: (وعليك بتلاوة القرآن على كل حال)^(٢).

١٥- ثواب قراءة القرآن:

عن الصادق (عليه السلام) في حديث قال: (عليكم بتلاوة القرآن فإن درجات الجنة على عدد آيات القرآن، فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن: اقرأ وأرق فكلما قرأ آية يرقى درجة)^(٣).

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كتب من

(١) المصدر، حديث ٨

(٢) المصدر، باب ١١، حديث ١

(٣) المصدر، حديث ١٠

الذاكرين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية كتب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كتب من الفائزين، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من المجتهدين، ومن قرأ ألف آية كتب له قنطار والقنطار خمسة عشر ألف (خمسون ألف) مثقال من ذهب، المثقال أربعة وعشرون قيراطاً أصغرهما مثل جبل أحد وأكبرها ما بين السماء والأرض^(١).

١٦- ضرورة المحافظة على ما تعلم من القرآن ولا يتركه بحيث

يؤدي الى نسيانه:

عن يعقوب الأحمر قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) إن عليّ ديناً كثيراً وقد دخلني ما كاد القرآن يتفلت مني، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): القرآن القرآن إن الآية من القرآن والسورة لتجيء يوم القيامة حتى تصعد ألف درجة - يعني في الجنة - فتقول: لو حفظتني لبلغت بك هاهنا^(٢).)
أقول: مرّ عليك أن الحفظ المعنوي بمعنى مراعاة حدوده ومعانيه والالتزام بأوامره ونواهيه.

١٧- استحباب التلاوة على وضوء:

(١) المصدر، باب ١٧، حديث ٢

(٢) المصدر، باب ١٢، حديث ٣

عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: (سألته أقرأ المصحف ثم يأخذني البول فأقوم فأبول وأستنجي وأغسل يدي وأعود إلى المصحف فأقرأ فيه؟ قال: لا حتى تتوضأ للصلاة) (١).

وعنهم (عليهم السلام): (لقارئ القرآن بكل حرف يقرأ في الصلاة قائماً مائة حسنة وقاعداً خمسون حسنة ومتطهراً في غير صلاة خمسة وعشرون حسنة وغير متطهر عشر حسنة، أما إنني لا أقول: المر، بل بالألف عشر وباللام عشر وبالميم عشر وبالراء عشر) (٢).

١٨- استحباب الاستعاذة عند القراءة:

عن الحلبي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (سألته عن التعوذ من الشيطان عند كل سورة يفتتحها، قال: نعم، فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم) (٣).

وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): (والاستعاذة هي ما قد أمر الله به عباده عند قراءتهم القرآن بقوله: [فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ] ومن تأدب بأدب الله أداه إلى الفلاح الدائم) (٤).

(١) المصدر، باب ١٣، حديث ١

(٢) المصدر، حديث ٣

(٣) المصدر، باب ١٤، حديث ٢

(٤) المصدر، حديث ١

١٩- القرآن عهد الله فكم ينبغي للمسلم أن يقرأ منه يومياً:
 عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (القرآن عهد الله إلى خلقه فقد ينبغي
 للمرء المسلم أن ينظر في عهده وأن يقرأ منه في كل يوم خمسين آية)^(١).
 أقول: وبحساب بسيط تستنتج أن اقل ما ينبغي للمؤمن أن يختم
 القرآن في السنة ثلاث مرات لأن عدد آيات القرآن أكثر من ستة آلاف
 فيختمه على هذا المعدل في (١٢٠) يوماً أي أربعة أشهر هذا بغض النظر
 عن مضاعفة الجهد في شهر رمضان .

٢٠- آيات القرآن خزائن فاستفد منها جميعاً:

عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (آيات القرآن خزائن فكلما فتحت
 خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها)^(٢).

٢١- استحباب قراءة القرآن في البيوت:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين: (البيت الذي يقرأ
 فيه القرآن ويذكر الله عز وجل فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره
 الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض، وإن
 البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله عز وجل فيه تقل بركته وتهجره
 الملائكة وتحضره

(١) المصدر، باب ١٥، حديث ١

(٢) المصدر، حديث ٢

الشياطين) (١).

١

٢٢- الكسب وطلب الرزق لا يمنع من المواظبة على قراءة القرآن:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (ما يمنع التاجر منكم المشغول في سوقه إذا رجع إلى منزله أن لا ينام حتى يقرأ سورة من القرآن فيكتب له مكان كل آية يقرأها عشر حسنات وتمحي عنه عشر سيئات) (٢).

٢

٢٣- استحباب القراءة في المصحف حتى لو كان حافظاً لما يقرأ:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (من قرأ القرآن في المصحف متع ببصره وخفف عن والديه وإن كانا كافرين) (٣).

٣

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (ليس شيء أشد على الشيطان من القراءة

٤

في المصحف نظراً) (٤).

وفي حديث آخر: (النظر إلى المصحف من غير قراءة عبادة) (٥).

(١) المصدر، باب ١٦، حديث ٢

(٢) المصدر، باب ١١، حديث ٦

(٣) المصدر، باب ١٩، حديث ١

(٤) المصدر، حديث ٢

(٥) المصدر، حديث ٦

أقول: وهذه اقل وظيفة يقوم بها من لا يحسن القراءة وإلا فعليه الاستماع.

وعن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: جعلت فداك إني أحفظ القرآن على ظهر قلبي فاقرأه على ظهر قلبي أفضل أو أنظر في المصحف، قال فقال لي: بل اقرأه وانظر في المصحف فهو أفضل، أما علمت أن النظر في المصحف عبادة^(١).

٢٤- استحباب اقتناء نسخة من المصحف في البيت:

عن الصادق (عليه السلام) قال: (إنه ليعجبني أن يكون في البيت مصحف يطرد الله عز وجل به الشياطين)^(٢).

٢٥- استحباب ترتيله وكراهة العجلة فيه:

عن عبد الله بن سليمان قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: [وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً] قال: (قال أمير المؤمنين (عليه السلام): بينه تبياناً ولا تهذه هذ الشعر ولا تنثره نثر الرمل ولكن اقرعوا به قلوبكم القاسية، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة)^(٣).

(١) المصدر، باب ١٩، حديث ٤

(٢) المصدر، باب ٢٠، حديث ١

(٣) المصدر، باب ٢١، حديث ١

وفي تفسير قوله تعالى: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ] روي عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: (حق تلاوته هو الوقوف عند ذكر الجنة والنار، يسأل في الأولى ويستعيد من الأخرى) (١).

وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن القرآن لا يقرأ هزيمة ولكن يرتل ترتيلاً وإذا مرتت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وسل الله الجنة وإذا

مرتت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار) (٢).

٢٦- استحباب قراءته بالحزن كأنه يخاطب إنساناً وحرمة ما يفعل الصوفية من الغشية والصعقة:

عن الصادق (عليه السلام) قال: (إن القرآن نزل بالحزن فاقرأه بالحزن) (٣).
وعن حفص قال: (ما رأيت أحداً أشد خوفاً على نفسه من موسى بن جعفر (عليه السلام) ولا أرجى للناس منه وكانت قراءته حزناً فإذا قرأ كأنما يخاطب إنساناً) (٤).

(١) المصدر، باب ٢٧ ج ٧

(٢) المصدر، حديث ٣

(٣) المصدر، باب ٢٢ ج ١

(٤) المصدر، حديث ٣

وعن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (قلت إن قوماً إذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حدثوا به صعق أحدهم حتى يرى أن أحدهم لو قطعت يده أو رجلاه لم يشعر بذلك، فقال: سبحان الله ذلك من الشيطان، ما بهذا نعتوا إنما هو اللين والرقه والدمعة والوجل) (١).

٢٧- استحباب رفع الصوت بالقرآن:

عن معاوية بن عمار قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): الرجل لا يرى أنه صنع شيئاً في الدعاء وفي القراءة حتى يرفع صوته، فقال: لا بأس، إن علي بن الحسين (عليه السلام) كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن وكان يرفع صوته حتى يسمعه أهل الدار وإن أبا جعفر (عليه السلام) كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان إذا قام من

الليل وقرأ رفع صوته فيمر به مار الطريق من الساقين وغيرهم فيقومون فيستمعون

إلى قراءته) (٢).

٢٨- حرمة التغني بالقرآن:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر فإنه

(١) المصدر، باب ٢٥، حديث ١

(٢) المصدر، باب ٢٣، حديث ٢

سيجيء من بعدي أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية لا
يجوز تراقبهم قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبه شأنهم^(١).

٢٩- وجوب الإنصات لقراءة القرآن أخلاقياً واستجابته شرعياً إلا

في الصلاة:

عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له
الرجل يقرأ القرآن أيجب على من سمعه الإنصات له والاستماع؟ قال: نعم
إذا قرأ عندك القرآن وجب عليك الإنصات والاستماع^(٢).

وفي حديث زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (وإذا قرأ القرآن في
الفريضة خلف الإمام فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)^(٣).

٣٠- استحباب ختم القرآن في كل شهر مرة:

عن محمد بن عبد الله قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): اقرأ القرآن في

ليلة؟

فقال: (لا يعجبني أن تقرأه في أقل من شهر)^(٤).

(١) باب ٤٤، حديث ١

(٢) المصدر، باب ٢٦، حديث ٤

(٣) المصدر، حديث ٥

(٤) المصدر، باب ٢٧، حديث ١

٣١- استحباب إهداء ثواب القراءة إلى المعصومين (عليه السلام) لكي
يضاعف الأجر:

عن علي بن المغيرة عن أبي الحسن (عليه السلام): (قلت فإذا كان في يوم
الفرط جعلت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) ختمة^(١) ولعلي (عليه السلام) أخرى ولفاطمة
(عليها السلام) أخرى ثم الأئمة (عليهم السلام) حتى انتهيت إليك فصيرت لك واحدة منذ
صرت في الحال، فأى شيء لي بذلك؟ قال: لك بذلك أن تكون معهم يوم
القيامة، قلت: الله أكبر فلي بذلك؟ قال: نعم ثلاث مرات^(٢).)

٣٢- استحباب البكاء أو التباكي عند سماع القرآن:

عن الصادق (عليه السلام) قال: (إن رسول الله أتى شاباً من الأنصار فقال:
إني أريد أقرأ عليكم فمن بكى فله الجنة فقرأ آخر سورة الزمر [وسيق
الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا] إلى آخر السورة فبكى القوم جميعاً إلا شاباً
فقال: يا رسول الله قد تباكيت فما قطرت عيني فقال: إني معيد عليكم فمن
تباكى فله الجنة فأعاد عليهم فبكى القوم وتباكى الفتى فدخلوا الجنة
جميعاً^(٣).)

٣٣- العلم كله في القرآن:

(١) مما قرأه في شهر رمضان.

(٢) المصدر، باب ٢٨، حديث ١

(٣) المصدر، باب ٢٩، حديث ١

روي عن علي (عليه السلام) أنه قيل له: (هل عندكم شيء من الوحي؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبداً فهماً في كتابه) (١).

وعن إبراهيم بن العباس قال: (ما رأيت الرضا (عليه السلام) سئل عن شيء قط إلا علمه ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان الأول إلى وقته وعصره وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شيء فيجيب فيه، وكان كلامه كله وجوابه وتمثله انتزاعات من القرآن) (٢).

وفي نهج البلاغة: (ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق ولكن أخبركم عنه: ألا إنه فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي ودواء داءكم ونظم بينكم) (٣).

٣٤- القرآن شفاء من كل داء:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لو قرأت الحمد على ميت سبعين مرة ثم ردت فيه الروح ما كان ذلك عجباً) (٤).

٣٥- القرآن فيه جلاء القلوب:

(١) تفسير الصافي: ١ ٣٩ وتقدم الطريق إلى مصادره من طريق العامة.

(٢) المصدر، باب ٢٧، حديث ٦

(٣) الخطبة ٥٨ من الجزء الأول.

(٤) الكافي: ٢ ٦٢٤

عن رسول الله (ﷺ) قال: (إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد وإن جلاءها قراءة القرآن)^(١).

٣٦- الإكثار من قراءته في شهر رمضان:

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (لكل شيء ربيع وربيع القرآن شهر رمضان)^(٢).

وعن علي بن حمزة قال: (دخلت علي أبي عبد الله (عليه السلام) فقال له أبو بصير: جعلت فداك أقرأ القرآن في شهر رمضان في ليلة؟ فقال: لا، ففي ليلتين؟ فقال: لا، فقال: ففي ثلاث؟ فقال: ها وأشار بيده ثم قال: يا أبا محمد إن لرمضان حقاً وحرمة لا يشبهه شيء من الشهور)^(٣).

وفي خطبة النبي (ﷺ) في آخر جمعة من شعبان قال: (ومن تلا فيه - أي شهر رمضان - آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور)^(٤).

٣٧- تلاوة القرآن حق تلاوته:

(١) إرشاد القلوب: صفحة ٧٨

(٢) ثواب الأعمال : ٨٢٩ ، باب ثواب قراءة القرآن.

(٣) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب قراءة القرآن في غير الصلاة، باب ٢٧ ج ٣

(٤) عيون أخبار الرضا: صفحة ١٦٢

في تفسير قوله تعالى: [الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ] (البقرة: ١٢١) قال الإمام الصادق (عليه السلام): (يرتلون آياته ويتفقهون به ويعملون بأحكامه ويرجون وعده، ويخافون وعيده ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره ويتتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه وتلاوة سوره ودرس أعشاره وأخماسه. حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه

قال تعالى: [كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ] (١).

٣٨- القرآن لا يشبع منه العلماء:

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال من حديث في وصف القرآن: (هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا يشبع منه العلماء ولا تلتبس منه الألسن ولا يخلق من الرد ولا تنقضي عجائبه من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم) (٢).

٣٩- القرآن في نهج البلاغة:

(وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص وإن

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١ / ٢٦٠، عن إرشاد القلوب للدليمي.

(٢) سنن الدارمي: ٢ / ٤٣٥، كتاب فضائل القرآن، ومثله في كتب الخاصة.

العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله بل الحجة عليه أعظم والحسرة له ألزم وهو عند الله ألوم^(١).

٤٠- دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) عند ختم القرآن:

اللهم إنك أعتني على ختم كتابك الذي أنزلته نوراً وجعلته مهيمناً على كل كتاب أنزلته وفضلته على كل حديث قصصته وفرقناً فرقت بين حلالك وحرامك وقرآناً أعربت به عن شرايع أحكامك وكتاباً فصلته لعبادك تفصيلاً ووحياً أنزلته على نبيك محمد صلواتك عليه وآله تنزيلاً وجعلته نوراً نهدي من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه وشفاء لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه وعلم نجاه لا يضل من أمّ قصد سنته، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته، اللهم فإذا أفدتنا المعونة على تلاوته، وسهلت حواسي ألسنتنا بحسن عبارته، فاجعلنا ممن يرعاه حق رعايته، ويدين لك باعتقاد التسليم لمحكم آياته، ويفزع إلى الإقرار بمتشابهه وموضحات بيناته، اللهم إنك أنزلته على نبيك محمد ﷺ مجملاً، وألهمته علم عجائبه مكماً وورثتنا علمه مفسراً وفضلتنا على من جهل علمه، وقويتنا عليه لترفعنا فوق من لم يطق حمله، اللهم فكما جعلت قلوبنا له حملة وعرفتنا برحمتك شرفه وفضله، فصل على

(١) نهج البلاغة: الجزء الأول، الخطبة ١١٠

محمد الخطيب به، وعلى آله الخزان له، واجعلنا ممن يعترف بأنه من عندك، حتى لا يعارضنا الشك في تصديقه، ولا يختلجنا الزيغ عن قصد طريقه، اللهم صلّ على محمد وآله واجعلنا ممن يعتصم بحبله، ويأوي من المتشابهات إلى حرز معقله، ويسكن في ظل جناحه، ويهتدي بضوء صباحه، ويقتدي بتبلج أسفاره، ويستصبح بمصباحه ولا يلتمس الهدى في غيره، اللهم وكما نصبت به محمداً علماً للدلالة عليك وأنهجت بآله سبيل الرضا إليك، فصلّ على محمد وآله، واجعل القرآن وسيلة لنا إلى اشرف منازل الكرامة، وسلاماً نرج فيه إلى محل السلامة وسبباً نجزي به النجاة في عرصة القيامة، وذريعة نقدم بها على نعيم دار المقامة، اللهم صل على محمد وآله، واحفظ بالقرآن عنا ثقل الأوزار، وهب لنا حسن شمائل الإبرار، واقف بنا آثار الذين قاموا لك به آناء الليل وأطراف النهار، حتى تطهرنا من كل دنس بتطهيره، وتقفوا بنا آثار الذين استضاءوا بنوره، ولم يلهمهم الأمل عن العمل فيقطعهم بخدع غروره، اللهم صل على محمد وآله، واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنساً، ومن نزعات الشيطان وخطرات الوسوس حارساً، ولأقدامنا عن نقلها إلى المعاصي حابساً، ولألسنتنا عن الخوض في الباطل من غير ما آفة مخرساً، ولجوارحنا عن اقتراف الآثام زاجراً، ولما طوت الغفلة عنا من تصفح الاعتبار ناشراً، حتى توصل إلى قلوبنا فهم عجائبه، وزواجراً أمثاله التي ضعفت الجبال الرواسي على

صلابتها عن احتمالها، اللهم صل على محمد وآله وأدم بالقرآن صلاح
 ظاهرنا، واحجب به خطرات الوسوس عن صحة ضمائرنا واغسل به درن
 قلوبنا، وعلائق أوزارنا، واجمع به منتشر أمورنا وارو به في موقف العرض
 عليك ظمأ هواجرنا، واكسنا به حلل الأمان يوم الفزع الأكبر في نشورنا،
 اللهم صل على محمد وآله، واجبر بالقرآن خلتنا من عدم الإملاق، وسق به
 ألينا رغد العيش خصب سعة الأرزاق وجنبنا به الضرائب المذمومة،
 ومداني الأخلاق، واعصمنا به من هوة الكفر ودواعي النفاق، حتى يكون لنا
 في القيامة إلى رضوانك وجنانك قائداً، ولنا في الدنيا عن سخطك وتعدي
 حدودك ذائداً، ولما عندك بتحليل حاله وتحريم حرامه شاهداً، اللهم صل
 على محمد وآله، وهون بالقرآن عند الموت على أنفسنا كرب السياق
 وجهد الأنين، وترادف الحشارج، إذا بلغت النفوس التراقي [وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ]،
 وتجلّى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب ورمها عن قوس المنايا
 بأسهم وحشة الفراق، وداف لها من دعاف مرارة الموت كأساً مسمومة
 المذاق، ودنا منا إلى الآخرة رحيل وانطلاق، وصارت الأعمال قلائد في
 الأعناق، وكانت القبور هي المأوى إلى ميقات يوم التلاق، اللهم صل على
 محمد وآله، وبارك لنا في حلول دار البلى، وطول المقامة بين أطباق
 الثرى، واجعل القبور بعد فراق الدنيا خير منازلنا، وافسح لنا برحمتك في
 ضيق ملاحدنا، ولا تفضحنا في حاضر القيامة بموبقات آثامنا، وارحم

بالقرآن في موقف العرض عليك ذلّ مقامنا، وثبت به عند اضطراب جسر جهنم يوم المجاز عليها زلل أقدامنا، ونجنا به من كل كرب يوم القيامة، وشدائد أهوال يوم الطامة ويبيض وجوهنا يوم تسود وجوه الظلمة في يوم الحسرة والندامة، واجعل لنا في صدور المؤمنين ودأ، ولا تجعل الحياة علينا نكدًا، اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما بلغ رسالتك، وصدع بأمرك ونصح لعبادك اللهم اجعل نبينا صلواتك عليه وعلى آله يوم القيامة أقرب النبيين منك مجلساً، وأمكنهم منك شفاعته، وأجلهم عندك قدرًا، وأوجههم عندك جاهًا، اللهم صل على محمد وآل محمد، وشرف بنيانه، وعظم برهانه، وثقل ميزانه، وتقبل شفاعته وقرب وسيلته، وبيض وجهه وأتم نوره وارفع درجته، وأحينا على سنته وتوفنا على ملته، وخذ بنا منهاجه، واسلك بنا سبيله، واجعلنا من أهل طاعته، واحشرنا في زمرة، وأوردنا حوضه، واسقنا بكأسه، وصل اللهم على محمد وآله صلاة تبلغه بها أفضل ما يأمل من خيرك وفضلك وكرامتك إنك ذو رحمة واسعة وفضل كريم، اللهم اجزه بما بلغ من رسالاتك وأدى من آياتك، ونصح لعبادتك، وجاهد في سبيلك، أفضل ما جزيت أحداً من ملائكتك المقربين، وأنبيائك المرسلين المصطفين، والسلام عليه وعلى آله الطاهرين ورحمة الله وبركاته^(١).

(١) الصحيفة السجادية: دعائه (عليه السلام) عند ختم القرآن.

يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك (١) كيف خطط رسول الله ﷺ للخلافة من بعده

[المائدة : ٦٧]

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين..

(١) محاضرتان ألقاهما سماحة الشيخ محمد اليعقوبي على طلبة الحوزة العلمية في مسجد الرأس الشريف المجاور لمقر أمير المؤمنين عليه السلام، في النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير يومي (١٦، ١٧) ذي الحجة ٤٢١ هـ - ١٢، ١٣ / آذار / ٢٠٠١) وقد أضاف إليهما بعض الزيادات الضرورية. وقام أحد الفضلاء لاحقاً بتخريج النصوص من مصادرها.

الإمامة ضرورة عقلائية:

إن الإمامة وولاية أمر الناس ضرورة اجتماعية لا يختلف فيها اثنان، وقد أطبق عليها جميع العقلاء، ولا يمكن لحياة المجتمع المتحضر ونظام معاشه أن يستقيم بدون إمام ورئيس يدير مع جهازه شؤون الأمة ويدبر أمورها. فوجود النظام الحاكم في المجتمع بمنزلة العقل في جسم الإنسان الذي يوجّه بوصلة الحياة، وبدونه تحصل الفوضى والتشتت والصراعات وتضييع مصالح العباد والبلاد. صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ومن كلمات أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام في ذلك: (لا بد للناس من أمير برّ أو

فاجر، يعمل في أمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفياء ويقاتل به العدو وتأمين به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح برّ أو يستراح من فاجر) (١).

ضرورة الإمامة في الشرع:

والحكم في الشرع ضروري كذلك فقد أجمع علماء الإسلام على ضرورة وجود إمام، وإذا كان بينهم خلاف ففي التفاصيل ككيفية تعيين

(١) نهج البلاغة: ١ ٨٧ الخطبة ٤٠

الإمام ومؤهلاته وصلحياته لا في أصل احتياج الأمة، فأبناء العامة يقولون بالشورى^(١)، أو أن الأمر لمن غلب حتى لو قهر الأمة بالسيف^(٢) وتقمص إمامتها قهراً، ونحن -الإمامية- نقول أنها بالنص^(٣)، وأنها حق جعله الله تبارك وتعالى لمن اجتمعت فيه شروطها، سواء سمحت له الظروف بالقيام فعلاً بالأمر أو صودرت حرите ومنع من ممارسة دوره كاملاً، كما في الحديث الشريف: (الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا)^(٤) أي قاما بالأمر أو قعدا عنه لأي سبب من الأسباب.

وقد اهتم رسول الله ﷺ بهذا الأمر بدقة، فكان ﷺ لا يخرج سرية إلا عليها أمير مهما قل أفرادها، بل في الحديث عن رسول الله ﷺ:

(١) البخاري/باب رجم الحبلى ٤ ١٢٠ عن معالم المدرستين، المراجعات المراجعة ٨٠

(٢) الأحكام السلطانية ١١٧ القاضي القضاة أبو يعلى الفراء الحنبلي - عن معالم

المدرستين - أقوال مدرسة الخلفى ٥ ٥ ٨

(٣) أحصى الصافي الكلبايكاني في كتابه (منتخب الأثر) أكثر من خمسين رواية في هذا

المجال، وقال بعد ذلك النصوص الواردة في ساداتنا الأئمة الاثنا عشر بلغت في الكثرة

حداً لا يسعه مثل هذا الكتاب وكتب أصحابنا في الإمامة وغيرها مشحون بها

واستقصاؤها صعب جداً (منتخب الأثر ٥ ٤ ١ والرواية الأولى منتخب الأثر ٧ ٩ باب

٨ فيما يدل على الأئمة الاثنا عشر بأسمائهم (نقلا عن مدخل إلى الإمامة).

(٤) البحار ٦ ١ باب ١١ ص ٣٠٧

(الإمام الجائر خير من الفتنة)^(١) و: إذا خرج اثنان للسفر فليؤمرا أحدهما^(٢)، وكان صلى الله عليه وآله إذا خرج لغزوة لا يترك المدينة بدون خليفة له^(٣)، بل روي في حديث: (والظلم ظلماتٌ كثيرةٌ فمن ظلم غشومٌ خيرٌ من فتنة تدوم)^(٤)؛ لأنه به تحفظ الثغور وتقوم مصالح العباد، لذا تعامل الأئمة عليهم السلام بإيجابية مع السلطات الحاكمة في ما فيه مصالح العباد وحفظ النظام الاجتماعي ورفي الدولة الإسلامية وصيانة كرامتها، إلى درجة أنهم جوزوا في بعض الظروف دفع الزكاة والخراج إلى السلطة وجعلوها مبرئة للذمة كأنها واصله إليهم^(٥).

المصالح المهمة من تعيين الخليفة:

في ضوء هذه الضرورة المجمع عليها عقلاً وشرعاً كان من مسؤوليات حامل الرسالة - أي رسالة - ووظائفه بل أهمها على الإطلاق تعيين الخليفة والإمام البديل لعدة مصالح مهمة:

- (١) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني: ١٠٣٢
- (٢) كتاب المحجج ٤ آداب السفر عن أبو داوود ٢ ٤ ٣ عن أبي هريرة عن النبي ص قوله (إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرُوا أحدكم).
- (٣) معالم المدرستين ج ١ / ذكر من استخلف الرسول صلى الله عليه وآله على المدينة في غزواته.
- (٤) ميزان الحكمة للريشهري: ٣ ٢٣٦٧ والغرر والدرر: ح ١٠١٠٩
- (٥) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب المستحقين، باب ٢٠

١- ديمومة الرسالة واستمراريتها في أداء دورها، فإن أية رسالة مهما كانت تمتلك من نقاط قوة - كرسالة الإسلام - تموت بموت صاحبها، فإنه من المقطوع به ارتباط الرسالات والدعوات بحاملها القيمين عليها المدافعين عنها المستوعبين لأسرارها، لذلك فإنها تنتهي بنهاية صاحبها إلا أن يواصل الطريق من هو جدير بحملها، وأنت ترى الرسالات السماوية - وهي أكمل الدعوات - حُرِّفَتْ وشوِّهت بعد فترة يسيرة من غياب أصحابها^(١).

٢- قطع الطريق أمام غير المؤهلين لهذا المنصب الإلهي، فإن الإمرة والزعامة خصوصاً الزعامة الدينية بما لها من قدسية وهيبة وجاه من أهم ما تنزع إليه النفس الأمارة بالسوء، ففي الحديث: (آخر ما ينزع من قلوب الصديقين حب الجاه)^(٢) إذن سيكون المتربصون بها كثيرين والحالمون بها والساعون إلى تحصيلها أكثر. وقد اعترفوا أنه ما عانت الأمة من شيء كما

(١) كمثل على ذلك المسيحية بمجرد أن رفع عيسى ﷺ أصبح الإنجيل الذي هو حاوي على كل ما يتعلق بالرسالة عدة أناجيل مزورة وموضوعة كإنجيل متي ويوحنا ولوقا ومرقس فلم يبق من الدين المسيحي إلا الاسم.

(٢) المحجة البيضاء ٦/ فصل حب الجلو ١٠٧

عانت من مسألة الإمامة والخلافة وأن الويلات التي أصابها
والدماء التي سفكت ترجع في الأصل إلى هذا الأمر، وهذا
واضح تاريخياً.

٣- صيانة الأمة من التشتت وحماتها من التمزق، فإن من شأن
تعدد المتصدين لهذا المنصب أن تتعدد الأحزاب والفرق
الموالية لهم، وكلُّ يجرُّ النار إلى قرصه، فيتمزق أمر الأمة
وتصبح طرائق قديداً، وها هي الأجيال بعد الأجيال تدفع ثمن
التيه والضياع وآل أمرها إلى الانحلال، لذا قال تعالى:
[وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا] (آل عمران: ١٠٣) [وَلَا
تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ] (الأنفال: ٤٦) وحبل الله
الممدود إلى الخلق هما الثقلان كتاب الله وأهل بيت نبيه
(صلوات الله عليهم أجمعين) كما دلت عليه النصوص
الشريفة^(١). وقد أشارت الزهراء (سلام الله عليها) إلى هذه
الفكرة المهمة في خطبتها فقالت: (وجعل إمامتنا نظاماً للملة)^(٢)
أي بها تنتظم أمورهم وتستقر.

٤- إن حامل الرسالة لا يستطيع أن يستمر بمشروعه حتى النهاية

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن) وقد تقدم في هذا الكتاب.

(٢) البحاج ٦ باب ٢٣ ص ٣١٥

ويقدم كل ما عنده قبل أن يطمئن إلى وجود البديل؛ لأنه قبل ذلك يخشى على مستقبل الرسالة، فإذا أحرز اجتماع الشروط في الشخص البديل استطاع أن يتقدم بلا تردد أو خوف على مستقبل الرسالة، هذا الخوف الذي أشار إليه نبي الله موسى ﷺ، لذا كان أول دعاء له: [وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي] (طه: ٢٩-٣٢) وفي كلمات أمير المؤمنين ﷺ: (لَمْ يُوْجَسْ مُوسَى ﷺ خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِنْ غَلْبَةِ الْجَهَّالِ وَدَوْلِ الضَّلَالِ) (١).

شرفية موقع الإمامة في الفكر الإسلامي:

هذه أمور يدركها كل عاقل، ويزداد الأمر وضوحاً كلما ازدادت أهمية الرسالة كدين الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين وخالداً إلى يوم القيامة، فهو - أي الإسلام - بهذه السعة والشمول طويلاً على مدى الزمان - وعرضاً - لجميع البشر، وكلما تعاظم منصب الشخص الراحل والغائب عن الساحة ازدادت المسؤولية والأخطار حول المنصب.

وأشرف موقع هو إمامة المسلمين وولاية أمورهم وخلافة رسول الله ﷺ التي قدر لها أن تشمل شرق الأرض وغربها، كما بشر بذلك رسول

الله ﷺ عندما كان يحفر مع المسلمين في الخندق وضرب على صخرتين فأضاءتا له^(١) ولهم، وأكدها القرآن [وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً] (الفتح: ٢٠) [وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ] (الصف: ١٣)، فكيف لا تتناوشه المطامع وتتجاذبه الأهواء.

أما ضلُّ صاحبكم وما غوى:

أفمثل رسول الله ﷺ يجهل هذه الأمور الواضحة، وهو المتصل بسبب إلى الله تبارك وتعالى، [وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ] (النجم، ٣-٤)، وهو القائل: (من مات ولم يوصِ مات ميتة جاهلية)^(٢) فهل يكون هو ﷺ أول من يخرج عن ربقة الإسلام ويموت على الجاهلية [كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ] (الكهف: ٥)، أم يقال أن هذا الحديث وارد في الوصية بالمال ونحوه للورثة وغيرهم؟ فهل هذه الأمور أهم من الوصية بالأمة وحفظ كيائها من الضياع؟!.

أم يقال أنه ﷺ فوجئ بأجله قبل أن يفكر بمستقبل الأمة وقبل أن يستعد للتخطيط للبديل مهما كان شكله وصيغته، وهو الذي نعى نفسه مراراً وصرح بقرب وفاته في حجة الوداع، وحينما قال: (إن جبرائيل كان

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر لهاشم معروف الحسني ج ١ ص ٢٩٠

(٢) مناقب آل أبي طالب بن شهر آشوب ج ١ ص ٢١٧

يعارضني بالقرآن في السنة مرة، وعارضني في هذه السنة مرتين، وما ذلك إلا لدنو أجلي^(١).

أم يقال أنه ﷺ لم يكن حريصاً على الأمة ولا مهتماً بأمرها، فلتواجه

قدرها بنفسها ولو آل أمرها إلى الفناء، ولتذهب أتعابه سدى [كألتني نقضتْ غزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا] (النحل: ٩٢)، وهذا لا يصدر من أبسط الناس؛ فالراعي لا يترك غنمه إذا خرج لحاجة أو سفر حتى يعين لها راعياً، ولم يفعلها الخلفاء من بعده، فالأول نص على الثاني، وهو يقول: إني أخشى أن ألقى الله وقد تركت أمة محمد ﷺ دون أن أولي عليها أحداً^(٢)، وجعل الثاني الأمر شوري بين ستة من أصحاب رسول الله ﷺ^(٣)، وقد أرسلت إليه أم المؤمنين عائشة بعدما طعن: أن أوص من يخلفك، ولا تترك أمة محمد بعدك هملاً وبدون راعٍ.

خطر الاعتراض من الداخل الإسلامي:

(١) صحيح البخاري باب عرض جبرائيل القرآن على النبي.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦٤ - ١ - ٦٥ في شرحه للخطبة الشقشقية.

(٣) راجع معالم المدرستين ١ ٤٤ ٥

فكيف برسول الله ﷺ أكمل العقلاء وسيد الحكماء، وهو يرى بعينه الأخطار المحدقة بالأمة من الداخل والخارج، ففي الداخل كان المنافقون والمرجفون في المدينة - على تعبير القرآن - والقائلون: [لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ] (المنافقون: ٨) وقد ازدادت شوكتهم بعد الفتح حيث استسلم الكثير ممن يتربص بالإسلام وبنبيه السوء رضوخاً للأمر الواقع، ولم يسلموا ولم يقتنعوا بالإسلام و[قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا أَسْلَمْنَا لَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ] (الحجرات: ١٤).

وكانوا يعارضون تصرفات رسول الله ﷺ علناً ويتقدونه

ويشككون في

صحة أفعاله، والشواهد على ذلك كثيرة كما في صلح الحديبية^(١) حينما منعوا رسول الله ﷺ من التوقيع على وثيقة الصلح، وعندما عارضوا الإحلال من الإحرام في متعة الحج^(٢)، وحينما منعه من^٢ كتابة كتاب لا

(١) راجع نظريات الخليفين: ١

(٢) عن معالم المدرستين ٢: في رواية الصحابي البراء بن عازب بسنن بن ماجه ومسنند أحمد ومجمع الزوائد قال: خرج رسول الله ﷺ وأصحابه فأحرمنا بالحج فلما قدمنا مكة، قال: (اجعلوا حجكم عمرة) فقال الناس: يا رسول الله قد أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة؟ قال: (انظروا ما أمركم به فافعلوه) فردوا عليه القول، فغضب فانطلق ثم دخل على عائشة غضبان فرأت الغضب في وجهه، فقالت: من أغضبك أغضبه الله، قال: (ما لي لا أغضب وأنا أمر أمراً فلا أتبع).

يضلون بعده أبداً في رزية يوم الخميس^(١)، وحينما كانوا يصلون نوافل رمضان جماعة في المسجد وقد نهاهم ﷺ عن ذلك مراراً^(٢)، وحينما تخلفوا عن جيش أسامة رغم لعنه ﷺ للمتخلفين عنه^(٣).

مضافاً إلى أن الانتشار السريع للإسلام وقصر فترته بالنسبة لعظمة الوظيفة التي جاء من أجلها، وهي نقل أمة كاملة من حضيض الجاهلية وظلماتها إلى نور الإسلام وسعادته أدى إلى وجود قاعدة عريضة في

(١) رزية يوم الخميس: ما أخرجه البخاري بسنده عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي ﷺ لهم اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لا تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم رسول الله ﷺ تحوموا عني، فكان بن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم. (وقد تم التصرف في الحديث إذ نقلوا المعنى فقط لأن اللفظ الثابت هو أن النبي يهجر ولكنهم حرفوه تهذيباً للعبارة ودفاعاً عن عمر.

(المراجعات : المراجعة ٨٦)

(٢) الوسائل : كتاب الصلاة باب عدم جواز الجماعة في صلاة النوافل في شهر رمضان، الحديث الأول.

(٣) راجع في استقصاء هذه الموارد كتاب (النص والاجتهاد) للسيد شرف الدين.

المجتمع لم تصل إلى درجة كافية من فهم الرسالة واستيعابها والتفاعل مع تفاصيلها، وهم معرضون للانحياز والهزيمة مع أول امتحان يواجههم في حالة غيابه ﷺ، وقد أخبره بذلك القرآن الكريم: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ] (آل عمران: ١٤٤) وهو ما وقع فعلاً حين ارتدت الجزيرة ولم يبق على الإسلام إلا تلك الثلثة القليلة في المدينة المنورة التي عركتها التجارب وصلبت عودها الامتحانات المتتالية مع رسول الله ﷺ^(١).

نموذج من الانحراف الإسلامي:

وقد أشارت أم المؤمنين عائشة إلى هذا الانحراف الذي حصل في

مسيرة

المسلمين عندما كانت تحرض على الثورة ضد الخليفة الثالث عثمان، يروي الطبري^(٢): كانت السيدة عائشة من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ فنصبته في منزلها، وكانت تقول

(١) وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة المائدة آية ٤٤: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ].

(٢) تاريخ الطبري ٣ ٤٧٧ وقد نقلناه عن كتاب (نور فاطمة اهتديت) ١٩٠

للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله لم يبلّ وقد أبلى عثمان ستنه، وقالوا إنها كانت أول من سمى عثمان نعثلاً (اسم أحد اليهود بالمدينة) وكانت تقول: (اقتلوا نعثلاً! قتل الله نعثلاً) هذا ولم يمرّ على وفاة رسول الله ﷺ أكثر من عقدين من الزمان.

حملات اليهود بعد وفاة النبي ﷺ:

وكان في الداخل اليهود الذين لا ينسون لرسول الله ﷺ وللإسلام القضاء عليهم وتهجيرهم من ديارهم وقتل رجالهم وسبي نساءهم وزوال دولتهم ونفوذهم في المدينة، لذلك كانت هجمة التشكيكات التي بثوها في الأمة بعد وفاته ﷺ، وأسئلتهم المتنوعة الكثيرة التي كانت تعجز خليفة المسلمين وأصحاب رسول الله ﷺ، فأصيب المسلمون بالإحباط والضعف والهزيمة أمامهم، وكانت حملة منظمة وليست اعتباطية ظهرت فجأة بعد غياب رسول الله ﷺ وإقصاء الخليفة الحق الذي كان لهم بالمرصاد رغم إبعاده عن القيادة الدنيوية، لكنه كان يرى مصلحة الدين وإعلاء كلمة التوحيد فوق كل شيء، حتى اشتهرت كلمة الخليفة الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو

(الحسن) (١) وما علمنا أنه احتاج إلى أحد سواه (٢).

العدو الخارجي والكيد بالإسلام:

ومن الخارج كان هناك المتربصون بالإسلام شراً الذين أعيتهم الحيل في القضاء عليه، حيث بدأوا بتعذيب أصحابه ﷺ وقتلهم، ثم حاصروه ومن معه في شعب أبي طالب اقتصادياً واجتماعياً، ثم تآمروا على قتله فهاجر إلى المدينة (٣) وبات علي في فراشه (٤) ثم جهزوا الجيوش لقتاله واستئصال أمره فلم يفلحوا في القضاء عليه ﷺ (٥)، ولم يبق أمامهم إلا نهاية حياته لتموت دعوته بموته ﷺ، بل حاول بعضهم فعلاً اغتياله أكثر من مرة كمحاولة رؤساء بني عامر، والمحاولة التي جرت أثناء مسيره إلى تبوك حيث حاول بعض المتآمرين تغيير ناقته ﷺ ليلقوه من السفح

(١) أخرجه سبط بن الجوزي، أسد الغابة ٢٢٤، الإصابة القسم ١، ٢٧٠، تهذيب

التهذيب ٣٢٧٧ عن نظريات الخليفين لنجاح الطائي.

(٢) جعل الخليل بن أحمد الفراهيدي ذلك دليلاً على إمامته حينما سئل ما الدليل على

إمامة أمير المؤمنين وخلافته لرسول الله ﷺ قال: احتياج الكل إليه وعدم احتياجه

للكل.

(٣) حياة محمد ﷺ نهاية الفصل السادس والفصل السابع لمحمد حسين هيكل.

(٤) حياة محمد ﷺ الفصل العاشر لمحمد حسين هيكل.

(٥) حياة محمد ﷺ الفصل الثالث عشر لمحمد حسين هيكل.

وتقطع أوصاله، وقد أعلم ﷺ الصحابيَّ حذيفة بن اليمان بأسمائهم حتى سمي صاحب سر رسول الله ﷺ، وكان الخليفة الثاني لا يصلي على أحد حتى يصلي حذيفة ليعلم أنه ليس من المنافقين^(١).

وفي الخارج كانت أيضاً الدولتان الرومية والفارسية اللتان بدأتا تفكران جدياً في أمره ﷺ بعد أن غطى نوره الجزيرة كلها من اليمن جنوباً إلى تخوم الشام والعراق شمالاً، بل إنه ﷺ بدأ التحرش بالدولة الرومية في معركة مؤتة^(٢) وغزوة تبوك، وأرسل الرسائل إليهم يدعوهم إلى الإسلام بلهجة الواثق بالنصر والمستعلي عليهم (أسلم تسلم).

التحديات الجسيمة أمام النبي ﷺ :

كل هذه المصاعب والتحديات التي تواجه الأمة بعد وفاته ﷺ كانت نصب عينه ﷺ وهو صاحب القلب الرحيم الذي نذر حياته لله تبارك وتعالى ولإصلاح الإنسانية وإنقاذها من الظلمات إلى النور، وقد وصفه القرآن الكريم: [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ] (التوبة: ١٢٨)، فكيف يترك أمر الأمة

(١) راجع (المحلى) لابن حزم الأندلسي، (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد عن (نظريات الخليفين: محاولة اغتيال النبي).

(٢) معركة مؤتة: كانت في سنة ثمان من الهجرة.

سدى؟! [فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ] [يونس: ٣٥] و[فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ] [فاطر: ٣] فهذا الاحتمال -أي ترك الأمة سدى من دون إرشادها إلى من يتولى أمرها- مرفوض قطعاً.

بقي احتمالان آخران تبنت كل واحدٍ منهما طائفة من المسلمين.
عقيدة العامة في الإمامة:

الأول: -وهو الذي التزم به العامة- إيكال الأمر إلى الأمة نفسها فهي تختار من تشاء، وهو مرفوض أيضاً لعدة وجوه:

١- قصور الأمة عن تحمل مثل هذه المسؤولية، وقد عجزت عن أقل من هذا الأمر عندما واجهت التحديات بعد وفاة رسول الله ﷺ، حتى بعد أن نالت تربية إضافية خلال عقود من السنين.

ففي خلافة أمير المؤمنين عليه السلام عندما بدأ أصحاب رسول الله ﷺ يتقاتلون بينهم لم يعرفوا حكم هذه الحالة، وقد نسب إلى أبي حنيفة قوله: (أنه لولا قتال علي للبغاة من المسلمين لما عرفنا حكم قتالهم إلى يوم القيامة).

وبعد ذلك بعقود مرت الدولة الإسلامية بأزمة مع الدولة الرومية، عندما أرادت أن تسك عملة فيها شتم نبي الإسلام وتداول في بلاد المسلمين، فأنقذ الموقف الإمام الباقر

عليه السلام^(١)، وهكذا ظلت الأمة عاجزة عن حل مشكلاتها لولا وجود الأئمة عليهم السلام^(٢)، حتى اكتملت التربية بعد (٢٦٠) عاماً بوفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، فدخلت الأمة مرحلة (وسطية) بين الوجود الفعلي للإمام والغيبة التامة، فكانت الغيبة الصغرى التي استمرت (٧٠) عاماً لتبدأ الغيبة الكبرى بعد أن رسم الأئمة عليهم السلام كل المعالم الرئيسية والخطوط العامة لمسيرة الأمة، وقبل هذه المراحل المتتابعة من التربية كانت الأمة عاجزة.

وكان هذا العجز واضحاً في الصدر الأول للإسلام لقرب عهدهم بالجاهلية الهمجية وقلة فترة الرسالة وانشغالهم عن استيعاب تفاصيلها، كما عبر الخليفة الثاني حينما سئل عن قلة استفادته من رسول الله ﷺ قال: (أهانا الصفق

(١) رواه الدميري في حياة الحيوان عن المحاسن والمساوي للبيهقي ورواه بهذا المضمون عن شذرات العقود للمقريزي عن سيرة الأئمة الاثني عشر/القسم الثاني/الإمام الخامس محمد الباقر عليه السلام لهاشم معروف الحسني.

(٢) الغيبة الصغرى والكبرى للسيد الشهيد محمد صادق الصدر قدس سره.

بالأسواق^(١)، ويقول بعضهم: كُنَّا نغتنم فرصة مجيء الإعرابي يسأل من رسول الله ﷺ لتتعلم أحكام ديننا. فمع عجزهم عن هذه الأمور الجزئية، كيف يوكل إليهم أمر الإمامة التي بها قوام الأمة.

٢- لو كان لهذا الأمر وجود لبين رسول الله ﷺ تفاصيله إلى الأمة، فيوضح صيغة الاختيار، ومن الذين لهم هذا الحق، وما هي شروط المرشحين للإمامة وضوابط الاختيار، ومن هو الحاكم فيها عند الاختلاف، وهكذا. ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ لم يغفل عن أبسط تفاصيل الشريعة، كآداب المائدة وأحكام التخلي، فكيف يغفل عن مسألة الإمامة وهي أصل الشريعة وأساسها؟! .

٣- عدم التزام نفس الخلفاء الذين أعقبوه بمبدأ الاختيار، فالأول نص على الثاني^(٢)، والثاني جعله بين ستة من المهاجرين،

(١) صحيح مسلم ٢ ٣٤ ٢ في كتاب الآداب، صحيح البخاري ٣ ٣٧ ٨ مسند

أحمد ٣ ٩ ١ سنن الدارمي ٢ ٧٤ ٢، سنن ابن داود ٢ ٢٠ ٣ مشكل الآثار ١

٩٩ ٤ (عن كتاب الغديج ٦ ٥٨ ١)

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ شرح الخطبة الشقشقية.

فهل تراهم أول مخالفين لسنة رسول الله ﷺ، بل إن الخليفة الثاني يقر ويعترف (أن بيعة أبي بكر فلتة (أو فتنة) وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه كائناً من كان) (١).

٤- إن هذا المنصب العظيم له مؤهلاته الدقيقة التي لا يعلمها إلا المطلع على الأسرار ومن لا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، وأولها العصمة؛ لاشتمزاز الناس من الأخذ ممن يتورط في الذنوب، وكما يظهر من الآية الشريفة [وإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] (البقرة: ١٢٤)، إنها مرتبة فوق النبوة والرسالة ولا يبلغها الرسول إلا بعد اجتيازه لامتحانات عسيرة، وقد ورد في تفسيرها أن الله اتخذ إبراهيم عبداً خالص العبودية، أي معصوماً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، ثم ابتلاه ربه

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ شرح الخطبة الشقشقية، سيرة الأئمة ج ١، وسيأتي في الهوامش القادمة مزيد من التفصيل.

(٢) شرح النهج ج ٢ ٣ ٤، المراجعات / المراجعة ٨٠، مسند أحمد ٥١ البخاري ١١١٤، تاريخ الطبري ٤٤٦٢. (عن نظريات الخليفين).

بكلمات فآتمهن، ونجح في تلك الاختبارات فاستحق

التكريم الإلهي [إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا] (١).

وأنت لو استقرت الآيات الشريفة وجدتها تنسب الإمامة

إلى الجعل الإلهي، كآية المتقدمة وقوله تعالى: [وَجَعَلْنَا هُمْ

أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ] (الأنبياء: ٧٣)،

وقوله تعالى: [وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي

الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ] (القصص: ٥)، وقوله

تعالى: [وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا

بآيَاتِنَا يوقنون] (السجدة: ٢٤)، لذا قال تعالى: [وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا

يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ] (القصص: ٦٨) [وَمَا كَانَ

لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ

الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ] (الأحزاب: ٣٦).

٥- إن كون الإمامة بالتعيين والنص الإلهي مرتكز في أذهان

المسلمين عامة حتى عند من لم يعتقدوا به ظاهراً، لكن

كلماتهم وأفعالهم تبرز ذلك، والشاهد على ذلك ما ورد في

روايات عديدة أن الناس كانوا يرددون قوله تعالى: [اللَّهُ

أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ] (الأنعام: ١٢٤) عند ما يطلع أحدهم

(١) سورة البقرة : ٢٤، راجع تفسير الميزان وأصول الكافي/كتاب الحجّة.

عن كتب على سيرة أهل البيت عليهم السلام ومواقفهم النبيلة السامية، فكأنه مرتكز في أذهانهم جميعاً أن حمل الرسالة أمر مجعول من قبل الله تبارك وتعالى، وليس لأحد أن يتدخل فيه.

٦- إن رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه لم يعط لنفسه الحق في تنصيب من يلي الأمة، وإنما أوكل الأمر إلى الاختيار الإلهي، ففي سيرة ابن هشام^(١) لما دعا الرسول بنى عامر للإسلام، وقد جاءوا في موسم الحج إلى مكة قال رئيسهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال النبي صلى الله عليه وآله: (الأمر لله يضعه حيث يشاء). إذا كان الأمر كذلك فكيف يدعى إيكاله إلى الأمة.

عقيدة مدرسة أهل البيت عليهم السلام في الإمامة:

الثاني: ولم يبق إلا الاحتمال الآخر، وقد تبنته مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وأرسى قواعده رسول الله صلى الله عليه وآله واستوعبه الصفوة من أصحابه ودافعوا عنه وصرحوا به رغم الوعيد والتهديد ومضوا عليه شهوداً وشهداء.

وهذا موافق لسنة الله التي جرت في أنبيائه ورسله حيث كان لهم جميعاً أوصياء^(١)، فلماذا لا يكون لرسول الله ﷺ وصي [قُلْ مَا كُنْتُ بَدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ] (الأحقاف: ٩) [فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا] (فاطر: ٤٣)، وقد ألفت كتب عديدة في هذا المجال بعنوان (إثبات الوصية) وأشهرها للمسعودي^(٢)، وهذا المسلك يقتضي تهيئة الشخص البديل وإعداده ليكون مؤهلاً لمواصلة وظائف ومسؤوليات الإمام والخلافة والقيادة النابتة بشكل تام وكامل وفاعل.

(١) وقد سلسل المسعودي في كتاب (إثبات الوصية) اتصال الحجج وأوصياء الأنبياء

من لدن آدم حتى خاتم النبيين -صلوات الله عليهم أجمعين- وأوصياءه. عن معالم

المدرستيح ٢ ٨ ٣ ١

(٢) المسعودي هو: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ينتهي نسبه إلى الصحابي

عبد الله بن مسعود توفي سنة ٣٤٦هـ وفي ترجمته بطبقات الشافعية ٣٠٧٢ قيل كان

معتزلي العقيدة، وأشار إلى هذا الكتاب الكتبي في فوات الوفيات ٤٥٢ وياقوت

الحموي في معجم الأدباء ١٣ ٩٤ وقال: له كتاب البيان في أسماء الأئمة، وفي الميزان

لابن حجر ٢٢٤٤ له كتاب تعيين الخليفة، سماه في الذريعة وغيرها: إثبات الوصية.

(معالم المدرستيح ٢

وهذا الاحتمال يبدو منسجماً مع النتائج التي تمخضت عن التحليل السابق وفي ضوء القابليات والمؤهلات التي اجتمعت في أمير المؤمنين^(١) الذي قيل في كثرة فضائله: (لقد أخفى أولياؤه فضائله خوفاً، وأخفاها أعداؤه حسداً وحقدًا، وظهر ما بين ذلك ما ملأ الخافقين)^(٢)، وعن أحمد بن حنبل: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب)^(٣).

وكان تميزه واضحاً عن بقية أصحاب رسول الله ﷺ بكل صفات الكمال، وكان التفاف الواعين المخلصين من أصحاب رسول الله ﷺ حوله معروفاً في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته ﷺ، كسلمان^(٤)،

(١) وأنا إلى هنا أتكلم بشكل موضوعي ووفق الظروف المنظورة بعيداً عن النصوص وأقيم سلوك رسول الله ﷺ كمؤسس أمة ومنشئ مجتمع مدني جديد وقائد ناجح حكيم.

(٢) سيرة الأئمة الاثني عشر ١٠٧٣ بحسب كتاب (بنور فاطمة اهتديت) / ٣٦١. في جواب من سأله عما يحدث الناس عنه.

(٣) مستدرك الحاكم ١٠٧٣ بحسب كتاب (بنور فاطمة اهتديت) / ٣٦١.

(٤) سلمان الفارسي أو المحمدي: كان أكثر أصحاب الإمام أمير المؤمنين ﷺ علماً وحكمة، وكان والياً على المدائن في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، توفي في المدائن التي كان والياً عليها في آخر خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين وقيل أول سنة ست وثلاثين وغسله ودفنه أمير المؤمنين ﷺ.

وأبي ذر^(١)، والمقداد^(٢)، وعمار^(٣)، وعزز ذلك الرعاية الخاصة والإعداد المركز الذي كان يحيطه به ﷺ منذ نعومة أظفاره والتي وصفها أمير المؤمنين نفسه بقوله: (وقد علمتم موضعي من رسول الله - ﷺ - بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة: وضعني في حجره وأنا ولد يضمنني إلى صدره، ويكفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. ولقد قرن الله به - ﷺ - من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره، ولقد كنت أتبعه

(١) أبو ذر: جندب بن جنادة: تقدم إسلامه وتأخرت هجرته، فشهد ما بعد بدر من غزوات رسول الله ﷺ، توفي منياً بالربذة سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.
 (٢) المقداد بن الأسود الكندي: قال الرسول ﷺ (إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة من أصحابي واخبرني أنه يحبهم، فقيل: من هم؟ فقال: علي والمقداد وسلمان وأبو ذر).. توفي سنة ٣٣ هجرية. (الاستيعاب بهامش الإصابة ٤٥١٣ والإصابة ٤٣٣٣ ٣٤ عن معالم المدرستيح ٨)

(٣) أبو اليقظان عمار بن ياسر: أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً بعد بضعة وثلاثين رجلاً، وكان المشركون يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم فمر بهم النبي ﷺ فقال (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)، فمات ياسر في العذاب وطعنت أمه بحربة أبي جهل، شهد عمار المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقتل بصفين مع علي عليه السلام وقد جاوز التسعين من عمره.

اتَّبَعَ الْفَصِيلَ أَثْرَ أُمَّه، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عِلْمًا مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالْإِفْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يَجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرًا فَارَاهُ، وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمُنْذُ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَخَدِجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نَوْرَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ - ﷺ - فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرِّنَّةُ؟ فَقَالَ: (هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ آيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ) (١).

وهكذا هو منه ﷺ حتى فارقت روحه الدنيا، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - أَنِّي لَمْ أَرِدْ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ. وَلَقَدْ وَأَسَيْتَهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوْاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ الْأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا. وَلَقَدْ قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي. وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي، فَأَمَرْتَهَا عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وَلَّيْتُ غُسْلَهُ - ﷺ - وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَبَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَّةُ: مَا لَا يَهْبِطُ، وَمَا لَا يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْئَةً) (٢)

(١) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده ج ٢ ١٥٧

(٢) الهينمة: الصوت الخفي.

مَنْهُمْ، يَصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِهِ. فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا
وَمَيِّتًا؟^(١).

الدور العلوي في الحفاظ على الدين:

ولقد أدى عليه السلام دوره بنجاح بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وحفظ الإسلام من الضياع، وكان وجوده والأئمة من بنيه بحق أماناً للأمة من الانحراف، بحيث يستغيث الخليفة الثاني ويتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن^(٢)، فكانت خلافة أمير المؤمنين لمقام رسول الله صلى الله عليه وآله وإمامة الخلق من بعده نتيجة طبيعية ومنطقية لتسلسل التفكير أعلاه لا يسع أي منصف أن يحيد عنها، ولم يكن النص الذي سنشير إليه - وهو حديث الغدير - هو الذي جعل من علي عليه السلام إماماً وخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حتى يناقشوا في دلالاته والمراد منه، لا لشيء إلا لتصحيح الواقع الذي حصل بأي ثمن كان وبأية طريقة، ولو بإنكار وجود الشمس في رابعة النهار. فعلي عليه السلام هو الإمام بما حمله من صفات الكمال قبل النص وإنما جاء النص للإشارة إليه ولتعريفه ولقطع العذر وإتمام الحجة على المخالفين ولحسم الموقف ووضع النقاط على الحروف - كما يقولون - .

(١) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده ج ٢ ٧١ ١٧٢١.

(٢) أشار إلى كلمته المشهورة (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن).

التخطيط للخلافة:

ولعظمة هذه المسألة وأهميتها فقد كان التخطيط والتمهيد لها يؤرق عين رسول الله ﷺ ويقض مضجعه، فإنه يخشى ردود الفعل من هذه الأمة وهو خوف محمود كخوف موسى ﷺ الذي ذكره القرآن وأشرنا إليه، ليس شخصياً وإنما على مستقبل الأمة التي هي جديدة عهد بالإسلام وما زالت رواسب الجاهلية لم تنمح من ذاكرتها، وما زال التعصب يتحكم فيها^(١)، فكيف يستطيع أن يضمن ولاءها لهذا القرار الهام الذي يصعب على النفوس الحاملة بالخلافة والقلوب المملوءة حسداً وحقداً على علي ﷺ أن تنصاع إليه، كذاك الفهري الذي ما إن سمع بحديث الغدير وتنصيب علي ﷺ خليفة بعد رسول الله ﷺ ومبايعة المسلمين له حتى

(١) لاحظ كشاهد على ذلك كيف أن بشير بن سعد وأسيد بن خضير بادرا إلى بيعة

أبي بكر خشية أن يفوز بها سعد بن عباد.

عن كتاب النص والاجتهاد المورد الأول يوم السقيفة ص ٨٠.. واجتماع أكثر الأنصار في

السقيفة يرشحون سعد بن عباد وهو سيد الخزرج، لكن ابن عمه بشير بن سعد بن ثعلبه

الخزرجي وأسيد بن خضير سيد الأوس كانا ينافسانه في السيادة، فحسداه على هذا

الترشيح وخافا أن يتم له الأمر فأضمرا له الحبكة مجمعين على صرف الأمر عنه بكل ما

لديهما من وسيلة وصافقهما على ذلك وعويم بن ساعدة الأوسي، ومعن بن عدي حليف

الأنصار .. وكان مع ذلك ذوي بغض وشحناء لسعد بن أبي عباة ...

جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له: هذا الأمر منك أم من الله؟ فقال ﷺ: إنه من الله. فقال: إن كان هذا من الله فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتتنا بعذاب أليم. فما خرج منه ﷺ حتى نزلت عليه صاعقة من السماء. وقد ورد أنه سبب نزول قوله تعالى: [سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ] (المعارج: ١-٢) (١).

(١) روى الثعلبي الذي هو من قدوة مفسري المخالفين في شأن نزولها -انظر هامش ٨ تفسير الرازي لأبي مسعود ٢٩٢ والسيرة الحلبية ج ٣ ٢٠٣ ونور الأبصار ٩٦-٦ أنه لما كان النبي ﷺ بغدير خم نادى الناس فاجتمعوا فأخذ بيد علي عليه السلام فقال من كنت مولاه فعلي مولاه فشاع ذلك وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى ... النبي ﷺ وهو في ملأ من أصحابه، فقال: يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وانك رسول الله ففعلناه وأمرتنا أن نصلي خمساً قبلنا وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان قبلناه وأمرتنا أن نحج البيت قبلناه ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك وفضلته علينا وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه وهذا شيء منك أم من الله، فقال النبي ﷺ والذي لا إله إلا هو من الله، فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء واتنا بعذاب أليم، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره فقتله وانزل الله تعالى [سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ، مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ] (حق) اليقين في معرفة أصول الديج ١/ الآية الثالثة الدالة على أن الإمام بعد رسول الله ﷺ هو علي عليه السلام.

الإعلان العظيم تكلل في يوم الغدير:

وبالمقابل كان ﷺ لا يستطيع السكوت عن إنفاذ هذا الأمر

وهو يرى

نهايته تقترب، والأعداء يتربصون بدينه الدوائر، فكيف يهدأ له بال ويقرّ

له قرار

قبل أن تنعقد البيعة لعلي عليه السلام.

حتى أذن الله تبارك وتعالى له بالتبليغ، بل أمره به وطمأنه من

مخاوفه هذه بأنه سيعصمه من الناس، وبين أهمية هذا الأمر بأنه وحده في

كفة وباقي الرسالة كلها في كفة، فقال عز من قال: [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ

النَّاسِ] (المائدة: ٦٧).

فليس غريباً أن تدرج هذه الآية المباركة وآية الولاية التي سبقتها

[إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

وَهُمْ رَاكِعُونَ] (المائدة: ٥٥) في سورة المائدة التي يستشف المتأمل فيها أن

غرضها تأسيس المجتمع المسلم، وبيان مميزاته الرئيسية ومقوماته وأسس

كيانه، وعرض نقاط الفرق بين المجتمع الذي يقوم على أساس الإسلام

والمجتمع الذي ليس كذلك كائناً ما كان وإن سمي نفسه مسلماً، فإنه في

مفهوم القرآن (مجتمع جاهلي)، فالبينونة بين المجتمعين كاملة في الأحكام

(كآيات أوفوا بالعقود وحرمة الكلب والخنزير وغيرها) وفي من له حق

الولاية (فقد تكررت كثيراً آيات ولاية المؤمنين والبراءة من الكافرين)، وفي الشريعة التي تنظم الحياة [أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، هُمُ الظَّالِمُونَ، هُمُ الْفَاسِقُونَ] (المائدة، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٥٠) وتمامها وعقد نظامها آية التبليغ وآية الولاية.

أعظم الأعياد في الإسلام:

ثم جعل يوم الحسم هذا أعظم عيد في الإسلام، ففيه كمل الدين

وتمت

النعمة بعقد البيعة والولاية لأمر المؤمنين ﷺ، وامتنَّ اللهُ تبارك وتعالى على عباده بذلك فقال عز من قائل: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] (المائدة: ٣).

وجلس رسول الله ﷺ يتقبل التهاني بهذا الإنجاز العظيم ويقول لأصحابه: هثنوني هثنوني بابن عمي أمير المؤمنين. وأفرد له خباءً ليسلموا عليه ويبايعوا علياً خليفة من بعده وأميراً للمؤمنين، واستأذنه شاعره حسان بن ثابت أن يقول شعراً في المناسبة، فأذن له فأنشأ:

بخمُّ فأسمع بالرسول مناديا

يناديهم يوم الغدير نبهم

وفيها يقول:

رضيتك من بعدي إماماً وهاديا

فقال له: قم يا عليُّ فإنني

وأول من سلم عليه الشيخان وهما يقولان له: **بِخٍ بِخٍ لَكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ**، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة^(١).

وقد نظم هذه الحقيقة التاريخية الدامغة أجيال من الشعراء جيلاً بعد جيل^(٢)، ومنهم عمرو بن العاص الخضم الألد لعلي بن أبي طالب في قصيدته الجلجلية التي بعثها إلى معاوية يذكره ببعض الحقائق التي تناساها، ومما جاء فيها^(٣):

وكم قد سمعنا من	وصايا مخصصة في
المصطفى	علي
فأنحله إمرة المؤمنين	من الله مستخلف
وقال: فمن كنت مولياً له	المنحلال

(١) أخرج الإمام الواحدي في تفسير (يا أيها الرسول بلغ ١٠٠) من طريقين معتبرين عن

عطية عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية يوم غدير خم بعلي بن أبي طالب، فلما بلغ الرسالة بنصه ﷺ على علي عليه السلام بالإمام وعهد إليه بالخلافة أنزل الله عز وجل [اليوم أكملت لكم ١٠٠] وأول من هنا علي عليه السلام في يوم الغدير هما: أبو بكر وعمر بقولهما: أمسيت يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة. (أخرجه الدار قطني -

الفصل الخامس من الباب الأول من صواعق بن حجر ص ٢٦ وأحمد نحو هذا القول عن عمر من حديث البراء بن عازب ٨١ ٢ ٤ من مسنده). (المراجعات ٥٤ وما بعدها).

(٢) راجع الموسوعة الفريدة (الغدِير) للشيخ الأمين قاسم.

(٣) (راجع كتاب الغدير في ترجمة عمرو بن العاص).

فبخبخ شيخك لما رأى فهذا له اليوم نعم
 فقال: وليكم فاحفظوه الولي
 عرى عقد حيدر لم
 تحلل فمدخله فيكم
 مدخلي

وقد جاء هذا البيان - خطبة الغدير - منه ﷺ متوجاً لبيانات سابقة لا تقل عنه وضوحاً: (إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)^(١)، وإن: (علي مع الحق والحق مع علي)^(٢) وإنه ﷺ وأهل بيته كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك^(٣)، وأنهم والقرآن صنوان لا يفترقان، وثقلان ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً^(٤).. وغيرها كثير.^٤

(١) حديث المنزلة: عن الإمام أحمد في الجزء الأول من مسنده في آخر صفحة ٣٣٠

والإمام النسائي في خصائصه العلويق ٦ والحاكم في ج ٣ من صحيحه المستدرك

٢٣ ١ والذهبي في تلخيصه معترفاً بصحته عن عمرو بن ميمون (المراجعات : ٢٦).

(٢) البحاج ١٠ باب ٢٦ ص ٤٣٢

(٣) الوسائل : كتاب القضاء، صفات القاضي، يا ٥ حثي ١٠

(٤) الإمام أحمد والترمذي بعدة طرق تجدها في المراجعات : المراجعة ٨٠

لماذا كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام؟

إن عظمة هذا اليوم لها مناشئ عديدة فهو:

١- يوم الطمأنينة على بقاء الرسالة واستمراريتها بعد أن انتقل

ارتباطها من شخص رسول الله ﷺ، فيمكن أن تموت بموته،

إلى نوع رسول الله ﷺ، أي إلى كل من تتجمع فيه صفات

وشروط الإمامة فلم يعد وجودها منوطاً بشخصه ﷺ.

٢- وهو يوم الانتصار النهائي على مكائد الأعداء الذين لم يبق في

جعبتهم من سلاح إلا موت رسول الله ﷺ لتنتهي دعوته

ففقدا هذا الأمل الشيطاني بتنصيب أمير المؤمنين عليه السلام خليفة.

٣- وهو يوم حماية الأمة من التشتت ومن الضياع بتعيين الحبل

الذي إن اعتصموا به بقي ريحهم وكيانهم وانتشر أمرهم وعلت

كلمتهم.

٤- وهو يوم صيانتها من الانحراف بعد أن نصب لهم العلم

والمحور الذي يلتفون حوله.

٥- وهو يوم أمان الأرض ومن عليها من الفناء، لما ورد في

الحديث: (إن الأرض لا تخلو من حجة ظاهر أو مستور، ولولاه

لساخت الأرض بأهلها) (١).

١

٦- وهو يوم الهداية إلى الدين ووضوح الحق بمعرفة الحجة كما في الدعاء: (اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرفني نبيك، فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني) (١).

٧- وهو يوم الإمامة التي هي أس الإسلام وسنامه، فهو لا يقل أهمية عن يوم البعثة النبوية الذي انبثق فيه نور الإسلام.

التشيع يزداد وضوحاً بيوم الغدير:

لأجل هذا كله كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام كما نطقت به الروايات الشريفة، وفي ذلك اليوم تبلورت فكرة (التشيع) ونضجت ثمارها وأينعت بعد أن كان قد زرع بذورها رسول الله ﷺ في مناسبات عديدة، ابتداءً

من يوم الدار وإنذار عشيرته الأقربين في أوائل البعثة الشريفة (٢).

(١) مفاتيح الجنان : الفصل السادس ، دعاء زمن الغيبة.

(٢) حياة محمد : الفصل الخامس ٢ ٤ ٥ ، لمحمد حسين هيكل، المراجعات: مراجعة

٢٠ قال فيها حين أنزل الله تعالى على الرسول الأكرم ﷺ [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ]

فدعاهم إلى دار عمه أبي طالب وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيد رجلاً أو ينقصونه، وفيهم

أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، والحديث في ذلك من صحاح السنة

ولهج رسول الله ﷺ بهذا الاسم المحجب له ولأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) في مناسبات عديدة، أنقل بعضها من كتب العامة ليكون الخطاب أبلغ في الحجة:

١- في الدر المنثور للسيوطي ج ٨/ص ٥٨٩: روى بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي عليه السلام، فقال النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة)، فنزل قوله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ] (البينة: ٧).

٢- ابن حجر في الصواعق المحرقة الباب (١١) الفصل الأول: الآية الحادية عشرة:

المأثورة، وفي آخره قال رسول الله ﷺ يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأياكم يؤازرنى على أمرى هذا على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟ فأحجم القوم عنها غير على - وكان أصغرهم - إذ قام فقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله ﷺ برقبته وقال: إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

عن ابن عباس قال: لما أنزل الله تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ]، قال رسول الله ﷺ لعلي الشَّيْخِ: (هم أنت وشيعتك تأتون يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي عدوك غضاباً مقمحين).

٣- القندوزي الحنفي في ينابيع المودة ج ٢ ص ٦١.

عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله ﷺ: (علي وشيعته هم الفائزون يوم القيامة)، ومن المصادر التي ذكرت هذه الرواية في تفسير الآية الشريفة: تفسير الطبري وروح المعاني وكفاية الكنجي الشافعي وغيرها^(١).

كيف خطط رسول الله ﷺ للخلافة من بعده:

أشكال التخطيط النبوي لتعيين الخليفة:

لقد كان تخطيط رسول الله ﷺ لهذا الأمر أي تعيين الخليفة

والامتداد له على ثلاثة أشكال:

الأول: النص المباشر والواضح عليه، وعدم ترك الأمر مجملاً تتقاذفه

التأويلات والتفسيرات، وقد تقدم فيما مضى فكرة عنه، وأنصح بقراءة

(١) نقلاً عن كتاب (بنور فاطمة اهتديت) للكاتب والمحامي السوداني عبد المنعم

كتاب (المراجعات) للسيد شرف الدين^(١) للاطلاع على المزيد من الأدلة والنصوص ببيان قوي وحجة دامغة، مما لو دخلت فيه سأخرج عن الاتجاه العام الذي رسمته لهذا البحث.

الثاني: الإشادة بالأشخاص المخلصين الواعين الذين يعلم ﷺ منهم أنهم ثابتون على الخط وواعون للهدف وراسخون في المبدأ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقولون كلمة الحق مهما كان الثمن، كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار وذو الشهادتين وبلال الحبشي وأم ايمن وأم سلمة، فكان ﷺ يردد: (سلمان من أهل البيت)^(٢) (إن الجنة لتشتاق إلى أربعة: سلمان والمقداد وأبي ذر وعمار)^(٣) (ما أظلت الخضراء ولا أقلت

(١) السيد عبد الحسين بن السيد يوسف بن السيد جواد بن السيد إسماعيل بن محمد جد الأسرتين آل الصدر وآل شرف الدين بن السيد إبراهيم (الملقب بشرف الدين) ولد في الكاظمية سنة ٢٩٠ هجرية، كتابه المراجعات: هو مجموعة مراجعات جرت بينه وبين المرحوم علامة مصر الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر، توفي السيد في ٨ جماد الثانية ٣٧٧ هجرية.

(٢) البحاج ابنا ١ ٢ ٣ ٤

(٣) وسائل الشيعة: ٢٢ خاتمة الكتاب، ابنا ٠ ١ ٢ ٤ ٣

الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذر^(١) (ملئ عمار إيماناً من قرنه إلى أخص قدميه)^(٢) و(أم أيمن امرأة من أهل الجنة)^(٣) و(بلال من أهل الجنة)^(٤) وقال لأم سلمة: (لست من أهل البيت، لكنك على خير)^(٥). فكانت هذه الأوسمة تخطيطاً منه ﷺ للمستقبل إذا انقلبت الأمة على الأعقاب وتاهت بها السبل في بحر الظلمات، فيسكون هؤلاء أعمدة نور تضيء لطلاب الحقيقة الدرب، وتدللهم على شاطئ الإيمان وقد أدوا دورهم وقالوا كلمة الحق فثبتوها في لوح التاريخ^(٦) لو كان هناك من يسمع، بينما لم نسمع منه ﷺ كلمة واحدة في أولئك الذين انحرفوا عن علي عليه السلام وخذلوه، رغم أن منهم من كان له مواقف مشهورة كالزبير بن العوام.

(١) الوسائل ج ١٠، آية ٢، ٣، ٤، سنن ابن ماجه المقدمة بيا ١، ١، وسنن الترمذي كتاب المناقب، مناقب أبي ذر، ومسنند أحمد، وطبقات ابن سعد. (عن معالم المدرستين).

(٢) الوسائل ج ٩، آية ٦، ٥، ٣

(٣) البحار ج ٧، آية ٤، ص ٣٧٨

(٤) البحار ج ٢، آية ٧، ٣، ٢، ٤، ١

(٥) أخرجه الطبراني في الدر المنثور، وروي عن طريق الخاصة.

(٦) راجع كتاب الاحتجاج للطبرسي.

الثالث: وضع ضوابط يعرف بها المستحقون لهذا الأمر وتمييزهم عمّن هم ليسوا أهلاً له، والذين يستخدمون أساليب لم يقم عليها دليل شرعي من أجل تثبيت استحقاقهم، أو تشويه صورة أهل الحق وإزالتهم عن موقعهم، كما كانوا يقولون: (إن قريش نظرت فاخترت، وإنها أبت أن تجتمع النبوة والخلافة في بني هاشم)^(١) و(إن فلان - وهو الأول - أسنّ من علي)^(٢) و(إن علياً فيه دعاية)^(٣)، والله تبارك وتعالى يخاطبهم [فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً] (النساء: ٦٥)، ويقول تعالى [وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا] (الحشر: ٧)، وقال تعالى [وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة] (القصص: ٦٨) [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم] (الأحزاب: ٣٦) فما قيمة رأي أحد واختياره كائناً من كان بعد قضاء

(١) ابن أبي الحديد ص ١٠٧ من المجلد الثالث في شرح النهج، ابن الأثير ص ٢٤
 ٣ من كامله. (عن المراجعات : مراجعة ٨٤). سيرة الأئمة ج ١ ٣٢ ٣ هاشم معروف الحسني.

(٢) الغدير ج ٢ ٢٨ ١

(٣) شرح النهج ج ١ ابن أبي الحديد عن شيخه أبو عثمان في كتابه السفينانية، سيرة الأئمة ج ١ ٣٨ ٣

الله تبارك وتعالى واختياره [بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ] (البقرة: ٩٠).

الضوابط والمعايير لتولي الخلافة:

فبهذه المعايير والضوابط التي سنذكرها إن شاء الله تعالى تستطيع الأمة أن تفرز هؤلاء المتطفلين مهما مارسوا من أساليب الخداع والتضليل، المتقمصين لأمرها بغير حق:

(فمنها) قوله تعالى: [لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ] (البقرة: ١٢٤)، والعهد هو الإمامة؛ لأنها جاءت جواباً على سؤال إبراهيم عليه السلام بعد جعله إماماً، قال: [وَمِنْ ذُرِّيَّتِي]، وقد فسرت في الروايات الشريفة بمن سجد لصنم يوماً ما^(١)، فإن من فعل ذلك أسفيه، ولا يكون السفيه إمام التقي كما في الحديث^(٢)، ويشهد له قوله تعالى: [إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ] (لقمان: ١٣).

(١) روى الفقيه ابن المغازي الشافعي مسنداً عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله انتهت الدعوة إلي وإلى علي عليه السلام ولم يسجد أحدنا لصنم فاتخذني نبياً واتخذ علي وصياً. (حق اليقين في معرفة أصول الدين - الحادي عشر من الآيات الدالة على إمامة علي عليه السلام).

(٢) الكافي: كتاب الحجة، حديث ٣٨ ٤ المجلد الثاني.

(ومنها) قوله تعالى: [لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا] (الحديد: ١٠).

(ومنها) قوله ﷺ: (لا يلي أمر هذه الأمة طليق).

(ومنها) قوله ﷺ: (فاطمة بضعة مني، يرضى الله لرضاها، ويغضب

لغضبها) (١).

٢ وقال ﷺ: (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) (٢).

(ومنها) حشده ﷺ المعادين لخط الإمامة، وفيهم شيوخ قريش في جيش أسامة ذي السبعة عشر ربيعاً، ولعنه من تخلف عن جيش أسامة، وأمر بإنفاذه فوراً (٣)، وكان ذلك منه ﷺ لإخلاء الساحة من الذين لا ينصاعون لإمامة أمير المؤمنين عليه السلام.

تطبيق الضوابط على المتصدين للخلافة بغير حق:

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة : ١٤١، أعلام النساء : ٣١٤٣ (عن نظريات الخليفين

(٢) الكافي: ١١٥

(٣) الشهرستاني في المقدمة الرابعة من كتاب الملل والنحل. (المراجعات : مراجعة ٩٠، النص والاجتهاد - سرية جيش أسامة).

وبملاحظة هذه المعايير والضوابط تكتشف كيف خطط رسول الله ﷺ لحصر الأمر بعلي عليه السلام، فبعض المتصدين ممن أغضب فاطمة عليها السلام وماتت وهي واجدة عليهم، كما أشهدتهم (صلوات الله عليها) على ذلك، فنالوا بذلك غضب الله تبارك وتعالى، وهل يلي أمر الأمة أحد من المغضوب عليهم، ثم هم من الظالمين الذين سجدوا للأصنام ردحاً طويلاً من الزمن، فلا ينالهم عهد الله تعالى، فكيف يكون أحدهم إماماً لمن كرم الله وجهه عن ذلك - كما يعترفون - وهم أيضاً ممن تخلفوا عن جيش أسامة فينالهم حكمه.

وبعضهم لم يقاتلوا لا قبل الفتح ولا بعده، وهزائمهم في الحروب معروفة، ومنهم من ولى منهزماً في معركة أحد لا يلوي على شيء ثلاثة أيام، حتى بلغ تخوم الشام، فقليل له: إن الأمر لا يستحق ذلك وقد عاد رسول الله ﷺ سالماً إلى المدينة.

ومعاوية ومروان ممن أسلموا بل استسلموا بعد الفتح، فلا يستون مع من آمن وأنفق من قبل الفتح وقاتل، وهم من الطلقاء^(١) فلا يحق لهم

(١) مستدرک نهج البلاغة: الباب الثاني، کتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية وقوله:

..واعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم

الإمالة ..)

ولاية أمر الأمة. وهم من البغاة، لأنهم قتلوا عماراً في صفين، فكيف يلي أمر الأمة باعٍ أثيم^(١).

فلو كانت الأمة واعية لتلمست طريقها بوضوح، حيث لم يترك لها رسول الله ﷺ عذراً، فهل كان رسول الله ﷺ عاطفياً وبدافع الحب لابنته حين قال هذا الكلام، وهل سمعت بأحد غيور يرتقي المنبر ويشي على مزايا ابنته؟! لا طبعاً خصوصاً في مثل رسول الله ﷺ الذي يصفه القرآن [وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ] (النجم: ٣-٤). وإنما المسألة أبعد من ذلك، إنه يريد أن ينصب لهم ميزاناً يعرفون به الحق والباطل لو اختلطا عليهم، وإن كان الأمر واضحاً لكن قلبه الكبير ورحمته ورأفته بالأمة أبت إلا أن يوالي الحجج على هذه الأمة وينصب لها العلامات تلو العلامات حتى وهو على فراش المرض في رزية الخميس كما يسميها ابن عباس^(٢). ولأنه ﷺ كان يعلم أن أساليب التضليل كثيرة ووسائل الضغط قوية وشرسة، فالنص - وهو الشكل الأول من التخطيط - يُؤوَّل ويحرَّف، وهذه الثلة المخلصة - وهو الشكل الثاني - يَضَيَّقُ عليها

(١) البحار ج ٦ ص ١ ع ٢٧ ٣ النص والاجتهاد: المورد ٩٥ حرب معاوية لعلي

عليه

(٢) المراجعات: المراجعة ٦ ٨

وتحبس أنفاسها، فأبو ذر ينفي إلى الربذة حتى يموت غريباً^(١)، وعمار
وعبد الله بن مسعود^(٢) يداس بطنه وتوجأ لعنقه، وأم أيمن امرأة أعجمية لا
تقبل لها شهادة^(٣)، والحسن والحسين^٣ طفلان صغيران^(٤)، وعليّ يجر النار
إلى قرصه فلا تقبل له ولا لولديه شهادة^(٥)، والزهراء عليها السلام تتجرع الآلام
غصة بعد غصة حتى لحقت بأبيها بعد أيام وهكذا...، لذا كان الشكل
الثالث من التخطيط ضرورياً ليكون شاهد عدل مدى الأجيال، تملأ أفواه
مزوري الحقائق بالتراب.

(١) الوسائل ج ٢٢ باب ١٢ ٩٥ ٣ معالم المدرستين ج ١ ٥٩ ٤

(٢) ابن مسعود: أسلم قديماً وأجهر قديماً في مكة فضربوه حتى أدموه وهاجر إلى
الحبشة والمدينة، شهد بدرأً وما بعدها، وقطع عثمان عطاءه سنتين لإنكاره على الوليد ما
ارتكبه زمان ولايته على الكوفة ومات سنة اثنتين وثلاثين. (أسد الغابة: ٣ ٢٥٦ ٢٦٠،
مستدرک الحاكم : ٣ ٣٢٠ ٣١٥ وراجع أحاديث عائشة ٦٢ ٦٥) عن معالم المدرستين
٢، وحول مقتله راجع للتفصيل سيرة الأئمة ج ١ ٧ ٣ وكذلك ضرب عمار بن
ياسر.

(٣) بحار الأنوار ج ٨ ٢٨١ ع ٢ ٣٠٢ سيرة الأئمة: القسم الأول ج ١٨ ١٨ الهاشم
معروف الحسيني.

(٤) سيرة الأئمة : القسم الأول ج ١٩ ١

(٥) سيرة الأئمة : القسم الأول ج ١٨ ١

ولعلك تعجب مع وضوح هذا التخطيط وقوة الحجج المتوالية التي لم تنقطع حتى وفاته صلى الله عليه وإذا بالأمر يزول عن مستقره ويتقمص الخلافة غير علي عليه السلام، وهو يعلم أن محل ابن أبي طالب منها محل القطب من الرحي، ينحدر عنه السيل، ولا يرقى إليه الطير^(١).

وانه لعجيب فعلاً، ولو لم يكن حقيقة ثابتة أجمع عليها المؤرخون لما صدقنا به، وقد أوجدت في عين أمير المؤمنين قذى، وفي الحلق شجى، وفي القلوب جمره لا تطفأ إلى يوم القيامة حتى يتتصف المظلوم من الظالم، ونعم الحكم الله والخصم محمد صلى الله عليه، يقول الإمام الصادق عليه السلام بهذا الصدد: (إن حقوق الناس تثبت بشهادة شخصين، وقد أنكر حق جدي أمير المؤمنين وعليه سبعون ألف شاهد كانوا مع رسول الله صلى الله عليه في غدير خم)^(٢).

٣

المرجعية الدينية ومسؤوليات التخطيط لإعداد البديل:

-
- (١) من كلمات لأmir المؤمنين عليه السلام في الخطبة الشقشقية في نهج البلاغة.
- (٢) من خطبة الزهراء التي احتجت بها على الصحابة في مسجد رسول الله صلى الله عليه (المصنف). راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١٦ ١٠ ٢
- (٣) بحار الأنوار ج ٣٧ ٢ ١٥٨ ٥

وعلى أية حال، فليست هذه الحالة فريدة في التاريخ، بل هي تتكرر كلما تكررت ظروفها الموضوعية، وما دامت النفس الأمارة بالسوء الميالة لاتباع الهوى وإشباع الشهوات والنزوع إلى التسلط وحب الجاه، وقد عشنا مثلها فإلى الله المشتكى^(١).

والذي أريده من هذا البيان ليس فقط ترسيخ هذه العقيدة والدفاع عنها وإن كان هذا مطلباً مهماً، لكنني بالإضافة إليه أقول: إن العلماء وعلى رأسهم المرجعية الشريفة هم ورثة الأنبياء^(٢)، ليس فقط في الحقوق والامتيازات، وإنما في الوظائف والمسؤوليات والواجبات، خصوصاً وقد أمرنا بالتأسي برسول الله ﷺ بقوله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا] (الأحزاب: ٢١).

ومن تمام التأسي والوراثة إعداد البديل بغض النظر عن كونه واحداً أو أكثر، وتربيته وتأهيله لهذا المنصب الإلهي الشريف، وأي تقصير فيه غير مغتفر لا عند الله سبحانه ولا عند رسوله ﷺ ولا أوليائه العظام ولا عند المجتمع، وبعد أن يطمئن إلى إكمال إعداد البديل علمياً وفكرياً

(١) يشير (دام ظله) بذلك إلى ما حصل من حركات (انقلابية) على وصية السيد الشهيد الصدر الثاني عليه السلام رغم النصوص والإشارات المتكررة.

(٢) الكافي: ٣٢١

وأخلاقياً وعقائدياً - وهي المقومات الأربعة لشخصية العالم الديني، بل كل مسلم واعٍ مخلص - يجب أن يشير إليه صريحاً، وهذا هو الشكل الأول من التخطيط.

وأما الشكل الثاني فيؤدي بالإشادة بمجموعة من الفضلاء الورعين المخلصين من أهل الخبرة الذين يطمئن إلى استقامتهم على الطريقة وإنصافهم الحق ونزاهتهم في بيانه وبصيرتهم في الأمور، حتى يرشدوا المجتمع بإخلاص وبلا لبس وإجمال وغموض إلى المرجع البديل.

وأما الشكل الثالث ففيه صنفان من الضوابط والمعايير والشروط، فمنها شروط ثابتة، وهي الاجتهاد والعدالة وغيرها من المذكورات في الرسائل العملية، ومنها شروط متحركة بحسب الزمان والمكان والظروف الموضوعية التي تعيشها المرجعية الشريفة، وهذه يجب طرحها بحسب الحاجة وفي وقتها المناسب. وهذا الكلام كله على نحو الإشارة والإجمال، وللتفصيل محله المناسب.

مسؤولية الأمة في البحث عن المرجع البديل:

هذا بالنسبة لتكليف المرجعية، وفي مقابله توجد مسؤولية على الأمة يجب أن تعيها وتؤديها، وهي سؤال المرجع عن البديل، فإذا عينه كان من واجبهم الالتفاف حوله والإشادة به ودلالة المجتمع عليه، وقد تكاملت هذه

التربية عند أصحاب الأئمة عليهم السلام، فكانوا يسألونهم: (مَنْ الحجة بعدك) ^(١) و(إلى من المفزع إذا حدث حدث) ^(٢) وهكذا، وإذا ذهب إمام فلم يكونوا يصدقون كل من يدعي الإمامة، بل يجرون له الامتحانات التي لا ينجح فيها أي إمام ^(٣)، كامتحانهم لجعفر أخي الإمام العسكري عليه السلام الذي ادعى الإمامة بعد أخيه عليه السلام.

(١) أصول الكافي : كتاب الحجة باب الإشارة والنص على الأئمة.

(٢) نفس المصدر.

(٣) راجع كتاب أصول الكافي/كتاب الحجة.

القبس القرآني-
٣

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل

انقلبتم على أعقابكم) ﴿ [آل عمران : ١٤٤]

ماذا خسرت الأمة حينما ولت أمرها من لا يستحق

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق، والحمد لله الذي جعلنا من الموفين بعهده وميثاقه الذي واثقنا به من ولاية ولادة أمره والقوام بقسطه، ولم يجعلنا من الجاحدين المكذبين بيوم الدين، وصلّى الله على رسوله والأئمة الميامين من آله وسلم تسليماً كثيراً.

رزيتة الخميس:

كانت وفاة النبي ﷺ يوم الاثنين الثامن والعشرين من صفر على ما

(١) محاضرة ألقاها سماحة آية الله الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) على حشد من فضلاء وطلبة الحوزة العلمية يوم ٢٥ صفر ١٤٢٣ هـ المصادف ٨ آيا ٢٠٢٢م في مسجد الرأس الشريف مجاور الصحن الحيدري المطهر بمناسبة ذكرى وفاة رسول الله ﷺ

هو المشهور^(١)، فتكون رزية يوم الخميس كما سماه عبد الله بن عباس^(٢) يوم الرابع والعشرين من صفر أي في مثل يوم أمس، وكانت رزية حقاً، إذ انقطع في ذلك اليوم آخر أمل لتمسك الأمة بوصية رسول الله ﷺ في الإمام والخليفة من بعده، وأعلنوا معارضتهم الصريحة والواضحة لهذا التعيين، لذلك قال ﷺ لأهل بيته: (أنتم المستضعفون بعدي)^(٣)، وأوصى أمته بهم خيراً، ولو كان يعلم أن الأمر يؤول إليهم لما احتاج إلى الوصية بهم، وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام يعبر فيه عن ألمه العميق من تضييع الأمة لبيعة يوم الغدير ولحق أمير المؤمنين فيقول: (إن حق الرجل يثبت بشاهدين، وقد أضيع حق جدي أمير المؤمنين وعليه سبعون ألف شاهد)^(٤).

النزاع بين الخط الإلهي والخط البشري:

ولا أريد أن أناقش أسباب هذا التضييع وإهمال الأمة لهذا الحق

(١) منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل للشيخ عباس القمي ج ١ الفصل السابع، تأريخ

الطبري المجلد الثامن ٧ ٩ ١، سيرة بن هشام ٤/ اليوم الذي قبض الله تعالى فيه نبيه

الأكبر ﷺ

(٢) تأريخ الطبري المجلد الثاني السنة الحادية عشر.

(٣) منتهى الآمال ج ١ ٢٠٥

(٤) البحار ج ٧ ٣٧ ٢ ٥٨ ٥ ١

الذي أخذه الله على كل المؤمنين، فهذه المناقشة محل آخر، لكنني أعتقد أن أحد هذه الأسباب والذي لا زال في ذهن الناس مما يقلل من وعي خطورة هذا التضييع هو القصور في فهم النزاع، فقد فهموه على أنه نزاع بين شخصين، هما علي بن أبي طالب عليه السلام ومن نازعه الأمر، فهم لا ينكرون فضل علي عليه السلام وسابقته وجهاده وعلمه وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وشجاعته وفناءه في الله، لكنهم يرون أن المقابل أيضاً من السابقين إلى الإسلام وثاني اثنين إذ هما في الغار وصهر رسول الله صلى الله عليه وآله وبدري وأحدي، بل حاولوا تلفيق بعض المناقب لساووه بأمر المؤمنين أو يقتربوا منه عليه السلام، وإزاء هذه المقارنة لم يجدوا المسألة مهمة بهذه الدرجة ولا تستحق أن ينشق المسلمون إلى طائفتين عظيمتين، ولا جدوى في البحث فيها فقد أكل عليها الدهر وشرب.

ولو فهموها بصورتها الصحيحة لغيروا عقيدتهم، ولما وجدوا أي تردد في قبول المذهب الحق، لأن الخلاف ليس بين شخصين — وإن كان بحد ذاته دليلاً كافياً لسمو علي عليه السلام على غيره كسمو الثريا على الثرى — وإنما بين مبدئين وخطين كان علي عليه السلام رمز الأول ومنافسه رمز الثاني:

الأول: مبدأ وخط رسمه الله تبارك وتعالى خالق السموات والأرض العالم بخفيات الأمور وبواطن النفوس وبما كان وسيكون، واختاره للأمة لتصل إلى كمالها المنشود، وبلغه رسوله الكريم صلى الله عليه وآله في يوم الغدير.

يقف في أول الخط علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن بعده الحسنان سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن بعدهما الأئمة الطاهرون الذين أطبقت الأمة على نزاهتهم وعلمهم وتمثيلهم الكامل للشريعة الإلهية، ومن بعدهم العلماء العارفون الأتقياء الصالحون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الثاني: خطُّ يصنعه البشر بأهوائهم وأساليبهم الشيطانية من قهر وإذلال أو إغراء بالمال أو ظلم وتعسف أو تضليل وتمويه وادعاءات باطلة، وكان الآخر رأس هذا الخط، فقد اختارته قريش — كما يقول الخليفة الثاني — وليس الله الذي اختاره، ويتتابع على هذا الخط معاوية الذي يقول: والله ما قاتلتكم لتصلُّوا ولا لتصوموا ولا لتزكوا، وإنما لأتأمر عليكم^(١)، ومن بعده يزيد شارب الخمر على منابر المسلمين والذي أحرق الكعبة بالمنجنيق وقتل ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله^(٢)، ومن بعده الآخرون الذين سفكوا الدماء وهتكوا الأعراض ونشروا الفساد وضلُّوا وأضلُّوا ﴿كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف: ٣٨).

(١) منتهى الآمال: الفصل الثالث ٣٥ عن البحاج ٤٤ ٩ ٤

(٢) تأريخ الطبري المجلد الثالث، سيرة الأئمة لهاشم معروف الحسنيج ٢ منتهى الآمال

الباب الخامس ، معالم المدرستيح ٥/ يزيد في أفعاله وأقواله (روى صاحب

الأغاني: أن يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي في الإسلام من الخلفاء وأوى المغنين

وأظهر الفتك وشرب الخمر وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولا ..)

مع الوعي في الطرح:

عندما تعرض المقارنة بهذا الشكل، ولو استوعبها الصحابة والأجيال جميعاً بهذا الشكل لما ترددوا في الإيمان بصحة الخط الأول والتمسك به، على أنهم غير معذورين من أول الأمر، لأن القرآن صريح ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمُؤِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص: ٦٨)، بل إن رسول الله ﷺ نفسه لم يكن له هذا الحق حينما عرض عليه بنو عامر أن يسلموا مقابل أن يجعل لهم الأمر من بعده، فقال ﷺ: «ليس الأمر لي، وإنما هو بيد الله يختار له من يشاء»^(١).

ماذا خسرت الأمة؟

ومحل الشاهد أنني اعتقد أن طرح الموضوع بهذا الشكل يكون أجدى وأوضح، ولكي نزيده وضوحاً نطرح سؤالاً، وهو: ماذا خسرت الأمة بتضييعها وصية رسول الله ﷺ في الخليفة من بعده؟ وماذا ترتب على هذا الإهمال من نتائج سلبية؟ وحينما أتناول هذا البحث فإني لا أريد فقط أن

(١) السيرة النبوية، ج ٢، عرض الرسول نفسه على بني عامر.

أناقشها كقضية تاريخية، وإن كانت من الأهمية بمكان؛ لابتناء أصل من أصول الدين وهو أصل الإمامة عليها.

ولكن الذي أريده هو الاستفادة من هذا الدرس واستخلاص العبرة، لأن الإمامة بالحمل الأولي وإن كانت مختصة بالأسماء المعينة إلا أنها بالحمل الشائع أعني النيابة العامة عن الإمام وولاية أمر المسلمين المتمثلة بالمرجعية الشريفة الجامعة لشروط القيادة مستمرة إلى أن يرث الأرض ومن عليها الإمام المتظرف عليه السلام، فإذا بقي باب هذه النتائج السلبية التي ستعرض لها بإذن الله تعالى مفتوحاً لها كلها أو بعضها كلما ولت الأمة أمرها إلى من لا يستحق، فيكون من الضروري الالتفات إليها، فنعود إلى أصل السؤال، وهو: ماذا خسرت الأمة عندما ولت أمرها غير صاحب الحق الشرعي؟ وماذا ترتب على ذلك من نتائج سلبية؟

النتائج الوخيمة لتولي غير المؤهلين لإمامة الأمة:

النتيجة الأولى: تصدي غير المؤهلين للإمامة:

فمن المعلوم أن أية رسالة وأية أيديولوجية - بتعبير اليوم - لا بد أن يكون حاملها مستوعباً لها بشكل كامل فهماً وتطبيقاً، بحيث تكون هذه العقيدة هي الموجهة له في كل سلوكه وتصرفاته وأفكاره وعلاقاته، ولم يكن القوم كذلك، وإنما هم أناس عاديون كبقية أفراد المجتمع، ويوجد كثير غيرهم ممن استوعب الرسالة وجسدها في حياته خيراً منهم، وقد

كانوا يعترضون على رسول الله ﷺ في حياته ويتمردون على أوامره^(١) حتى آخر حياته؛ بتخلفهم عن جيش أسامة^(٢)، وعدم تلبية أمره ﷺ حينما طلب قرطاساً في رزية يوم الخميس^(٣).

وكانت الجاهلية تعيش في نفوسهم، حيث قضوا أكثر أعمارهم فيها، وقد كشف عن عدم أهليتهم جهلهم وتخبّطهم في الأمور، ويصف أمير المؤمنين إمرتهم المنحرفة في الخطبة الشقشقية: «فيا عجباً، بينا هو يستقلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته — لشد ما تشطراً ضرعياً — فصيرها في حوزة خشنا، يغلظ كلمها — أي تجرح جرحاً عظيماً — ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة، إن أشق لها حرم، وإن أسلس لها تقحم، فمني الناس — لعمر الله — بخبط وشماس — وهو إباء الفرس عن ركوب ظهره — وتلون واعتراض — أي سير غير مستقيم —»^(٤). حتى قال الثاني: (كل الناس أفتقه من عمر حتى ربات الحجال)^(٥) بعد أن نهى عن زيادة المهر عن حد معين، فأجابته

(١) راجع الهوامش السابقة.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤/أمر الرسول بإيفاد بعث أسامة.

(٣) راجع الهوامش السابقة.

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ شرح الخطبة الشقشقية.

(٥) الغدير: المجلد الأول ص ١٨٢ والمجلد السادس ص ٨ ٩

امراً: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً
تَأْخُذُونَهُ بِهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (النساء: ٢٠).

وقد أشكلت عليهم الكثير من المسائل حتى الاعتيادية منها التي
كانت تتكرر في حياة رسول الله ﷺ كالصلاة على الجنائز، ولما سئل
الثاني عن سبب قلة استفادتهم من رسول الله ﷺ قال: ألهانا الصَّفْقُ
بالأسواق^(١)، وكانوا يشككون حتى بنبوة رسول الله ﷺ وعصمته، فيقول
له أحدهم وجهاً لوجه: (أنت الذي تزعم أنك رسول الله)، أو يقولون عنه:
(إن الرجل ليهجر)^(٢).

٢

الإعداد النبوي للخليفة الحق:

في مقابل ذلك كان هناك شخص يعدّه رسول الله ﷺ إعداداً
خاصاً لكي يتسلم هذا الموقع، ذاك هو علي بن أبي طالب عليه السلام، فاستمع
إليه يتحدث عن هذه التربية الخاصة: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ
ﷺ بِالْقُرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ،
يُضْمِنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنِفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيَمْسِنِي جَسَدِهِ، وَيَشْمِنِي عَرَفَهُ

(١) صحيح مسلم بشرح النووي الجزء الرابع عشر، ص ١٣٤

(٢) تاريخ الطبري: المجلد الثاني ٣ السنة الحادية عشر، سيرة الأئمة الاثني عشر: القسم

الأول/ مع النبي في ساعة الوداع.

وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يَلْقَمْنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ.. إِلَى أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عِلْمًا مِنْ أَخْلَاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالْاِقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يَجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَاتِ، وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّهُ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الرَّئِةُ؟ فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ» (١)، وَفِي نَهَايَةِ خُطْبَةٍ مِمَّا ثَلَاثَةٌ أُخْرَى يَسْأَلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُسْتَنْكَرًا: «فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتًا؟» (٢).

آثار خطيرة:

هكذا كان يتم تهيئة الإمامة البديلة، أما هؤلاء فلم يتلقوا شيئاً من

ذلك، لذا فقد أفرز تصدي هؤلاء غير المؤهلين عدة آثار خطيرة:

١- تشوّه صورة الإسلام نفسه، لأن كثيراً من الأمم والشعوب

دخلت الإسلام بعد رسول الله ﷺ، فهي لم تأخذه من

(١) نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبدج ٢ ٥٧ ١

(٢) نهج البلاغة: شرح الشيخ محمد عبدج ٢ ٧١ ١٧٢١.

مصدره، وإنما نقل لها عبر كلام وسلوك أصحابه، ولما كان هؤلاء غير مؤهلين لتمثيل الإسلام بصورته النقية الكاملة ولم يعرف المسلمون الجدد غير هذه الصورة المعروضة أمامهم فتبنّوها على أنها الإسلام الحقيقي، وتزايد هذا البعد عن الإسلام بمرور الزمن، حتى صرت ترى أقواماً لا تفقه من الإسلام شيئاً غير الاسم وبعض الشكليات.

٢- تجرّي أعداء الإسلام خصوصاً اليهود عليه، وما كانوا يستطيعون أن يظهروا شيئاً منه في عهد رسول الله ﷺ، لعدم وجود ثغرة يمكن أن يدخلوا منها، أما وقد تصدّى لهذا الموقع العظيم ناس غير مؤهلين لهذا الموقع، ويمكن التغلب عليهم وإحراجهم، فمن السهولة إذن هزّ ثقة المسلمين بدينهم بتكرار الفشل من قادتهم، وبالنتيجة تخليهم عن هذا الدين، فلم يكن من الغريب حصول هذه الهجمة العنيفة من الامتحانات العسيرة والمتنوعة التي أخرج بها اليهود الخليفة الأول والثاني وتزعزعت ثقة المسلمين وشعروا بالإحباط، وكادوا يرتدون لولا وجود أمير المؤمنين عليه السلام بالمرصاد، الذي كان يجيبهم على كل أسئلتهم

ويردّ كيدهم إلى نحورهم^(١).

٣- انفتاح باب الطمع بهذا المنصب الشريف لكل محبي
الرئاسات والجاه واتباع الهوى، بعد أن أصبح نيّله ليس
بالاستحقاق وفق معايير الرسالة، وإنما هو لمن غلب وقهر
ولو بالسيف، حتى أصبح مستساغاً أن يولي معاوية ابنه يزيد
المعروف بالفسق والفجور على رقاب المسلمين.

النتيجة الثانية: فتح باب الاجتهاد مقابل النص:

أي الحكم والتشريع بالأراء الشخصية خلافاً للنص الإلهي الحكيم،
وهو يعني أن الإنسان ينصب نفسه مشرعاً وإلهاً يطاع في مقابل ألوهية الله
تبارك وتعالى الذي هو وحده له حق التشريع والحاكمة، وهو ما رفضه الله
تبارك وتعالى رفضاً قاطعاً، وجعل كل حكم وتشريع ليس مستنداً إلى
الشريعة المقدسة جاهلية، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، وفي آية أخرى ﴿الظَّالِمُونَ﴾، وفي ثلاثة
﴿الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧)، وكان من شروط الإيمان الكامل:
التسليم والإذعان لحكم الله تعالى ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمَوكَ
فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا

تَسْلِيمًا ﴿ النساء: ٦٥ ﴾، لكن القوم فتحوا باب الاجتهاد واسعاً، ولم يكثرثوا كثيراً للنص الشرعي لعدة أسباب:

١- جهلهم وعدم اطلاعهم الكامل على أحكام الشريعة، فراحوا يستنبطون من أنفسهم ما يسدّ نقصهم.

٢- لأجل المحافظة على الأغراض والمصالح التي أرادوها فلا بد من تعطيل النصوص التي تتعارض مع المنهج الذي اختطوه، وتبرير الأفعال المخالفة بصراحة لحكم الله تبارك وتعالى.

٣- تغييب الممثل الحقيقي واللسان الناطق بالشريعة.

وقد عطل هذا الاجتهاد الكثير من التشريعات التي كانت مصدر خير للأمة، ومنها الزواج المؤقت الذي قال عنه أمير المؤمنين عليه السلام: «لولا نهي فلان عن المتعة ما زنى إلا شقي»^(١)، وبالمقابل برّر هذا الاجتهاد أشنع المنكرات، فمثل مالك بن نويرة^(٢) الذي شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة

(١) الكافي ٤٤٨٥

(٢) مالك بن نويرة الحنفي اليربوعي من أرادف الملوك ومن شجعان عصره وفصحائهم وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن خلّص أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، انتظر بقومه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن يتبين موقف أمير المؤمنين عليه السلام فأرسل أبو بكر إليهم خالد بن الوليد فغدر بهم وقت الصلاة وأمر بقتل مالك حين رأى جمال امرأته.

يقتل، ويدخل خالد بزوجه في نفس الليلة، ويأتي جواب الخلافة بيرود: تأوّل خالد فأخطأ^(١). ويخرجون لقتال إمام زمانهم بكل المقاييس التي عندهم في معارك طاحنة في الجمل^(٢) وصفين^(٣)، وكله اجتهاد يؤجرون عليه وإن أخطأوا فلهم أجر واحد.

وقد تأصل هذا الاجتهاد فيما بعد وتعمق، ووضعوا له أصولاً وقوانين، وأصبحت مذاهب في مقابل مذهب الحق.

النتيجة الثالثة: عرقلة تربية الأمة وتكاملها:

فقد شاءت الإرادة الإلهية أن تنفذ البشرية بهذه الرسالة المباركة من حضيض الجاهلية النكدة إلى سمو التوحيد وطهارة الإيمان وسعادة الدارين، وقد قدر لهذه المسيرة أن تتكامل لتنشأ أمة متكاملة على يد رسول الله ﷺ والأئمة المعصومين من آله، لكن إبعاد الأئمة عليهم السلام عن موقع قيادة المجتمع أدى إلى عرقلة هذه المسيرة وبطئها من عدة جهات:

١- إن من العناصر المهمة في التربية هو القدوة والأسوة الحسنة على تعبير القرآن، لأنه يمثل التطبيق للأفكار التربوية، فإذا

(١) راجع كتاب السقيفة للشيخ المظفر: ٢٦

(٢) تأريخ الطبري المجلد الثالث الجزء الخامس.

(٣) نفس المصدر.

غاب القدوة أو كان القدوة منحرفاً فلا ينفع الكلام مهما
كثر، ويبقى مجرد حبر على ورق، والقوم لم يكونوا يمثلون
قدوة حسنة، ولم يستطيعوا عكس صورة نقية للسلوك
الإسلامي، بل إنه على مرور الأيام كان النموذج المعروض
مناقضاً تماماً لتعاليم الإسلام، فكيف نتوقع منه أن يربي الأمة
ويقودها نحو التكامل؟ ففي حين يقرأ المسلم في أخلاق
الإسلام (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) يجد في
التعامل تفضيل العرب على غيرهم الذين يسمونهم الموالي،
ويعتبرونهم مواطنين من الدرجة الثانية، وبينما يقرأ في
القرآن ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾
(الشورى: ٢٣) يجد الخلافة تتبع أهل بيت النبي ﷺ تحت
كل حجر ومدبر قتلاً وتشريداً وسجناً، وبينما يقرأ حرمة
شرب الخمر في القرآن يجد حاكم المسلمين يشربه على
منابر المسلمين ويتقيأه في محرابهم.

-٢-

فرص الانحراف الكثيرة التي توفرت للناس في ظل الخلافة
المنحرفة، والنفس بطبيعتها ميالة للشهوات مع غياب الرادع
الذي يحصن الأمة من الانحراف وهم الذين عناهم الله
تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿١٠٤﴾ (آل عمران: ١٠٤) وقد بدأت هذه النفوس الأمارة بالسوء تظهر في أيام الخلافة الأولى في وقت مبكر، وبدأت الدنيا تنمو في قلوبهم، وأصبحت هذه الامتيازات والمصالح واقعا ثابتا لا يرضون بتغييره، بحيث أن عبد الرحمن بن عوف الذي جعل حكما في أمر تعيين الخليفة من بين الستة أهل الشورى يشترط على علي عليه السلام أن يبايعه بشرط أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الشيخين^(١)، فما هي سيرة الشيخين التي يضمها عبد الرحمن إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؟ إنها هذه الامتيازات الطبقية وهذه الدنيا المحضة التي وفرتها لهم الخلافة الأولى، بحيث أن عبد الرحمن^(٢) هذا وأمثاله وزيد

(١) بحار الأنوار: ٣٩٩٣١

(٢) في الطبقات الكبرى: (إن عبد الرحمن بن عوف توفي، وكان فيما ترك ذهباً قطع بالفؤوس حتى مجلت - أي ثخن جلدّها وظهر فيها ما يشبه البشر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة - أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة، فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً). الطبقات الكبرى: ٣ / ١٣٦، ونحوه أسد الغابة: ٣ / ٤٨٠ / ٣٣٧٠، ونحوه كذلك

البداية والنهاية: ١٦٤ / ٧

بن ثابت^(١) وغيره تركوا من الذهب ما يكسر بالفؤوس — حسب ما ينقل التاريخ — ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام ليوافق على هذا الشرط فيكون منه إمضاءً واعترافاً بهذه السيرة، لأن هذه السيرة إن كانت موافقة للكتاب والسنة فلا داعي لذكرها، وإن كانت مخالفة فارم بها عرض الجدار، فما الوجه لضمها إلى أصلي التشريع.

٣- الصورة المشوهة للشريعة التي كانت معروضة للأمة من خلال العلماء والرواة المتزلفين للخلفاء والطامعين بما في أيديهم، فكيف نتوقع من شخص لم يشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يطلع على مواقف علي عليه السلام مباشرة أن يوالي علياً ويتبعه، وهو يسمع صحابياً يروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الآية الشريفة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾

(١) قال المسعودي : (خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف

من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار). مروج الذهب: ٨ ٤٣٤ الغدير: ٨ ٢٨٤

(البقرة: ٢٠٤-٢٠٥) نزلت في علي بن أبي طالب^(١).

فلا نتوقع من أغلب المسلمين في الأرض إلا أن يحملوا هذه الصورة المشوهة للإسلام، لأنهم لم يسمعوا غيرها، ولم يشاهدوا غيرها، فكان طبيعياً أن يعتقدوا جازمين أن هذا هو الإسلام.

ومن هنا اقتضت الحكمة الإلهية أن تغيب الإمام الثاني عشر^{عليه السلام} هذه المدة الطويلة إلى أن يأذن الله تعالى له بالظهور، كل ذلك لتستمر تربية الأمة مدة أطول، ولتمر بتجارب وابتلاءات وتمحيصات أكثر، حتى تصل إلى مستوى النضج والكمال المطلوب الذي يؤهلها لمواصلة مسيرة الكمال مع الإمام المهدي^{عليه السلام}، بينما لو قدر لهذه الأمة أن تتربى في أحضان الأئمة المعصومين^{عليهم السلام} لوصلت إلى درجة الكمال قبل هذا التاريخ بكثير.

النتيجة الرابعة: تمزق الأمة وتشتتها:

(١) (أعطى معاوية سمرة بن جندب من بيت المال أربعمئة ألف درهم على أن يخطب في أهل الشام بأن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُعْجَبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥] إنها نزلت في علي بن أبي طالب

^{عليه السلام}). ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ٧٣ / ٤

وتفرقتها شيعاً وأحزاباً ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٢٣)، وهذه نتيجة طبيعية للابتعاد عن الإمامة الحقيقية، لأن سر تشريع الإمامة هو تحصين الأمة من التمزق والانحراف، كما قالت الزهراء عليها السلام في خطبتها الشهيرة بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وآله: «وَجَعَلَ إِمَامَتَنَا نِزَامًا لِلْمَلَّةِ»^(١) أي تنتظم بها أمورهم وتستقر، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣) ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، وحبل الله الممدود من السماء إلى الأرض هما الثقلان كتاب الله وعترته رسوله صلى الله عليه وآله — كما بينت في شكوى القرآن^(٢) — مضافاً إلى أن هذا الموقع بعد أن خرج عن مستقره وأبعد عنه أهله أصبح مطمعاً لكل حالم به، وشهوة التسلط أقوى الشهوات، وفيها استجابة للأناية واستكبار النفس، فمن الطبيعي أيضاً أن تكثر الصراعات حول هذا المنصب، وتداس في خضم هذا الصراع كل القيم والأخلاق.

وتكفي وقفة تأمل واستطلاع بسيط للتأريخ لنقرأ بكل أسف وألم يفتت القلوب المآسي التي جرّها التنازع على السلطان، والخسائر الفادحة في الأنفس والأعراض والأموال التي هدرت في هذا الصراع، فمن الذي

(١) البحار ج ٦ باب ٢٣ ١٥ ٣

(٢) أنظر القبس بعنوان: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) في

يتحمل هذه المسؤولية؟ ومن الذي فتح هذا الباب على المسلمين؟ وماذا يجني من يحدث هذا الفتق في أمة الإسلام؟

وخير معبر عن هذه الآلام وهذه الخسائر أحد الأدعية الواردة في لعن أعداء آل محمد ﷺ والبراءة منهم إلى أن يقول: «اللهم العنهم بعدد كل منكر آتوه، وحق أخفوه، ومنبر علوه، ومؤمن أرجوه، ومنافق ولّوه، وولي آذوه، وطريد آووه، وصادق طردوه، وكافر نصره، وإمام قهره، وفرض غيره، وأثر أنكروه، وشر آثروه، ودم أراقوه، وخير بدلوه، وكفر نصبوه، وإرث غصبوه، وفيء اقتطعوه، وسحت أكلوه، وخمس استحلوه، وباطل أسسوه، وجور بسطوه، ونفاق أسروه، وغدر أضمره، وظلم نشره، ووعد أخلفوه، وأمان خانوه، وعهد نقضوه، وحلال حرموه، وحرام أحلوه، وبطن فتنوه، وجنين أسقطوه، وضلع دقوه، وصك مزقوه، وشمل بددوه، وعزيز أذلوه، وذليل أعزوه، وحق منعه، وكذب دلسوه، وحكم قلبوه، اللهم العنهم بكل آية حرفوها، وفريضة تركوها، وسنة غيروها، ورسوم منعوها، وأحكام عطلوها، وبيعة نكثوها، ودعوة أبطلوها، وبينة أنكروها، وحيلة أحدثوها، وخيانة أوردوها، وعقبة ارتقوها، وشهادت كتموها، ووصية صنعوها»^(١).

ولو شئنا لذكرنا أمثلة وشواهد على كل فقرة، لكنها مما لا تخفى

على المطلع على التأريخ، فأى قلب لا يذوب أسيَّ على ما سببه ذلك التضييع للحق الصريح؟!.

النتيجة الخامسة: عزل الدين عن إدارة الحياة بكل أبعادها وتفصيلها: واقتصاره على الطقوس التعبدية والشؤون الفردية فقط، فإن القوم وإن استطاعوا بالترغيب والترهيب أن يسلبوا السلطة الدنيوية من الإمام عليه السلام، إلا إنهم لا يستطيعون بأي حال من الأحوال أن يسلبوا مكانته من القلوب وهيبته في النفوس، ورجوع الناس إليه في شؤونهم الدينية، هذا الانفصال الذي عبر عنه هارون الرشيد — كما يسمونه — لولده المأمون حينما استغرب من تكريمه للإمام الكاظم عليه السلام بما لا نظير له، فقال: (ويلك، هذا إمام القلوب وأنا إمام الأبدان) (١)، والإمام وإن سكنت عن المطالبة بحقه في السلطة الدنيوية من أجل حفظ الإسلام وكيان المسلمين، إلا أنه لا يمكنه بأي حال من الأحوال التنازل لهم عن الإمامة الدينية أو الاعتراف بهم وإمضاؤهم كممثلين لهذه السلطة، فإن في ذلك خيانة لله ولرسوله وللإسلام، على أن هذا الحق لا يتصور التنازل عنه، فإنه ليس امتيازاً أو موقِعاً حتى يتخلى عنه، بل هو علم لدني بالمعارف الإلهية وما يرتبط بصلاح العباد، وقدرة وقابلية على تلبية احتياجات الأمة، فكل من

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر: القسم الثاني من ٣٩٠

كان قادراً على ذلك ووجدت الأمة حاجتها وآمالها وطموحاتها عنده أصبح إماماً، وهكذا كان علي عليه السلام فما سمعنا انه احتاج إلى أحد في شيء، بل على العكس كانوا يرجعون إليهم في مسائلهم ومشاكلهم وقراراتهم، حتى اشتهر قول الثاني: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن) ^(١)، ولذا استدل بعضهم على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام باحتياج الناس إليه واستغنائه عن الناس ^(٢).

وهذا الفصل بين السلطتين ترسخ وتعمق وانعكس على الدين نفسه، فأصبح مرتكزاً في الأذهان أن إدارة شؤون الحياة ليس من شؤون الإمامة الدينية، وأن دورها يقتصر على العبادات وبعض الأحكام الشخصية، والتقوا بذلك مع نظرة الجاهلية: (ما لله الله وما لقيصر لقيصر)، وهذا هو الشرك بعينه، فإن الملك كله لله وحده والحكم كله لله وحده، وما من واقعة إلا والله فيها حكم، أترى أن الشريعة التي لم تغفل عن تنظيم أبسط التصرفات الحياتية، كالتخلي والنوم والاكل والجماع ووضعت لها أحكاماً وأداباً، فهل تغفل عن وضع أنظمة وقوانين تنظم حياة المجتمع من جميع

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر: القسم الأول من ٤ ٠ ٣

(٢) نسب الاستدلال إلى الخليل الفراهيدي رحمته الله وروي عن الحارث بن المغيرة قال:

(قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بأي شيء يعرف الإمام؟ قال بالسكينة والوقار،... وتعرفه بالحلال والحرام، وبحاجة الناس إليه، ولا يحتاج إلى أحد) (بحار الأنوار: ٢٥ ١٥٦)

الجهات؟ وهذه حقيقة دامغة لا تقبل الشك، إلا أنهم لا يدعون لها لعدة أمور:

- ١- إن الشريعة لا تنسجم مع أهوائهم وأنانيتهم وحبهم للاستئثار بالفيء وسائر الامتيازات وتتعامل مع الجميع على حد سواء.
- ٢- إن تحكيم الشريعة فيه إظهار لجهلهم وقصورهم وتقصيرهم، وهو ما تأباه نفوسهم الأمارة بالسوء.
- ٣- إن ذلك أيضاً يعني احتياجهم للإمامة الدينية، وبالتالي يعني تفوق أولئك عليهم واستحقاقهم لهذا الموقع بدلاً عنهم.

النتيجة السادسة: حدوث الانفصال بين الأمة والخلافة:

لأن الأمر لم يعد في نظر المتصدين أمر إصلاح وهداية وتكميل النفوس ونيل رضا الله تبارك وتعالى حتى تتعلق بهم الأمة وتهفو إليهم القلوب، بل زعامة وملك ومصالح واستئثار واستعلاء، وقد عبر عنه القوم من أول يوم وهم بعد في السقيفة فكان لسانهم: إنما السلطان سلطان قريش فلا ينازعنا فيه أحد^(١)، وكانت المسألة أوضح بالنسبة للأقوام الأخرى التي دخلت الإسلام، وقد أشعروهم بأن الخلافة ملك للعرب، فإذا كان ملكاً عضواً وهم المستفيدون منه فما الذي يشد سائر قطاعات الأمة إليهم؟

(١) سيرة الأئمة: القسم الأول، السقيفة.

وما الذي يحثهم على الدفاع عنهم؟ وما هي العلة التي تربطهم بهم؟ بل على العكس سادت روح الكراهية والحقد والانتقام كما حصل لأبي لؤلؤة الفارسي غلام المغيرة بن شعبة الذي سأم من كثرة التعيير لقومه الفرس والاستهزاء بهم، فثار لعنصريته ولعصبيته الجاهلية^(١).

بالمقابل كان هناك علي بن أبي طالب (عليه السلام):

وبالمقابل كان هناك علي (عليه السلام) وبنوه الذين ملكوا القلوب، فاستجاب الله تعالى بهم دعوة جدهم إبراهيم ﴿فَجَعَلَ أَفئدةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^(٢) والذي لم تستطع الخلافة بكل جبروتها أن تنتزعه منهم، وقضية هشام بن عبد الملك واضحة في أذهانكم عندما عجز عن الوصول إلى الحجر لآزدحام الناس، فتتحى إلى زاوية في البيت الحرام، وما أن قدم الإمام السجاد (عليه السلام) حتى انفرج عنه الناس سماطين، فمشى بكل وقار وهيبة حتى وصل إلى الحجر الأسود، وهشام ينظر^(٣).

(١) تاريخ الطبري المجلد الثالث الجزء الخامس.

(٢) إبراهيم: ٣٧

(٣) رواها السبكي في طبقات الشافعية أن هشام بن عبد الملك حج في بعض السنين فطاف حول البيت وحاول أن يلمس الحجر الأسود فلم يجد لذلك سبيلاً من كثرة الزحام.. وفي ما هو ينظر إلى الناس إذ أقبل الإمام زين العابدين وكان من أحسن الناس

وكان أمير المؤمنين عليه السلام رغم تواضعه بين أصحابه حتى كأنه أحدهم إلا أن له هيبة عظيمة في نفوسهم كما وصفه ضرار بن ضمرة لمعاوية (١).

وذاب أصحابهم في حبهم قربة إلى الله تعالى ووفاء لجدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وعرفاناً لحقهم عليهم، وتحملوا في سبيل ذلك ما تقشعر منه الأبدان، فهذا ميثم بن يحيى التمار تقطع يداه ورجلاه ويصلب على جذع نخلة، فيطلب من الناس الاجتماع حتى يحدثهم بفضائل أمير المؤمنين عليه السلام،

وجهاً وأطيبهم أرباباً.. فانفرج له الناس عنه ووقفوا له إجلالاً وتعظيماً حتى إذا استلم الحجر وقبله والناس وقفٌ ينظرون إليه وكأنما على رؤوسهم الطير فلما مضى عنه عادوا إلى طوافهم، هذا وهشام بن عبد الملك ومن معه من أهل الشام يرون كل ذلك ونفس هشام يعبث فيها الحقد والحسد، وفي هذه الحادثة ارتجل الشاعر الفرزدق أبياته المشهورة والتي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته هذا ابن خير عاد الله كلهم
والبيت يعرفه والحل والحرم هذا التقى النقي الطاهر العلم

(١) نقل الرواة عن ضرار بن ضمرة أنه دخل على معاوية يوماً فقال له يا ضرار صف لي علياً، فقال له: اعفني يا معاوية، فقال له: لا أعفك، فقال له ضرار: أما إذا كان ولا بد من ذلك، فقد كان والله بعيد المدى شديد القوى... إلى أن قال... ونحن والله مع قربه منا ودنوه إلينا لا نكلمه هيبة له ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا...

فلم يمهلہ الفسقة حتى قطعوا لسانه^(١)، وهذا حجر بن عدلي يؤخذ مقيداً إلى الشام ويحفر له القبر ويفرش له النطع ويؤمر بسب أمير المؤمنين وإلا فالقتل ومعه ابنه، فيختار ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، ويقدم ابنه ليحتسبه عند الله تبارك وتعالى ولئلا يعظم على الابن قتل أبيه فيتراجع، ثم قدم فقتل

(١) إن عبيد الله بن زياد قال لميثم التمار بعد أن قبض عليه: تبرأ من علي بن أبي طالب، فقال له: فإن أنا لم افعل؟ قال: إذن والله لأقتلك، قال: لقد أخبرني مولاي أنك ستقتلني مع تسعة آخر علي باب عمرو بن حريث، قال ابن زياد: لنخالفنه كي يظهر كذبه، قال ميثم: كيف تخالفه، فوالله ما أخبر إلا عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله تعالى، فكيف تخالف هؤلاء؟ ولقد عرفت الموضع الذي أصلب فيه وأين هو من الكوفة وأنا أول خلق الله ألجم في الإسلام، فلما رفع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث، قال عمرو: قد كان والله يقول إني مجاورك، فأمر جاريتته بكنس تحت خشبته ورشه وتجميره، فجعل ميثم يحدث بفصائل أهل البيت عليهم السلام ومثالب بني أمية وما سيصيبهم من القتل والانقراض، فقيل لابن زياد قد فضحك هذا العبد، فقال: ألجموه، فألجموه كي لا يتكلم فجاءه في اليوم الثالث لعين بيده حربتين وهو يقول: أما والله لقد كنت ما علمتك إلا قوأمًا صوأمًا، ثم طعنه في خاصرته فأجافه (أي حصل جوف في خاصرته من الطعنة) ثم انبعث منخراه دمًا في آخر النهار فحضب لحيته بالدماء واستشهد قبل قدوم الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق بعشرة أيام.

١

صابراً محتسباً^(١).

وهذا عمار بن ياسر يقاتل في صفين على كبر سنه ويقول: (والله لو ضربونا بأسيافهم حتى أبلغونا سعفات هجر لعلمنا أننا على الحق وأنهم على الباطل)^(٢).

٢

وأصحاب الحسين عليه السلام، وما أدراك ما أصحاب الحسين عليه السلام، الذين لم ير لهم نظير في الولاء والصدق والإخلاص والتضحية، يقدم أحدهم على الموت وهو مبتسم، فيقال له: ما عهدناك هازلاً قبل اليوم؛ قال: وكيف لا أبتسم وما بيني وبين معانقة الحور العين إلا أن يميل عليّ هؤلاء بأسيافهم فالتحق بالأحبة محمد وصحبه^(٣).

٣

النتيجة السابعة: تأخر ركب الحضارة الإنسانية.

بحيث احتجنا إلى أربعة عشر قرناً لكي نصنع الطائرة والكومبيوتر

(١) حجر بن عدي الكندي الكوفي من أصحاب أمير المؤمنين ومن الإبدال كان أميراً على بني كنده من قبل أمير المؤمنين عليه السلام في معركة صفين وكان أمير الجيش يوم النهروان، وقد استشهد حجر وجمع من أصحابه بسعاية زياد بن أبيه وبحكم معاوية بن أبي سفيان سنة إحدى وخمسين للهجرة.

(٢) تقدمت ترجمته وأسرته، سيرة الأئمة: القسم الأطول ٧٤ ٤

(٣) برير بن خضير الهمداني كان زاهداً عابداً سيد القراء ومن أشرف الكوفة. منتهى الآمال ج ٨ ليلة العاشر من محرم. ونفس الموقف لحبيب بن مظاهر رحمة الله عليه.

ونغزو الفضاء، وكان يمكن لهذه الأمور وغيرها مما لم يصل إليه العقل الإنساني إلى الآن أن تتحقق قبل مدة طويلة، لأن اليد الإلهية واضحة التأثير في قيادة ركب الحضارة البشرية بفضل ما بثه الأنبياء والأئمة عليهم السلام من علوم، أو من خلال الإلهام والإيحاء، ولولا الرعاية الإلهية لما استطاع الإنسان أن يهتدي إلى أبسط الأمور، حتى دفن موتاه في التراب لا يعرفه، حتى بعث الله له غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سواة أخيه^(١).

وإن القرآن الكريم ليضم أسرار ومفاتيح العلوم كلها فيه ﴿تَبَيَّنَّا لَكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، فيشير إلى غزو الفضاء بالوسائل العلمية: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَتَنَفَّذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفَذُوا لَا تَتَنَفَّذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣)، وهو سلطان العلم والتكنولوجيا، كل هذه الأسرار ومفاتيح العلوم كانت عند أمير المؤمنين عليه السلام علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله: «علمني رسول الله صلى الله عليه وآله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب من العلم»^(٢).

٢

وإن شئت الاطلاع على ما كان يمكن أن يقدمه علي وبنوه عليهم السلام

(١) إشارة إلى قصة ابني آدم عليهم السلام هابيل وقابيل، وذلك عندما قتل قابيل هابيل ولم يكن يعرف عملية الدفن لولا أن بعث الله غراباً يبحث في الأرض فعرف قابيل ذلك، في

الآيات من سورة المائدة: ٢٧ - ٣١

(٢) منتهى الآمال ج ١ في علم أمير المؤمنين عليه السلام.

ليقدموا ركب الحضارة الإنسانية وليوفروا لها السعادة والحياة الطيبة فراجع عدة كتب ألفت في هذا المجال، ولم يكن يحتاج إلى تطبيق معادلات وقوانين احتمالية أو يخوض تجارب طويلة حتى يصل الى الحقيقة، بل كانت الحقائق العلمية كلها حاضرة في ذهنه، يراها بالبصيرة والوجدان رأي العين، فحفر الكثير من الآبار والعيون وأوقفها للمسلمين في وقت كان الآخرون يعجزون عن التعرف على مواقع وجود الماء، فأين علم الجيولوجيا من هذه المعرفة الدقيقة بطبقات الأرض وما تحتها من كنوز ومعادن، وكان يقول: (لو شئت لاتخذت لكم من هذا الماء نوراً) يقصد توليد الطاقة الكهربائية من شلالات الماء، وغيرها الكثير في مختلف حقول العلم والمعرفة، ثم جاء أولاده من بعده لبيثوا ما تسمح به الحال من علوم الكيمياء والرياضيات والفلك والفيزياء والنبات والحيوان وغيرها.

فإن قلت: إذن ما الذي حبسهم عن إعطاء هذه العلوم التي يحملونها إلى البشرية، وهي مسألة لا تتعلق بتسلمهم موقع القيادة والإمامة وعدمها؟.

قلت: إن التقدم المادي مرتبط تماماً بالتكامل الروحي من خلال البناء الصحيح للعقيدة، ولا بد أن يتقدماً معاً، وإن الأول بدون الثاني يصبح وبالاً على البشرية ويقودها نحو الدمار، كالذي نشاهده اليوم ممن يسمون أنفسهم بالقوى العظمى والدول الكبرى، ولما كانت البشرية قد تخلفت

وتدنت في الجانب الثاني وهو العقائدي والأخلاقي فلا يمكن إعطاؤها من الجانب الأول إلا بالمقدار الذي لا يكون خطراً عليها، هكذا اقتضت الإرادة الإلهية أن يلهم الإنسان بعض الأفكار التي طورت حضارة البشر ودلته على اكتشافات وحقائق علمية مهمة في أوقاتها المناسبة، وبالشكل الذي يحفظ توازن المجتمع الإنساني ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)، ولو كانت مستحقة للمزيد بالتزامها بخط الخلافة الإلهية لما بخل عليها الله تبارك وتعالى بالعطاء، فلا يغتر الإنسان ويظن أنه هو الذي يحقق ذلك، بل هو من إلهام الله تبارك وتعالى وإيحائه، وللعلماء والمكتشفين كلمات تدل على ذلك، ولو خلي إلى نفسه لما عرف كيف يتخلص من موته بالدفن حتى علمه الغراب - كما ذكرنا -.

لماذا نحتفل بعيد الغدير؟

هذه بعض النتائج التي أفرزها عدم التزام الأمة بحديث الغدير، وإذا كانت الأمور تعرف بأضدادها كما قالوا، فيمكن أن نعرف سمو المعاني والآثار التي نالها الملتزمون بولاية أمير المؤمنين عليه السلام، فحق لهم أن يحتفلوا بهذا العيد الأغرّ أعظم عيد في الإسلام، سئل الإمام الصادق عليه السلام: هل للمسلمين عيد غير يوم الجمعة والأضحى والفطر؟ قال: نعم، أعظمها حرمة، قال الراوي: وأي عيد هو؟ قال: اليوم الذي نصب فيه رسول

الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: من كنت من مولاة فعلي مولاة^(١). وفي حديث أبي نصر عن الرضا (صلوات الله عليه) قال: (يا ابن أبي نصر، أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين عليه السلام، فإن الله تبارك وتعالى يغفر لكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة ذنوب ستين سنة، ويعتق من النار ضعف ما أعتق في شهر رمضان وليلة القدر وليلة الفطر، ولدرهم فيه بألف درهم لإخوانك العارفين، وأفضل على إخوانك في هذا اليوم، وسرّ فيه كل مؤمن ومؤمنة، والله لو عرف الناس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كل يوم عشر مرات)^(٢).

٢

لنأخذ الدرس في فهم أشكال المرجعية الدينية:

ونحن كما تعودنا في مثل هذه الكلمات لا نستهدف فقط تثبيت العقيدة وترسيخها والدفاع عنها، وإن كان هذا في نفسه نفسياً، إلا أنه مما لا يقل عنه أهمية أخذ الدروس والعبر منه، وهنا تكمن روح العلم والمعرفة، فالعلم بلا عمل وبلا استفادة منه في الحياة لا قيمة له.

ونحن إذا توسعنا في فهم هذا الموضوع فسنطبق هذه التجربة على كل رسالة إصلاحية تعمل على هداية الناس وتكميل نفوسهم كالمرجعية

(١) بحار الأنوار: ١٦٩٣٧

(٢) بحار الأنوار: ١١٩٩٤

الشريفة وهي لها شكلاان:

الأول: المرجعية الفردية التي يقتصر عملها على استنباط الحكم الشرعي من دون العمل على تطبيقه ودفع المجتمع إلى امثاله، والأمر راجع إلى المكلف إن شاء طبق أو لا، ولا تتدخل إلا في حدود الشؤون الفردية وما يبرئ ذم المكلفين كأفراد، وهو عمل ليس بالهين، وقد قاموا بجهود مضية حفظت لنا فقه آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين)، لكن هذا الشكل خارج عن موضوعنا، لانحسار دورها عن الإمامة الاجتماعية أصلاً.

الثاني: المرجعية الاجتماعية التي لا تكتفي بمستوى النظرية، أي مجرد التقنين والتشريع، وإنما تعمل على تهيئة كل الفرص واتخاذ مختلف الأساليب لإقناع الناس بتطبيق الشريعة في كل تفاصيل حياتهم، وإذا لم تنفع وسيلة جربت أخرى، وقد شبهت الأولى بالأمّ التي تهيئ الطعام لولدها المريض وتترك الباقي عليه، إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وقد لا يعرف مصلحته فيموت جوعاً. والثانية تشبه الأمّ التي لا تكتفي بإعداد الطعام، بل تطيبه وتعمل كل المرغبات والمحفزات لولدها كي يأكل ويحفظ حياته ويستعيد عافيته، ولا شك أن الثانية أرحم وأرأف وأكرم وأصبر من الأولى، أو قل إنها أكثر اتصافاً بالأسماء الحسنی التي ورد الحث على التخلّق بها.

المرجعية الحركية هي الأجدر:

وهذه المرجعية الثانية هي الأكثر التصاقاً بالناس وأعمق تأثيراً فيهم والأكثر تعلقاً بهم، وهي الأجدر بتمثيل دور المعصومين عليهم السلام، فلا غرو أن تكون عرضة لطمع المتنافسين، فإذا تصدى لها غير المؤهل لها وصنع (سقيفة) ثانية لإبعاد مستحقيها، ترتبت كل أو بعض الآثار التي ذكرناها، ولا بدّ أن نستفيد من تلك التجربة لنكون واعين وحذرين من تكرارها.

وقد ذكرنا في محاضرتين^(١) بمناسبة عيد الغدير عام ١٤٢١ — وطبعت كمقدمة لكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ كاشف الغطاء — الأشكال الثلاثة التي خطط بها رسول الله صلى الله عليه وآله للخليفة من بعده، وكيفية تاسي المرجعية به صلى الله عليه وآله في هذا المجال، ومسؤولية الأمة في صيانة هذا الموقع الشريف والتمسك بأهله، فيكون هذا البحث مكماً له، ومما ذكرنا هناك أن لهذا الموقع شروطاً صنفتها إلى ثابتة ومتحركة، والأولى هي التي دأبت على ذكرها الرسائل العملية، أما المتحركة فتتغير تبعاً للظروف الموضوعية التي تعيشها المرجعية.

(١) المحاضرتان ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة : ١٧] قد مرّ

ذكرهما في هذا الجزء من الكتاب.

القبس القرآني - ٤

(واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه) ﴿١﴾ [الأنفال : ٤١]

إخراج الحقوق الشرعية: الوجوب والإشكالات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما هو أهله، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله

الطاهرين.

الشكوى الثانية للإمام (عليه السلام) (١) ما جاء في الرسالة الثانية التي وجهها

الإمام المهدي (عليه السلام) إلى الشيخ المفيد رحمته الله، والمؤرخة غرة شوال سنة

(١) محاضرة أقيمت على حشد كبير من فضلاء وطلبة الحوزة العلمية غصَّ بهم مسجد الرأس الشريف المجاور لمقر أمير المؤمنين عليه السلام في مناسبة دينية بعد ذكرى ولادة أمير المؤمنين عليه السلام في ٣ أربح ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٠ ٢٩ ٢٠٠٢ م.

() بعدما كانت الشكوى الأولى التي هي بمناسبة ولادة أمير المؤمنين عليه السلام والتي دار موضوعها حول صفات المؤمن وصفات الشيعة. وكانت هذه المحاضرات والحشود الحاضرة ترعب النظام الصدامي المقبور (راجع تأريخ تلك الفترة في مقدمة المجلد الأول من موسوعة خطاب المرحلة وكتاب (جهاج واجتهاد).

اثني عشر وأربعمائة^(١)، أي قبل أكثر من ألف عام: (ونحن نعهد إليك أيها الولي المخلص المجاهد فينا الظالمين^(٢))، أيّدك الله بنصره الذي أيّد به السلف من أوليائك الصالحين إنه من اتقى ربّه من إخوانك في الدين وأخرج مما عليه إلى مستحقه كان آمناً من الفتنة المبطلّة ومحنها المظلمة المضلّة، ومن بخل منهم بما أعاده الله من نعمته على من أمره بصلته فإنه يكون خاسراً بذلك لأولاه وآخرتة، ولو أن أشياعنا وفقّهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخّر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعبّلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم، والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل).

أسباب حرمان البشرية من لقاء الحجّة:

() تجدها في كتاب الاحتجاج للطبرسي ٢ ٣٢٤. والذي يظهر من تأريخ التوقيع الثاني أنه وصل إلى الشيخ قبل وفاته بثمانية أشهر تقريباً حيث كانت وفاته في يوم الجمعة لثلاث خلون من شهر رمضان المبارك سنة ١٣ هـ وعمره الشريف ٥٥ لسة أو ٧٧ سنة وقبره اليوم في الرواق الكاظمي. وجاء في طرائف المقالات الجزء الثاني عن الشيخ يحيى ابن بطريق الحلبي (إن الإمام الحجّة عليه السلام) كتب إلى الشيخ المفيد رحمته الله ثلاث كتب في كل سنة كتاباً).

() لم يجاهد بسيف بل دافع الكثير من الشبهات عن مذهب أهل البيت عليهم السلام.

فالإمام (عليه السلام) يبين في هذا المقطع من الرسالة الشريفة أسباب حرمان البشرية وخصوصاً شيعته من طلعه المباركة والطف لقائه السنية، ويخص شيعته بالتأسف لأنهم مستحقون للفوز بلقائه بما يحملون من ولاء ونصرة واعتقاد راسخ بهم (عليه السلام)، إلا إنه يمنعهم من ذلك بعض الموانع، أما غيرهم فهم غير مستحقين أصلاً للتشرف بلقائه، وقد جعل من أهم تلك الأسباب امتناعهم عن أداء الحقوق الشرعية التي فرضها الله تبارك وتعالى في أموالهم وإيصالها إلى مستحقيها.

الأمور المترتبة على عدم دفع الحقوق :

وقد رتب (عليه السلام) على ذلك أمرين :

١- تأخير ظهوره (عليه السلام) وبما يعني استمرار معاناة البشرية من الظلم والاضطهاد والتعسف والانحراف والضلال وكثرة مستحقي النار من البشر.

٢- عدم الأمان من الفتن المضلة؛ لأن رايات ضلال عديدة تخرج قبل ظهور القائم (عليه السلام) وتخلط الأوراق على الناس، فيتيهون ولا يستطيعون التمييز بين راية الحق وراية الباطل، وقد عبّر أحد أصحاب الأئمة (عليه السلام) عن مخاوفه من مثل تلك الفتنة، وسأل عن كيفية النجاة والإصابة في التمييز بين هذه الدعوات

المختلطة، فقال (ﷺ): (والله إن أمرنا لأبين من الشمس)^(١)،
ومن مقومات هذا الوضوح - بحسب ما أفادته الرسالة الشريفة -
أداء الحقوق الشرعية.

كيف يبخل الناس على الله بما رزقهم؟
كما تشير الرسالة ضمناً إلى أن كل ما بأيدي الناس من أموال إنما هو
شيء رزقهم الله تعالى إياه، ولو شاء منعهم، فكيف يبخلون عليه تبارك
وتعالى بطاعته وتنفيذ أمره في إنفاق البعض اليسير مما رزقهم^(٢) لقضاء

() إلا إن هذه الأضاليل تهرر على الذين لم يعدوا أنفسهم الإعداد المطلوب لتحمل أمر
الإمام (ﷺ) (إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد
امتنح الله قلبه للإيمان)، أما المؤمن المخلص لله تعالى فسيكون أمر الإمام (ﷺ) له
أوضح من الشمس، وشواهد ذلك في واقعنا المعاصر كثيرة فكم ممن لهم مكانة علمية
مرموقة تخفى عليهم أوضح الواضحات وتمرر عليهم الأباطيل، وكم من البسطاء ذوي
القلوب النقية تعرف الحقيقة وتهتدي لها ببسر والمعيار في ذلك كله التقوى جاء في نهج
البلاغة (واعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم).

() قال تعالى [قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ] (إبراهيم: ٣١) و [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ
الظَّالِمُونَ] (البقرة ٢٥٤) و (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ) (البقرة ٣٣)

حوائج المحتاجين الذين ابتلاهم الله بالمنع والفقر كما ابتلى هؤلاء بالعطاء والغنى [لِيَلْبُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا] (هود: ٧).

لماذا نركز حديثنا على الخمس :

وتندرج تحت عنوان الحقوق الشرعية مصاديق عديدة كالزكاة والخمس والكفارات والنذور وردود المظالم، أما الإنفاق المستحب فمجالاته واسعة جداً، ونحن نركّز في حديثنا هذا عن الخمس لأمرين:

١- إنه من أهم الفرائض المالية، ويشكل اليوم عنصراً مهماً لحفظ التوازن الاقتصادي في المجتمع بعد أن قلّ دور الزكاة عمّا كانت عليه في صدر الإسلام بسبب تغيير نمط الحياة الاقتصادية، فبعد أن كانت عمدة واردات الناس مستندة إلى الزراعة وتربية الحيوانات التي هي موارد وجوب الزكاة أصبحت اليوم مستندة إلى التجارة والصناعة والحرف مما يخرجها بحسب المشهور- عن دائرة وجوب الزكاة، فيشملها الخمس، فيكون تشريعه إلى جنب تشريع الزكاة دليلاً على خلود هذه الرسالة وصلاحيتها لتنظيم حياة البشرية إلى النهاية حيث خطط الشارع المقدس لكل تغيرات الحياة.

٢- توالي هجمات التشكيك في وجوب الخمس وصدّ الناس عن أداء هذه الفريضة بأساليب مختلفة تأتي الإشارة إليها بإذن الله تعالى.

مانع الخمس يستحق النار:

والخمس فريضة واجبة كوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج في الموارد التي ذكرها الفقهاء (قده) استناداً إلى القرآن الكريم وسنة النبي العظيم (صلى الله تعالى عليه وعلى وآله الطاهرين) الذين هم عدل الكتاب^(١)، فمن أخل بشيء منها فقد ارتكب كبيرة يستحق عليها [ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون] (التحریم: ٦)، [يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ] (الحج: ٢)، وقد عدت بعض الروايات الشريفة بصراحة حبس الحقوق الشرعية من غير عسر من الكبائر، وقرنها الإمام الرضا (عليه السلام)^(٢) إلى الزنا وشرب الخمر واللواط والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم والربا، وكذا في حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام)^(٣).

ما هو الدليل على وجوب الخمس؟

وقد نص القرآن على وجوب الخمس بقوله تعالى: [وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ

(١) راجع كتاب (شكوى القرآن) .

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه، باب ٤٦ ح ٣٣

(٣) نفس المصدح ٣٣٦

مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَأَبْنِ السَّبِيلِ [الأنفال: ٤١]، ويراد بالغنيمة مطلق ما يستفيده الإنسان، ولا تختص بغنائم الحرب، قاله الراغب^(١)، وأكدته موثقة سماعة، قال سألت أبا الحسن (عليه السلام) عن الخمس، فقال: (في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير)^(٢)، وغيرها.

وقد أجمع علماء الفريقين على أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يعمل بها، فيخصّ قريبه من بني هاشم بالخمسة حتى وفاته (صلى الله عليه وآله)، ثم منعه القوم على مستحقه من آل الرسول (صلى الله عليه وآله) وجعلوهم كغيرهم (راجع الكشاف في تفسير هذه الآية ومسند أحمد وغيرها من الصحاح)^(٣).

وقد عبر الأئمة (عليهم السلام) عن لوعتهم لهذه المخالفة الصريحة للكتاب والسنة، فعن أبي جعفر الأحول قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (ما تقول قريش في الخمس؟ قال: قلت: تزعم إنه لها؟ قال: ما أنصفونا والله، لو كان

() المفردات في غريب القرآن مادة (غنم) . حيث يقول: (والغنم بالضم فالسكون، إصابته والظفر به، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم ومن ذلك يظهر، أن المقصود بالغنيمة في اللغة، هو كل ما يكسبه الإنسان ويبرحه من أي طريق كان. بمشقة أو غير مشقة، في حرب أو في سلم، من دون تقييد).

() وسائل الشيعة: كتاب الخمس، أبواب ما يجب فيه الخمس ، باب ٨ ٦.

() النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، ص ٥٠.

مباهلة لتباهلن بنا، ولئن كان مبارزة لتبارزن بنا، ثم يكون هم وعلي
 (سواء) (١).

هل يسقط الأئمة (عليهم السلام) حقهم بسبب الظروف؟

نعم، قد يسقط الأئمة (عليهم السلام) حقهم في فترة ما بسبب الظروف التي
 يمرون بها، كما في رواية يونس بن يعقوب قال: (كنت عند أبي عبد الله
 (عليه السلام) فدخل عليه رجل من القمطين فقال: جعلت فداك، تقع في أيدينا
 الأموال والأرباح وتجارات نعلم أن حقك فيها ثابت، وإننا عن ذلك
 مقصرون؟ فقال أبو عبد الله (عليه السلام): ما أنصفناكم إن كلفناكم ذلك اليوم) (٢)،
 فالسائل كان يعلم بثبوت حق الإمام (عليه السلام) في ماله، لكن الإمام (عليه السلام)
 أكد له أنه قد أسقطه عنه اليوم لا مطلقاً.

لكن بعد ثلاثة أجيال يجد الإمام الجواد (عليه السلام) فرصة مناسبة لبيان
 بعض تشريعات الخمس، فكتب إلى بعض أصحابه: (إن الذي أوجبت في
 سنتي هذه وهذه سنة عشرين ومائتين لمعنى من المعاني، أكره تفسير
 المعنى كله خوفاً من الانتشار، وسأفسر لك بعضه إن شاء الله: إن موالي
 أسأل الله صلاحهم أو بعضهم قصرّوا فيما يجب عليهم، فعلمت ذلك،

() كتاب الخمس ، أبوابا قسمة الخمس ، باب ١ ٤ / ١٥ .

() وسائل الشيعة: كتاب الخمس، أبواب الأنفال وما يختص بالإمام، باب ٤ ٦

فأحبت أن أظهرهم وأزكيهم بما فعلت من أمر الخمس في عامي هذا، قال الله تعالى [خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] (التوبة: ١٠٣-١٠٥) إلى أن قال (عليه السلام): (فأما الغنائم والفوائد فهي واجبة عليهم في كل عام؛ قال الله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...))^(١). ويأمر شيعته في نهاية الكتاب بإيصال الحقوق إلى وكلائه. وحرّموا (عليه السلام) التصرف قبل دفع الحقوق الشرعية، فعن أبي جعفر (عليه السلام): (لا يحل لأحد أن يشتري من الخمس شيئاً حتى يصل إلينا حقنا)^(٢).

وكتب رجل من تجار فارس من موالي الإمام أبي الحسن الرضا (عليه السلام) يسأله الإذن في الخمس، فكان مما قال في جوابه: إن (الخمس عوننا على ديننا وعلى عيالنا وعلى موالينا، فلا تزووه عنا ولا تحرموا أنفسكم دعانا ما قدرتم عليه؛ فإن إخراجهم مفتاح رزقكم وتمحيص ذنوبكم وما تمهدون

() وسائل الشيعة: كتاب الخمس ، أبواب ما يجب فيه الخمس ، باب ٨ ح ٥ .

() أبواب ما يجب فيه الخمس ، باب ١ ع ٤ .

- ١ لأنفسكم ليوم فاقتكم، والمسلم من يفي الله بما عهد إليه^(١)، وسأله جماعة أن يجعلهم في حلٍّ من الخمس، فقال (عليه السلام): (ما أمحل هذا! تمحضونا المودة بألستكم وتزوون عنا حقاً جعله الله لنا وجعلنا له وهو الخمس، لا نجعل لا نجعل لا نجعل لأحد منكم في حل^(٢))، وفي مكاتبة الإمام صاحب العصر (عليه السلام) إلى سفيره محمد بن عثمان العمري (رضي الله عنه): (لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من استحلَّ من مالنا درهماً)^(٣).
- ٣

الوعيد بحق مانع الزكاة يشمل الخمس أيضا :

جميع ما ورد من التهديد والوعيد لتارك الزكاة ينطبق على تارك

الخمس بوجهين:

- ١- إن كليهما فريضتان ماليتان، والغرض منهما واحد، بل إن أمر الخمس أخطر لتعلق حق أهل البيت (عليهم السلام) وذرياتهم فيه بعد أن حرمت عليهم الزكاة، قال الصادق (عليه السلام): (إن الله لا إله إلا هو لما حرّم علينا الصدقة أبدل لنا الخمس، فالصدقة علينا

() وسائل الشيعة: كتاب الخمس، أبواب الأنفال وما يختص بالإمام، باب ٣ ٢.

() نفس الباب، ٧. ٢

() نفس الباب، ٧. ٣

حرام، والخمس لنا فريضة^(١)، وإنما صار الاهتمام بالزكاة في صدر الإسلام لما قلناه من أن طبيعة الحياة الاقتصادية يومئذ كانت مورداً لوجوب الزكاة.

٢- إن كثيراً من موارد ذكر الزكاة أريد بها معناها الأعم، أي مطلق الإنفاق الواجب في سبيل الله تعالى، أي عموم الحقوق الشرعية لا خصوص الزكاة المصطلحة^(٢)، كما قد يعبر عن الزكاة الواجبة بالصدقة^(٣) في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا...﴾ [التوبة: ٦٠]، ومما جاء في مانع الزكاة الشاملة لمانع الخمس بالتقريب المتقدم ما ورد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (ما من عبد منع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب، وهو قول الله عز وجل:

(وسائل الشيعة: كتاب الزكاة ، أبواب المستحقين للزكاة ، باب ٢٩ ٧)

(كما انه قد يعبر عن الصدقة بالزكاة كما عبر الله تعالى عن تصدق أمير المؤمنين

(عليه السلام) بخاتمه بقوله: [إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ

يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ] (المائدة ٥٥).

(قال تعالى: [خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ

سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] [التوبة ١٠٣].

[سَيَطُوقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] [آل عمران: ١٨٠] (يعني ما بخلوا به من الزكاة) (١).

ويتخذ رسول الله (ﷺ) إجراءً في حق مانعي الزكاة بإخراجهم من المسجد، كما ورد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في المسجد إذ قال: قم يا فلان، قم يا فلان، حتى أخرج خمسة نفر، فقال: (اخرجوا من مسجدنا لا تصلوا فيه وأنتم لا تزكون) (٢)، وعن أبي عبد الله (عليه السلام): (من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً) (٣)، وفي وصية النبي (ﷺ) لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي، كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة، وعدّ منهم مانع الزكاة، ثم قال: يا علي، ثمانية لا يقبل الله منهم الصلاة، وعدّ منهم مانع الزكاة، ثم قال: يا علي، من منع قيراطاً من زكاة ماله فليس بمؤمن ولا بمسلم ولا كرامة، يا علي، تارك الزكاة يسأل الله الرجعة إلى الدنيا، وذلك قوله عز وجل: [حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني] (٤) (المؤمنون: ٩٩) (٥).

() وسائل الشيعة: كتاب الزكاة ، أبواب ما تجب فيه الزكاة ، باب ٣ ٣ .

() نفس البايح ٧ . ٢

() وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة ، باب ٤ ٥ .

() وتفهم ذلك من خلال قوله تعالى [وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ]

لعدم دفع الخمس آثاراً وضعية:

وتكون المشكلة أعظم عندما نعلم إن لعدم دفع الخمس آثاراً وضعية وشرعية ذكرها الفقهاء (قدّس الله أرواحهم)؛ فإن اللقمة غير المّمّسة تكون حراماً فترك آثاراً سيئة في الذرية التي تتكون منها، والملبس غير المّمّس لا يكون مباحاً فلا تصح الصلاة فيه، والماء إذا لم يكن مباحاً فالوضوء به باطل، وبذلك تتراكم هذه الذنوب والمشاكل على مائع الحقوق الشرعية.

علاج مشكلة عدم دفع الناس للخمس:

ولما كان العلم بالشيء والاعتناع به هي الركيزة الأساسية للاندفاع نحو العمل والتطبيق، وطالما قلنا^(١): إن علاج أي مشكلة يجب أن يتوجه أصلاً إلى علل المشكلة وأسبابها ومناشئها، لا معلولاتها وآثارها الظاهرية

(المنافقون ١٠) إذا تمعنت جيداً في هذه الآية الكريمة تدرك ما للصدقة من أهمية بالغه فأول شيء يأتي على ذهن العبد بعد الموت هو (الصدقة).

(وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ٤ ٧.

(راجع كتاب (شكوى القرآن) فصل : ما هي الدروس المستفادة من طريقة القرآن في إصلاح البشرية.

ونتائجها، فإنه عمل غير حكيم^(١).

فالعلاج يكون على مستويين :

المستوى الأول: عام، بمعنى كيف نحفز الناس على طاعة الله تبارك وتعالى عموماً وليس في الخمس فقط، ونشير فيهم الاستجابة لداعي الله تبارك وتعالى؟ [يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم] (الأنفال:٢)، [يا قومنا أجبوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين] (الأحقاف:٣١-٣٢). وقد فصلنا القول في ذلك في فصل (ما هي الدروس المستفادة من طريقة القرآن في إصلاح البشرية) من كتاب (شكوى

() بعض مناهج علم الأخلاق تركز على جانب المعلولات ولا تعالج العلة أو السبب لهذه الرذائل فمثلاً عندما يتكلم عن رذيلة من الرذائل فإنه يتناولها من جميع الجهات من حيث معنى الرذيلة وذمها في الأخبار وعلاجها إلا أنه لا يتطرق إلى بيان مناشئ هذه الرذيلة في النفس الإنسانية والنوازح التي تؤدي إلى ظهورها وكيفية إزالة هذه العلة والأسباب واجتتاب المرض من أصله (فقد تجد أن سبب الغيبة مثلاً إما الحسد أو الأنانية أو الاستعلاء وكذلك تجد أن الغفلة وراء جميع المعاصي وهكذا) لذا ينبغي عدم الاكتفاء بمعالجة الأعراض الظاهرية للمرض كما أشير إليه بوضوح في كتاب (شكوى القرآن).

القرآن)، وفي محاضرات (فلنرجع إلى الله)^(١)، وخطبة يوم عيد الأضحى للعام الماضي / ١٤٢٢ المنشورة في كتاب (من وحي المناسبات).
 وقلنا هناك: إن من الفروق بين الشريعة الإلهية والقوانين الوضعية أن الشرائع الإلهية تربي الإنسان من الداخل أولاً وتبني ذاته، لذا يندفع إلى التطبيق بلا رقابة من الخارج ولا يحتاج إلى أي ضغط للطاعة والامتثال، بينما القوانين الوضعية تحتاج إلى فرض عقوبات وأجهزة مراقبة وردع، ومع ذلك يحاول الشخص بكل وسيلة التحايل والالتفاف عليها، خذ مثلاً الخمس، فإن المؤمن هو وحده يحاسب نفسه ويخرج ما عليه من حقوق ويأتي بكل سرور ليسلمها إلى الحوزة الشريفة أو يصرفها في مواردها، بينما يتهرب بكل الوسائل من الضرائب التي يفرضها عليه القانون، فهذا هو فرق أساسي بين الإسلام والحضارة المادية.

المحفزات التي تدفع المكلف نحو التطبيق :

وألخص لكم بعض هذه المحفزات التي يستثيرها الدين ليدفع المكلف نحو الاستجابة، مع تطبيقها على ما نحن فيه، وقد قسمتها هناك إلى ثلاث محاور نفسية وعقلية وقلبية باعتبارها مداخل الإنسان المتعددة ومنها:

(١) راجع نور القرآن المجلد الثاني: القبس: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

١- إن نعم الله علينا كثيرة [وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها] (النحل: ١٨)، سواء في أبداننا أو حياتنا والطبيعة التي من حولنا عموماً، ومن شأن كل عاقل أن يرد الجميل بالجميل [هل جزاء الإحسان إلا الإحسان] (الرحمن: ٦٠)، [وأحسن كما أحسن الله إليك] (القصص: ٧٧)، ولما كان الله غنياً عن عباده فيكون رد الجميل إليه بطاعته واستعمال نعمه فيما يرضيه تبارك وتعالى، ومن غير الإنصاف والمروءة أن نعصيه بالنعم التي من بها علينا ونبخل عليه بحقه، عن أبي جعفر (عليه السلام): (أن الله تعالى يبعث يوم القيامة ناساً من قبورهم مشدودة أيديهم إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يتناولوا بها قيد أنملة، معهم ملائكة يعيرونهم تعبيراً شديداً يقولون: هؤلاء الذين منعوا خيراً من خير كثير، هؤلاء الذين أعطاهم الله فمنعوا حق الله في أموالهم) (١).

٢- إن كل واحد منا يحب أن تزيد النعم عليه وهي بيد الله سبحانه المنعم الحقيقي، وقد وعدنا سبحانه [لئن شكرتم لأزيدنكم] (إبراهيم: ٧)، وفي الحديث: (بالشكر تدوم النعم)، ومن أشكال شكر النعمة أن تؤدي حق الله فيها ليزيدها الله تبارك وتعالى، وقال الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث: (واستنزلوا

() وسائل الشيعة: كتاب الزكاة ، أبواب ما تجب فيه الزكاة ، باب ٦ ، ٤

الرزق بالصدقة^(١)، وعموماً فإن طاعة الله تبارك وتعالى سبب لإفاضة البركات: [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ] (الأعراف: ٩٦).

٣- إنه إذا أخبرنا إنسانٌ ثقةٌ بأن حيواناً مفترساً في هذه الجهة فإننا نهرب بلا تردد في الاتجاه المعاكس ونحذر منه ونتخذ الإجراءات الوقائية من الوقوع في الخطر، فإذا أكد هذا الخبر ثقة آخر ازداد استعدادنا لذلك وكنا أكثر حزمًا، وقد أخبرنا مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ومثلهم من الأوصياء والعلماء وكلهم ثقة أنه سيكون هناك يوم قيامة، يثاب فيه المطيع على طاعته، ويعاقب العاصي على عصيانه بنارٍ وقودها الناس والحجارة، أفلا يوجب هذا البيان المؤكد الحذر والابتعاد عن كل ما يورطنا في هذه النار المتأججة ولو احتمالاً؟ وقد وصفها الله تعالى بمشاهد مرعبة، وأخبرنا أن معصية الله سبحانه توقعنا فيها، وأن طاعته تورثنا جنةً عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ] (السجدة: ١٧).

٤- أن نسأل أنفسنا سؤالاً: ماذا يخسر الإنسان لو أطاع الله سبحانه

() وسائل الشيعة: كتاب الزكاة ، أبواب الصدقة ، باب ٣ ح ١

واستقام على الشريعة؟ إنه لا يخسر شيئاً، بل على العكس فإنه يعيش ويتمتع بالحياة كما يفعل البعيد عن الله سبحانه، وفوق ذلك له المكاسب الدنيوية والأخروية التي يحققها له الإيمان بالله سبحانه والسير على شريعته، قال تعالى: [وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ] (النساء: ١٠٤)، وقال تعالى: [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] (الأعراف: ٣٢)، وقد اتبع هذا الأسلوب الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال لأحدهم: (يا هذا إن كان ما تقول أنت - بأنه لا جنة ولا نار ولا حساب - حقاً فنحن وأنتم سواء، فإننا نأكل كما تأكلون ونكح كما تنكحون، وإن كان الأمر كما نقول - وهو كما نقول - هلكتم ونجوناً) (١)، وهو أسلوب لا يستطيع أن يرفضه أي عاقل، وقد جرب الكثير ممن بدأوا بإخراج الخمس من أموالهم أن ثروتهم ازدادت، حتى أن بعضاً من غير الملتزمين بطاعة الله يخمسون من أجل زيادة الثروة، فأين الخسارة إذن؟!.

() قال تعالى: [إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا] (النساء ١٠٤).

٥- أن نلتفت إلى أن الله تعالى مطلع علينا ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وقد جعل على كل واحد منا ملائكة يحصون الأعمال في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، وجعل الشهود على ذلك من أعضائنا التي نمارس بها حياتنا: [حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يضربوا فالتار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين] (فصلت: ٢٠-٢٤)، فإذا التفتنا إلى هذه الحقائق فسنكون دقيقين في تصرفاتنا وسنحسب ألف حساب قبل أن نورط أنفسنا في المعصية ومخالفة الشريعة، ومنها حبس الحقوق الشرعية وعدم إخراجها من المال.

٦- إن الإنسان الذي يمتنع عن إعطاء شيء من نفسه أو ماله لطاعة الله تعالى فإنه سيدفع أكثر منها في معصية الله وهو راغم، وستكون عليه حسرة يوم القيامة: [إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَوْنَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ
يَغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [(الأنفال: ٣٦).

وأنقل لكم الحديث التالي عن الإمام الصادق (عليه السلام) وهو حجة
دامغة في وجه كل من يمتنع عن أداء الحقوق الشرعية، قال
(عليه السلام) في قول الله عز وجل: [كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ
حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ] (البقرة: ١٦٧)، قال (عليه السلام): (هو الرجل يدع ماله
لا يتفقه في طاعة الله عز وجل بخلاً - وقد عرفت البخيل قبل
قليل - ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله أو بمعصية
الله، فإن عمل فيه بطاعة الله رآه في ميزان غيره فراه حسرةً وقد
كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله قواه بذلك المال
حتى عمل به في معصية الله عز وجل) (١).

وقد وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) مثل هذا الرجل بقوله: (إن
أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل جمع مالاً بمعصية الله
فمات فورثه رجل دخل به الجنة) (٢)، وهذا الحديث كافٍ [إنَّ
فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ]
(ق: ٣٧)، [وَتَعْيَهَا أذُنٌ وَاعِيَةٌ] (الحاقة: ١٢)، عن الصادق (عليه السلام)

() وسائل الشيعة: كتاب الزكاة ، أبواب ما تجب فيه ، باب ٥ ٥ .

() نهج البلاغة، باب الحكم، رقم ٤٢٩.

قال: ما من رجل يمنع درهماً في حقه إلا أنفق اثنين في غير حقه، وما من رجل يمنع حقاً في ماله إلا طوّقه الله به حية من نار يوم القيامة^(١)، وعنه (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (من منع حقاً لله عز وجل أنفق في باطل مثليه)^(٢).

٧- إن من يطيع الله سبحانه ويتجنب معصيته يعيش لذة الانتصار على أعدى أعدائه، وهي نفسه التي بين جنبيه الأمانة بالسوء، وكلما كانت شهوة النفس واندفاعها للفعل قوياً كلما كان الترك أشد لذة، وكلما كانت رغبة النفس في الترك قوية كان الفعل أكثر لذة، مثلاً تعرض أمامك امرأة متبرجة قد أظهرت مفاتها أو طالبة جامعية أو زميلة في دائرة تبرعت بإنشاء علاقة عاطفية غير مشروعة معك فتتصر أنت على نفسك الطموحة إلى ذلك فتعيش لذة الانتصار بشكل لا يوصف، وهو ما أشار إليه الحديث: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها لله تعالى أبدله الله نوراً وإيماناً يجد حلاوته في قلبه)، والمال من أقوى ما تتعلق به النفس، قال تعالى: [زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ] (آل

() وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ٦ .١

() نفس الباب ، ٢ .٢

عمران: ١٤)، وقال تعالى: [أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا] (الكهف: ٤٦)، وقال الإمام الصادق (عليه السلام): (ما بلى الله عز وجل العباد بشيء أشد عليهم من إخراج الدرهم)^(١)؛ لذا كانت لذة الانتصار على هذا العدو عظيمة تستحق أن يبذل المال بإزائها بلطف الله تعالى، عن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إذا أراد الله بعبد خيراً بعث إليه ملكاً من خزائن الجنة فيمسح صدره ويسخى نفسه بالزكاة)^(٢).

المستوى الثاني : خاص، وذلك بدراسة وتحليل الأسباب التي تؤدي بالناس إلى الامتناع عن دفع الحقوق الشرعية ومن ثم وضع العلاج لها. أسباب عدم دفع الناس الخمس :

ومن تلك الأسباب ما يلي:

١- الجهل بوجوب الخمس، فبعضهم لا يعلم بوجوبه أصلاً، وبعضهم يظن وجوبه على خصوص الموسرين، وقد رسّخت هذا الجهل الأجيال المتعاقبة من المسلمين بإعراضهم عن امثال هذه

() وسائل الشيعة: كتاب الزكاة ، أبواب ما تجب فيه ، باب ٢ ٤ ١ .

() المصدر السابق، نفس الباب ١ ٦ .

الوظيفة وترفع العلماء عن المطالبة بها خشية سوء الظن بهم^(١).
 ٢- حملات التشكيك التي يمارسها أعداء الدين والمذهب ويروج لها
 المرتزقة والجهلة السذج بكل القنوات المتاحة، كالكتب
 والنشرات والصحف والمجلات وغيرها، فتارة يقولون بعدم
 وجوبه أصلاً وإنه لم يذكر في القرآن وإنه خاص بغنائم
 الحرب^(٢)، أو إنه خاص بزمان رسول الله (ﷺ)، وهم قبل
 غيرهم يعلمون زيف هذه الدعاوى، لكنهم يبتغون بذلك تفويض
 إحدى الركائز المهمة للدين والمذهب.

٣- سوء تصرف بعض الوسطاء والوكلاء في نقل الحقوق الشرعية، مما
 يقلل من الثقة بالدفع إليهم؛ إما لتوسّعهم في أمور المعيشة

() أضف إلى عدم وضوح لغة الرسائل العملية بحيث يصعب على المكلف فهم ما
 يجب عليه وما لا يجب.

١) إن الذهاب إلى قصر وجوب إخراج الخمس، على خصوص غنائم دار الحرب، لا
 ينسجم مع خلود الإسلام وبقائه من ناحية عملية، واستمرار الدولة الإسلامية زمن قيامها،
 في تحمل الأعباء الضخمة، التي تترتب عليها تجاه الأمة وذلك من وجوه عدة أهمها:
 أ. إن الحروب قد أغلقت أكثر أبوابها وانحصرت، وانحسر ظلها، فانحسر بذلك ما قد
 يترتب عليها، في حال انتصار المسلمين من غنائم.

ب. إن نتائج هذه الحروب، ليست مضمونة إلى جانب المسلمين في كثير من الأحيان.
 بل بالعكس فقد تكون نتائجها في غير صالحهم، فتكون الغنائم من نصيب أعداء الإسلام.

وترفهم، أو لعدم إيصالها إلى المرجعية المقصودة، أو لعدم نزاهتهم.

٤- النفس الأمارة بالسوء التي تشحّ بإنفاق المال ومطلق عمل الخير؛ فالكثير من الناس يؤدي الفرائض التي لا تكلفه مالاً، أما التي تحتاج إلى بذل المال فيتردد فيها.

٥- الغفلة عن موارد صرف هذا الحق الشرعي، ولو علم أنها تصرف في قضاء حوائج المؤمنين وتزويج شبابهم لتحسينهم من الحرام ومعالجة مرضاهم وشؤون الحوزة العلمية الشريفة وحفظ كيائها ومدارسها الدينية التي أنجبت عبر التاريخ آلاف العلماء والمفكرين والكتّاب والخطباء الذين ساهموا في نشر الوعي الديني وحفظ المذهب الشريف والإسلام العظيم طيلة ألف وأربعمائة عام وكأنّ الدين نزل اليوم، ولو علم الإنسان ذلك لأدّى ما عليه من حقوق بكل سرور، إن كان غيوراً على دينه ومجتمعه ومخلصاً في التزامه.

٦- قلة الثقة بما عند الله، مما يجعله متمسكاً بما عنده من متاع زائل^(١). هذه بعض الأسباب مما خطر في ذهني القاصر.

() قال تعالى: [أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ] و [قُلْ أَذْكَاءَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيرًا] و [وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ].

علاج عدم دفع الناس الخمس :

وإذا عرفت السبب أمكن التفكير في علاجه من خلال نقاط:

١- تصدي الحوزة الشريفة لبيان الأدلة الكافية على وجوب هذه الفريضة العظيمة، وشمولها لكل ما يستفيد المرء من مكسب، فيجعل له يوماً في السنة يحاسب فيه نفسه، فيستثني مؤونته الشخصية من مسكن وملبس ومأكل وأثاث لائق بشأنه وواسطة نقل، ثم يخمس الزائد إن وجد، وتوجد تفاصيله في الرسائل العملية للفقهاء^(١).

٢- الرد على الشبهات والشكوك التي يلقىها المضللون في أذهان البسطاء والسذج، وإلفات الناس إلى المقصود الأساسي لهؤلاء والذي يموهون عليه بهذه الشبهات.

٣- أن ينتصر المسلم على نفسه الأمارة بالسوء؛ فإن اتباع الهوى والانسياق وراء النفس من المرديات، فإنها أعدى أعدائك بميلها لاتباع الشهوات وتمرداها على الطاعة، فالمؤمن الشجاع من ملك زمام نفسه ليقودها إلى ما فيه النجاة ويستعين على قهر نفسه بما ذكرناه آنفاً من المحفزات.

() التي ينبغي تبسيطها للمكلفين ليسهل فهمها ومعرفة التكليف الشرعي.

٤- الالتفات إلى موارد صرف الخمس التي ذكرناها قبل قليل وتسليمه إلى الثقات الذين يضعون الحقوق في مواضعها، وإطلاع المكلف بنفسه أو مباشرته الصرف على المحتاجين بإذن الحوزة الشريفة، وسيرى نفسه مسروراً بمساهمته في هذه المصارف الجليلة التي وعد الله تعالى من ينفق ماله فيها الأجر الجزيل، والله يضاعف لمن يشاء.

٥- أن يعلم المكلف أن كل ما عنده هو مما رزقه الله تبارك وتعالى، والله غني عن العالمين، وإنما يريد بفرض هذه الواجبات المالية ليبتلي المؤمنين منه بلاءً حسناً، فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وليطهرهم ويزكّيهم ويحررهم من أسر الشهوات والأهواء، حتى يخلصوا الانقياد والطاعة له تبارك وتعالى، قال عز من قائل: [خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ] (التوبة: ١٠٣)، قال الإمام الصادق (عليه السلام): (إني لأخذ من أحدكم الدرهم وإني لمن أكثر أهل المدينة مالاً، ما أريد بذلك إلا أن تطهروا) (١)، وقال (عليه السلام): (إنما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء، ولو أن الناس أدوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً،

() وسائل الشيعة: كتاب الخمس ، أبواب ما يجب فيه الخمس باب ١ ج ٣ .

ولاستغنى بما فرض الله له^(١).
 ومما يحسن الالتفات إليه أن من العوامل المهمة التي حفظت
 توازن مجتمعنا رغم الحصار^(٢) والضييق الذي يمر به منذ أكثر
 من عشر سنين هو ما يصرف على المحتاجين من مليارات
 الدينانير من الحقوق الشرعية.

٦- أن تتحلى الحوزة الشريفة والوكلاء والوسطاء بالورع والتقوى
 والثقة والأمانة وحسن مواساة الناس في الملبس والمأكل
 ومستوى المعيشة، خصوصاً في زمان العوز والفاقة كالذي
 نعيش فيه ويتأسوا بأمر المؤمنين (عليه السلام) الذي رقع مدرعته حتى
 استحيى من راقعها، فقيل له في ذلك وهو رئيس دولة مترامية

(١) كتاب الزكاة ، أبواب ما تجب فيه ، باب ١ ٦.

(٢) فرض مجلس الأمن الدولي منذ غزو صدام المقبور للكويت عام ١٩٩٠ قرارات
 ظالمة على العراق وشعبه ومنها الحصار الذي شمل حتى الغذاء والدواء، وتضرر الشعب
 العراقي بما لا يوصف ودفع ثمناً باهظاً واضطر لفعل كل شيء من أجل توفير لقمة
 العيش وإنهاء الاقتصاد، وارتفعت نسبة التضخم إلى أرقام فلكية حتى أصبح الدولار
 مساوياً لـ ٣٠٠٠ دينار عراقي بعد أن كان الدينار يُصَرَّفُ بأكثر من ثلاثة دولارات،
 وبقيت رواتب موظفي الدولة عند ٤ ٥ دولارات شهرياً، ولولا بقية من دين وأخلاق
 لأكل الناس بعضهم بعضاً.

الأطراف، قال (عليه السلام): (لكي لا يتبَّع بالفقير فقره) (١) أي تضغط عليه الحاجة ولا يجد من يواسيه فيتمرد ويخرج عن طاعة الله تبارك وتعالى.

٧- أن يحسن العبد الظن بالله تبارك وتعالى، فقد وعده أن يخلف عليه، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة)، وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة) (٢)، وقال الله عز وجل: [وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ] (سبأ: ٣٩)، وقال الصادق (عليه السلام): (من يضمن لي أربعة بأربعة أبيات في الجنة: انفق ولا تخف فقراً، وأنصف الناس من نفسك، وأفش السلام في العالم، واترك المرء وإن كنت محقاً) (٣).

٣

الآثار الإيجابية المترتبة على دفع الحقوق :

ويضاف إلى كل ذلك ما ذكر من آثار إيجابية في الدنيا والآخرة تترتب على الإنفاق ودفع الحقوق الشرعية ومن نتائج سلبية تترتب على الترك،

(١) نهج البلاغة ، باب الحكم رقم ١٣٨

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه، باب ٢ ج ٩

(٣) المصدر السابق، نفس الباب، ٨

وأي أجر ذكر للتصدق فهو شامل بالأولوية لدافع الخمس والزكاة؛ لأن التقرب إلى الله بالفرائض أكثر بما لا يقاس من التقرب بالنوافل والمستحبات، ففي الحديث: (ما عبد الله بشيء كالفرائض) كما إننا ذكرنا أن الصدقة بمعناها العام تشمل الزكاة والخمس وكل إنفاق في سبيل الله.

ومن هذه الآثار الإيجابية قوله تعالى: [مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] (البقرة: ٢٦١)، قال رسول الله ﷺ (داووا مرضاكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة)^(١)، وعن الإمام الصادق

(عليه السلام): (ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بمنع الزكاة)^(٢)، وقال الإمام

الصادق (عليه السلام): (إن الشحيح من منع حق الله وأنفق في غير حق الله)^(٣)

وتممها بحديث آخر (حرام على الجنة أن يدخلها شحيح)^(٤) وعن رسول

الله ﷺ: (لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً)^(٥).

وشكى شخص إلى الإمام (عليه السلام) إنه يرى أحلاماً مفزعة في المنام فقال

() المصدر السابق، باب ١١ ح ١٤.

() المصدر السابق، باب ٣٢ ح ٩ من أبواب ما تجب فيه الزكاة .

() وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه ، باب ٥ ٢ ١.

() المصدر السابق، نفس الباب ١.

() المصدر السابق، نفس الباب ٥ ١.

(عائشة): (إنك لا تؤدي الزكاة قال بلى أؤديها قال إذن لا تضعها في محلها) (١)، وقال الصادق (عائشة): (استنزلوا الرزق بالصدقة) (٢) وقال (عائشة): (داووا مرضاكم بالصدقة وما على أحدكم أن يتصدق بقوت يومه، إن ملك الموت يدفع إليه الصك بقبض روح العبد فيتصدق فيقال له: رد عليه الصك) (٣). وقال (عائشة): (الصدقة باليد تقي ميتة السوء وتدفع سبعين نوعاً من أنواع البلاء) (٤)، وعن رسول الله ﷺ: (إن الله ليربِّي لأحدكم الصدقة كما يربِّي أحدكم ولده حتى يلقاه يوم القيامة وهو مثل أحد) (٥)، وقال رسول الله ﷺ: (صدقة السر تطفئ غضب الرب) (٦) وعن أبي جعفر (عائشة) قال: (البر وصدقة السر ينفيان الفقر ويزيدان في العمر ويدفعان سبعين ميتة سوء) (٧).

كيف نفهم فلسفة هذه الأحاديث؟

- () وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب المستحقين للزكاة باب ٤ ١، ٦.
- () وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٣ ح ١
- () المصدر السابق، نفس الباب ج ٢.
- () المصدر السابق، باب ٥ ح ١.
- () وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٧ ح ٨.
- () المصدر السابق، أبواب الصدقة باب ١٣ ١
- () المصدر السابق، أبواب الصدقة، باب ١٣ ٩.

ويمكن فهم فلسفة هذه الأحاديث من ناحية اقتصادية واجتماعية ونفسية فحينما يقول (ﷺ) (استنزلوا الرزق بالصدقة) لأن انتشار الفقر يؤدي إلى ضعف القدرة الشرائية وتوقف عجلة الاقتصاد، فبدفع الحقوق الشرعية تتولد قدرة شرائية عند الناس فتتحرك عجلة الاقتصاد وتنمو الثروة

وحينما يقول (ﷺ): (حصّنوا أموالكم بالزكاة) لأن الحاجة تدفع إلى السرقة وارتكاب الجرائم وابتزاز الأموال، فإذا قضينا على الفقر بدفع الحقوق الشرعية فسنسدّ باباً عظيماً للجريمة.

وحينما يقول (ﷺ): (داووا مرضاكم بالصدقة) لأن الأمراض والعقد النفسية والاضطراب وفقدان السعادة هي من أهم أسباب الأمراض، ومنشأها الرذائل النفسية كالطمع والحسد والاستئثار وحب الدنيا والحقد والجشع والكبر، فإذا طهرّ نفسه منها فإنه سيعيش في صحة وسلامة وسيكسب الاطمئنان النفسي الذي هو علاج مهم للأمراض.

ويجوز للمكلف أن يستأذن بصرف حقوقه مباشرة إلى المحتاجين لما في ذلك من إيجابيات كثيرة لأنه أحرص على وضع حقوقه في موضعها، ولما ورد من الثواب في تسليم المال إلى الفقير يداً بيد وأن يقبل المعطي يده بعد العطاء لما ورد من إنها تقع في يد الله تبارك وتعالى قبل أن تقع في يد الفقير وهو قوله تعالى [أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ

وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^(١)، وفيه روايات عديدة^(٢) ولاستحباب مواساة المؤمنين وقضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم وإغاثة ملهوفهم^(٣) عن محمد بن عجلان قال: كنت عند أبي عبد الله (عليه السلام) فدخل رجل فسلم فسأله كيف من خلفت من إخوانك، قال: فأحسن الثناء وزكى وأطراً فقال له: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم فقال: قليلة، قال: فكيف مشاهدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال: قليلة، قال فكيف صلة أغنيائهم لفقرائهم في ذات أيديهم؟ قال: إنك لتذكر أخلاقاً قلما هي فيمن عندنا، قال: فقال: فكيف يزعم هؤلاء أنهم شيعة^(٤) وعن سعيد بن الحسن قال: قال أبو جعفر (عليه السلام): أيجيء أحدكم إلى أخيه فيدخل يده في كيسه فيأخذ حاجته فلا يدفعه؟ فقلت: ما أعرف ذلك فينا، فقال أبو جعفر (عليه السلام): فلا شيء إذن^(٥).

دور الحوزة في توعية المجتمع :

وتقع على الحوزة الشريفة مسؤولية عظيمة بأن تكون أهدافهم سامية، وهو نيل رضا الله سبحانه والقربى منه والزلفى لديه والعمل بكل ما

(١) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٢٩.

(٢) راجع محاضرة ١٣ رجب ١٤٢٣ بعنوان (صفات المسلم في منظار أهل البيت (عليهم السلام)).

(٣) و (٤) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب الصدقة، باب ٢٧ ج ٣ ح ٥

يقرب الناس إلى الطاعة ويبعدهم عن المعصية، وأن يكونوا قدوةً حسنة للناس بأخلاقهم وأعمالهم وإن لم يتحدثوا بألسنتهم تطبيقاً للحديث الشريف (كونوا لنا دعاة صامتين) وفي حديث آخر (كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً)، فهم ورثة الأنبياء وأولى من يتأسى برسول الله ﷺ وأمير المؤمنين (عليه السلام) الذي يتأوه ويتضرع إلى الله سبحانه من أي تقصير محتمل في أدائه للمسؤولية ويقول (أفنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقمهما) (١).

ويأمر أصحابه بمراقبة أفعاله ومحاسبته على تصرفاته وإن كان على رأس دولة واسعة ويقول لهم (إن خرجت منكم بغير هذه القطيفة التي جتتكم بها من المدينة فأنا خائن) وهكذا مضى (عليه السلام) طاهراً نقياً فإذا أردنا الفوز بلقائه (عليه السلام) وصحبته فلا بد من التأسي به ولا تخدعنا العناوين البراقة والمواقع الاجتماعية الزاهية فإنها دنيا زائلة لا تسوى عند أمير المؤمنين (عليه السلام) شسع نعلٍ بال، ولا نكون شيعته حقاً إلا إذا شاركنا الناس في معاناتهم وبذلنا الوسع في قضاء حوائجهم وتفهم مشاكلهم خصوصاً في هذا الظرف العصيب.

() بحار الانوار ٣٤١ - ٥٠ باب ٩٨ - زهده و تقواه و ورعه (عليه السلام).

ولتذكر دائماً أن هذه المواقع التي نحن فيها أمانة في أعناقنا، فهل أديناها إلى أهلها وهو الإمام المهدي (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ولا يعتبر أحد أن هذه الأموال غنيمة فاز من استكثر منها بل هي مسؤولية يجب الخروج من عهدتها [وَقَفَوْهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ] (الصفات: ٢٤)، وحينئذ يكون في حلالها حساب وفي حرامها عقاب وفي الشبهات عتاب فأى هذه النتائج الثلاث تتحملها في ذلك اليوم العصيب يوم القيامة، وأي تقصير في أداء هذه الأمانة يكون خيانة لله والله لا يحب الخائنين قال تعالى [هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] (المائدة: ١١٩)، وماذا يضرنا لو كنا صادقين في أقوالنا وأفعالنا وتخلينا عن كل ما لا يليق بنا حتى من المباحات التي ليس فيها حرمة شرعية إلا إن فيها منقصة أخلاقية. نسأل الله جلّت آلاؤه العصمة والتسديد في القول والعمل وأن يعيننا على طاعته ويجنبنا معصيته إنه ولي النعم.

القبس القرآني**فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم****المقدمة:**

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سادة خلقه أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وصف الإمام الباقر (عليه السلام) في حديث مروى عنه فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنها (أسمى^(١) الفرائض وأشرفها) وجاء فيه: (إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: سبيل الأنبياء، ومنهاج الصالحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض، وتأمين المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، ويتتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر)^(٢).

وروي في فضل هذه الفريضة وشرفها عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله:

() الكلمة التي افتتح بها للمباحة الشيخ يعقوبي (رحمته الله) بحثه الشريف في كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) يوم الأحد ٢٣ صفر/ ٤٣٤ هـ الموافق ٦ ٢٠١٣، واستمر البحث سنتين تقريباً بفضل الله تبارك وتعالى.

() هذا في رواية الكافي^٢ وفي التهذيب: (أتم الفرائض).

() وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي وما

يناسبهما، باب اج ٦

(وما أعمال البرّ كلها، والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجّي) (١).

هذه هي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شرفها وأهميتها، وعظيم بركاتها وآثارها على الفرد والمجتمع، وإن واحداً من هذه الآثار كفيلاً بأن يجعلها في الصف الأول من الفرائض فكيف بمجموعها؛ لذا كانت أعظم من مجموع أعمال البرّ والجهاد في سبيل الله كما في كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام)، وأن نسبة مجموع تلك الأعمال إلى هذه الفريضة كالنفثة - وهي ما يمازج النفس من الريق عند النفخ - بالنسبة إلى البحر العميق الواسع.

ويكفي هذه الفريضة شرفاً أن تكون هدف الإمام الحسين (عليه السلام) من نهضته ودفع دمه الشريف ودماء أهل بيته وسبي عوائل النبوة ثمناً لإحياء هذه الفريضة، كما عبّر (عليه السلام) صريحاً بقوله: (وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد (ﷺ)؛ أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب)، وقال (عليه السلام): (ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محققاً).

() وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي وما

وأشار الإمام الصادق (عليه السلام) إلى ذلك بتعبير آخر في الزيارة المخصوصة بيوم الأربعاء فقال (عليه السلام): (وبذل مهجته فيك ليستنقذ عبادك من الجهالة وحيرة الضلالة) وهي من مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن الطبيعي أن تحظى الفريضة بهذه الأهمية والمكانة العظيمة عند الشارع المقدس؛ لأن كل أمة - والأمة: هي الجماعة التي يجمعها أمر تشترك به ويكون محور اجتماعها ومحط أنظارها- لا يكتب لها البقاء والاستمرار إلا إذا حصّنت نفسها بالتدابير اللازمة من الداخل والخارج ضد الأعداء الذين يريدون القضاء عليها، بتفكيكها وتمزيقها وإضعافها من الداخل، أو باستئصالها والقضاء عليها من الخارج.

وهذا هو شأن الدول أيضاً، لذا تتضمن المؤسسات الحاكمة في الدول المتحضرة وزارتين عدّتا سياديتين لارتباط سيادة الدولة وحفظ وجودها بهما، وهما وزارة الداخلية لحفظ الأمن الداخلي وحماية النظام العام، ووزارة الدفاع لحماية حدودها وسيادتها من الاعتداءات الخارجية.

ويمكن تصور نفس الشيء في الأفراد، فقد زوّدهم الله تعالى بقوة لحماية سلامتهم من الداخل وهي المناعة التي توفرها كريات الدم البيض وسائر الاحتياطات الأخرى لوقايته من الأمراض والجراثيم والفايروسات التي تهاجم أجهزة بدنه، وزوّده بالسلاح الذي يدافع به عن نفسه من

الاعتداء الخارجي، قال تعالى: [لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ] (الحديد: ٢٥).

وقد أراد الله تعالى لهذه الأمة الإسلامية أن تكون خير أمة أخرجت للناس بنص الآية الشريفة، وأن تكون أمة خاتم الأنبياء ووارثة الأمم السابقة والمستخلفة في الأرض [ونريد أن نمنَّ على الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ] (القصص: ٥).

فلا بد من اتخاذ التدابير اللازمة لحفظ كيانها من الداخل وحمايته من عوامل النخر والانهيار كالتفاق والجهل والتخلف والخرافات والفساد والرياء والشبهات والفتن والضلالات، فكانت وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وشرع في عرضها وظيفة أخرى لحماية كيان الأمة المسلمة ودولتها من الخارج ولنشر دعوة الإسلام إلى الأمم الأخرى وإزالة كل العوائق التي يضعها الطواغيت والمستكبرون في طريق تعرف الأمم الأخرى على الإسلام ليختار كل واحد منهم عقيدته بحرية [لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ] (الأنفال: ٤٢) فكانت فريضة الجهاد.

فوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة (سيادية) بالمصطلح

السياسي المتداول؛ لقيام وجود الأمة وديمومتها وحفظ رسالة الإسلام من التحريف والتشويه والدس والتأويل بغير ما أنزل الله تعالى بهذه الفريضة، ولولا قيام من انتجهم الله تعالى بها لما بقي من الإسلام إلا اسمه ومن القرآن رسمه، كالذي حلّ بالديانات السابقة على الإسلام، ففي الحديث الشريف المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله ﷺ): ويحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين، وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكير خبث الحديد) (١).

ولكن القائمين بهذه الفريضة قليل، والجهد المطلوب لمكافحة الانحراف والفساد والتزوير كبير جداً؛ لذا انخرقت سيرة المسلمين ومسيرتهم منذ اللحظة الأولى بعد رحيل رسول الله (ﷺ) إلى الرفيق الأعلى.

وهذا ما حذّر رسول الله (ﷺ) أمته من الوقوع فيه، وحذّر من التداعيات التي تحصل عقب ترك هذه الفريضة العظيمة، من ضياع القيم وانقلاب المنكر معروفاً والمعروف منكراً، فلا يستطيع أحد حينئذ أن يصلح ويغير لأن ما يأمر به من المعروف سيبدو منكراً لأن الناس يرونه معروفاً، وهو ما ابتلي به المصلحون على مرّ الدهور، وهذا أحد وجوه فهم الحديث الشريف عن الإمام المهدي (عليه السلام) أنه يأتي بدين جديد وقرآن جديد؛

() سفينة البحار: ١ ٢٠٤ عن رجال الكشي، والكير: الزق الذي ينفخ فيه في الحداد.

لرسوخ الحالة المزيفة المقابلة للحق.

وقد ورد تحذيره (ﷺ) هذا في حديث مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (ﷺ) قال: (قال النبي ﷺ): كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟ ف قيل له: ويكون هذا يا رسول الله؟ فقال: نعم، وشرُّ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟ ف قيل له: يا رسول الله، ويكون ذلك؟ قال: نعم، وشرُّ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً^(١).

وهذه المراحل من الانحطاط كما يتكس إليها المجتمع كذلك يرتكس فيها الفرد، فإنه في بداية الأمر له فطرة وضمير يعرف به الحق والباطل والحسن والقيح فيرتاح إذا فعل الأول ويؤنبه ضميره إذا فعل الثاني. لكنه بتزيين من الشيطان وضغط من النفس الأمارة بالسوء وعوامل أخرى يخالف هذا الضمير الداخلي من دون أن يصلح ما صدر منه ويعود إلى رشده، بل ينتقل إلى المرحلة الثانية عندما تأخذه العزة بالإثم ويكابرو ويغالط فيحاول إقناع نفسه بما فعل أو تبريره أو الهروب منه بارتكاب مزيد من الخطأ ومقارفة الخطيئة كمن يهرب من جريمته بشرب المسكر أو بجريمة أخرى ليتناسى جريمته الأولى. ثم تأتي المرحلة الثالثة عندما يسود

() وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي وما

قلبه ويموت ضميره ويَطبع على قلبه ويتحول إلى شيطان فيرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

وعلى أي حال فقد حصل هذا الانقلاب في المفاهيم والقيم في وقت مبكر في صدر الإسلام وبلغ ذروته في عهد يزيد رغم حداثة العهد بنبي الإسلام (ﷺ)، ولا زال جملة من الصحابة وبعض أزواج النبي (ﷺ) على قيد الحياة، فقام الإمام الحسين (ﷺ) لإحياء هذه الفريضة كما في النصوص التي قدمنا ذكرها.

ويبدي (ﷺ) أسفه للحال الذي وصلت إليه الأمة بسبب تضييعها لهذه الفريضة، قال (ﷺ) لما طلب منه والي المدينة البيعة ليزيد: (إنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام إذا ابتليت الأمة براعٍ مثل يزيد).^(١)

وهي النتيجة التي حذرهم رسول الله (ﷺ) من الوقوع فيها، ففي الكافي والتهديب وعقاب الأعمال بالإسناد عن الإمام الرضا (ﷺ) قال: (إذا أمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بوقاع من

() موسوعة كلمات الإمام الحسين (ﷺ): ٣٤٦ عن مقتل الحسين (ﷺ)

للخوارزمي: ١٨٤، والفتوح: ١٧٥.

ويلاحظ أن الإمام الحسين (ﷺ) لم يذكر يزيد باسم أبيه في جميع كلماته؛ لأن أم يزيد حملت به وهي خارج بيت الزوجية عندما حصلت قطعة وهجران بينها وبين معاوية وذهبت إلى أهلها مدة طويلة.

الله) (١).

وروى الشيخ الطوسي (رحمته الله) في التهذيب عن النبي (ﷺ) أنه قال: (لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البرِّ، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسلَّط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء) (٢).

ومما يؤسف له أن هذا التهاون في أداء الفريضة على الصعيد العملي تحول تدريجياً في أذهان جملة من الفقهاء إلى عدم الاهتمام بشأن هذه الفريضة في الآثار الفقهية المباركة -سواء كانت متوناً فقهية، أو كتباً استدلالية- إما لحرص العلماء الأعلام على تناول المسائل الابتلائية أو خشية من بعض الممارسات التي حصلت بسبب سوء التطبيق بحيث اتخذ عنوان هذه الفريضة لتحقيق مكاسب شخصية، أو تنفيذ مخططات للسلطة عندما كانت تتبنى ذلك، هذا من جانب ومن جانب الكتب الاستدلالية، فلعل عدم التعرض لعدم وجود مطالب معمقة فيها تستحق جعلها موضوعات للأبحاث الاستدلالية، ففيهم من لم يتعرض لهذه الفريضة

() وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي وما

يناسبهما، باب اج ٤

() نهج البلاغة ج ٤ باب الحكم والمواعظ، رقم ٣٧٣

أصلاً^(١)، ومنهم من تعرض لها باقتضاب - كالدلمي في المراسم - أو ضمن كتاب الجهاد كالكليني في الكافي والشيخ (ثُمَّرَةُ) في التهذيب حيث جعله الباب الأخير من كتاب الجهاد ذي الثمانين باباً، كما خلت رسائل عملية كثيرة من هذا الكتاب.

وهذه المعطيات تلزمننا ببذل جهد إضافي لإحياء هذه الفريضة العظيمة علماً - من خلال إشباعها بالبحث وإثارة تفاصيلها -، وعملاً - بتفعيلها في حياة الأمة وضبط حركتها بقواعد الشريعة - والله ولي التوفيق وهو المستعان.

إن عملية الإصلاح التي هي رسالة الأنبياء والأئمة (سلام الله عليهم أجمعين) [إِنْ أُرِيدَ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَا تَوَفَّقِي إِلَّا بِاللَّهِ] إنما تتحرك وتنفذ على أرض الواقع من خلال هذه الفريضة المباركة والدعوة إلى الخير، فإحياء هذه الفريضة يعني مواصلة تأدية رسالة الرسل والأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) في كل ميادين الإصلاح^(٢) السياسي والاجتماعي والفكري والأخلاقي والتشريعي والاقتصادي.

() أما المتون فكالمنع للصدوق والانتصار والناصريات للسيد المرتضى والمبسوط للشيخ الطوسي وجواهر الفقه للقاضي، والغنية لابن زهرة. وأما الاستدلالية فكالمحقق البحراني في الحدائق والسيد العاملي في مفتاح الكرامة.

() راجع القبس ((إِنْ أُرِيدَ إِلَّا الْإِصْلَاحَ)) من المجلد الثاني من هذا الكتاب.

فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم:
وقد اهتم القرآن الكريم بهذه الفريضة أيما اهتمام، وأوصل اهتمامه
بها إلى العباد بأنحاء مختلفة:

(الأول) الأمر المباشر بها والعاقبة السيئة لتاركها، وأن سبب النجاة
هو القيام بهذه الفريضة، أما من تركها ومن فعل عكسها فيشملهم العذاب.
كقوله تعالى: [وَلَتَكُنَّ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [آل عمران : ١٠٤]
وقوله تعالى: [كُتِّبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ
مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] [آل عمران : ١١٠].
وقوله تعالى على لسان لقمان: [يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ
وَإِنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ] (لقمان :
١٧).

وقوله تعالى: [لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ
وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] (المائدة : ٦٣).
وقوله تعالى: [فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا
فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ] (هود : ١١٦).

وقوله تعالى: [وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا لَّهِ مَهْلِكُهُمْ أَوْ
مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا نَسُوا مَا
ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَّيْسٍ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ] (الأعراف : ١٦٤ - ١٦٥).

وقوله تعالى: [كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ] (المائدة : ٧٩).

وقوله تعالى: [خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ]
(الأعراف : ١٩٩).

(الثاني) إيراد هذه الوظيفة كصفة بارزة للربانيين والمؤمنين والدعوة

للتأسي بهم:

كقوله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ] (النحل : ٩٠).

وقوله تعالى: [الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا
الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ] (الحج : ٤١).

وقوله تعالى: [الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ
مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ]
(الأعراف: ١٥٧).

وقوله تعالى: [الْمَنَافِقُونَ وَالْمَنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ] (التوبة: ٦٧).

وقوله تعالى: [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (التوبة : ٧١).

وقوله تعالى: [الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ] (التوبة : ١١٢).

أقول: فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات المؤمنين، ولازمه أن تاركها يخرج من دائرة الإيمان ولو بمرتبة من المراتب.

(الثالث) سوق هذه الوظيفة كغرض للتكاليف المهمة، وأن تركها هو همّ الشيطان:

كقوله تعالى: [إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ] (العنكبوت: ٤٥).

وقوله تعالى: [وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَاةَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ] (النور: ٢١).

(الرابع) الأوامر العامة والمطلقة التي تنطبق على هذه الوظيفة أو

فسّرت بها:

كقوله تعالى^(١): [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا

وَقُودَهَا

النَّاسِ وَالْحِجَارَةَ عَلَيْهَا مَلَايِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ] (التحریم: ٦).

ففي الكافي وتفسير القمي بإسنادهما عن أبي بصير قال: (سألت أبا

عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: [قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا] قلت:

كيف أقيهم؟ قال: تأمرهم بما أمر الله، وتنهاهم عما نهى الله، فإن أطاعوك

كنت قد وقيتهم، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك^(٢).

وفي الكافي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (لما نزلت هذه الآية

جلس رجلٌ يبكي وقال: أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي! فقال رسول

الله (صلى الله عليه وآله): حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك، وتنهاهم عما تنهى عنه

نفسك).

(١) تناولناها بشكل مفصل في القبس (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) من

المجلد الأول من نور القرآن.

(٢) الكافي: ٦٢٥ ج ١، ٢. تفسير القمي: ٣٧٧٢

ويجري هذا العنوان على آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة العصر:
 [إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ]
 (العصر:٣).

أقول: لعلها من أهم الآيات^(١) في بيان عظمة هذه الفريضة حيث أقسم الله تعالى بأن الإنسان في خسر ولا يكفي للنجاة من هذا الخسران الإيمان والعمل الصالح وحدهما، بل لا بد أن ينضمَّ معهما التواصي بالحق والتواصي بالصبر وهو شكل من أشكال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالآية تفيد أن صلاح الإنسان في نفسه بالإيمان والعمل الصالح لا يكفي ولا بد أن يبذل وسعه في إصلاح الآخرين بشكل مكثف ومتواصل المعبر عنه بالتواصي.

وقوله تعالى: [وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ] (البقرة:٢٥١).

وقوله تعالى: [وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ] (الحج:٤٠).

(١) تناولناها بشكل مفصل في القبس (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) من المجلد الأول من نور القرآن.

والدفع يتحقق بفريضتي الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
والآيتان تحذران من مغبة ترك الفريضة لأن عاقبته امتلاء الأرض بالفساد
واضمحلال الدين وكيان المسلمين^(١).

وقوله تعالى: [وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ] (المائدة:٢).

أقول: أوضح مصاديق الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
وقوله تعالى^(٢): [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ] (النساء:١٣٥).

وقوله تعالى: [وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ] (لقمان:١٧)، في مجمع البيان
عن علي (عليه السلام): (اصبر على ما أصابك من المشقة والأذى في الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر)^(٣).

تقريب الاستدلال ببعض الآيات الكريمة:

نحاول الآن تقريب الاستدلال على وجوب الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر ببعض الآيات الكريمة:

(١) راجع القبس (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض) من المجلد الثاني من نور القرآن.

(٢) راجع القبس (ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض) من المجلد الثاني من نور

القرآن.

(٣) البرهان: ٢٨٧٧

القبس القرآني -
٦

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)

[آل عمران : ١٠٤]

الآية الأولى: قوله تعالى: [وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] [آل عمران : ١٠٤].

أقول: دلّت الآية الشريفة على الوجوب الذي تفيدته هياًة: [وَلْتَكُنْ]، وأكّده بجعل امثال هذه الوظيفة سبيل الفلاح. إذ أن ذيل الآية ظاهر في الحصر.

مضافاً إلى وقوعها في سياق الأمر بالوحدة والاعتصام بحبل الله تعالى وعدم التفرّق، فقبلها قوله تعالى: [وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا] [آل عمران: ١٠٣] وبعدها: [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ] [آل عمران : ١٠٥] فكانّ وضع الآية في السياق لإلفات نظر الأمة إلى ما تتحقّق به وحدتهم وعزّتهم وقوة بنيانهم من خلال الالتزام بأداء هذه الفريضة العظيمة.

إن قلت: إن استفادة الوجوب من الآية منافٍ لعموم الخير الشامل للواجب والمستحب فكيف تكون الدعوة إليه واجبةً، فكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

قلت: هذه شبهة مقابل البديهة لإجماع المسلمين على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل إجماع العقلاء كافة فلا وجه للتشكيك فيه، ومع ذلك نقول في الجواب:-

١- إن متعلق الوجوب هو أصل الوظيفة لا مصاديقها، أما المصاديق فلها حكمها، فالمطلوب في الآية أن تكون الأمة متصفة بهاتين الصفتين، أما التطبيق فيكون لكل مورد بحسبه من الوجوب أو الاستحباب كما لو افترضنا وجوب قيام الأب بأمر ولده غير البالغ بالصلاة وهو فعل مستحب.

٢- ولو تنزلنا ونظرنا إلى المصاديق فإنه يمكن الجواب بتقريبين:-
أ- تقييد (الخير) بما هو واجب كالدعوة إلى الإسلام كما في جملة من التفاسير، وكذا يقيّد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما هو واجب.

ب- أن يؤخذ (الخير) ووظيفة الأمر والنهي على عمومها وفيها الواجب والمستحب، وحينئذ يقال أن هذا المقدار من اتصاف المصاديق بالوجوب كافٍ لوصف العنوان بالوجوب.

إن قلت: تقييد الوظيفتين بالواجب ليس أولى من حمل الطلب على

الاستحباب.

قلت: يرد عليه ما قلناه من كفاية الوجوب في الجملة للقول بالوجوب، مضافاً إلى إجماع المسلمين على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والوجوب شامل للأمة كلها؛ لأن الظاهر كون (من) في (منكم) بيانية، فهي لبيان كون الطلب موجهاً لهذه الأمة أن تكون أمة تدعو إلى الخير وتأمّر وتنهى لتكون هي الأمة المفلحة دون غيرها من الأمم، ومعنى شمول وجوبها للأمة أن الأمة بما هي أمة مخاطبة بالوجوب على نحو المجموع وليس على نحو الاستغراق لكل فرد فرد.

وتشهد له الآية التالية: [كُتِّمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ] (آل عمران: ١١٠) والمورد يكون نظير قوله تعالى: [فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ] (الحج: ٣٠) إذ ليس عندنا أوثان رفس وأوثان غير رفس، فالأوثان كلها رفس، لكن المراد منشأ اجتناب الأوثان لكونها رفساً، أو المراد بيان نوع الرفس المأمور باجتنابه هنا وأن موضوعه الأوثان، ونحو ذلك.

ويؤيد هذا أي كون (من) بيانية والخطاب موجه إلى الأمة

جميعاً - أمران:-

١- الآيات العديدة التي وصفت عموم المؤمنين والمؤمنات بهذه الصفة وليس بعضهم، وقد تقدم ذكر جملة منها في الصنف الثاني من الآيات.

٢- ما رواه العياشي في تفسيره بسند غير تام عن الإمام الصادق (عليه السلام) في ذيل هذه الآية قال (عليه السلام): (لأنه من لم يكن يدعو إلى الخيرات ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من المسلمين فليس من الأمة التي وصفها الله، لأنكم تزعمون أن جميع المسلمين من أمة محمد (صلى الله عليه وآله) وقد بدت هذه الآية وقد وصفت أمة محمد (صلى الله عليه وآله) بالدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن لم يوجد فيه الصفة التي وصفت بها فكيف يكون من الأمة وهو على خلاف ما شرطه الله على الأمة ووصفها به) (١).

((وقد نسب الشيخ الطوسي (قده) إلى الزجاج أن المراد من (من) هنا هو تخصيص المخاطبين من بين سائر الأجناس، ورتب عليه الأمر والنهي فرض عين لا كفاية)) (٢).

(١) حكي عن تفسير العياشي: ٢١٨ ٢١٧

(٢) حكاها في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن التبيان: ٢ ٥٤١ وفقه القرآن

ومعنى الآية: اجعلوا منكم - أي من أمتكم - يا أمة الإسلام أمة تتصف بأنها تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر، كما تقول للشخص اجعل من ولدك ابناً صالحاً متفوقاً، أي اجعل ولدك هكذا، أو تخاطب الحوزة العلمية وتقول: اجعلوا منكم حوزة رسالية عاملة مخلصّة. وهذا ما نفهمه من كونها بيانية، أما صاحب الميزان فقد حكى هذا القول عن البعض، وقال: ((الظاهر أن المراد بكون (من) بيانية كونها نشئية ابتدائية)).

أقول: كقوله تعالى: [هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ] (غافر: ٦٧) أي أن نشوءكم من التراب، كقوله تعالى: [مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نَعِيدُكُمْ] (طه: ٥٥). وقال الأكثر بأنها تبعيضية وبنى على ذلك كون الوجوب كفايياً، وذكرها

لذلك وجوهاً يمكن تحصيلها من كلام السيد الطباطبائي قال (فَلْيَسِّرْ): ((والذي ينبغي أن يقال: أن البحث في كون (من) تبعيضية أو بيانية لا يرجع إلى ثمرة محصلة، فإن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور لو وجبت لكانت بحسب طبعها واجبات كفايية، إذ لا معنى للدعوة والأمر والنهي المذكورات بعد حصول الغرض، فلو فرضت الأمة بأجمعهم داعية إلى الخير أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر كان معناه أن فيهم من يقوم بهذه الوظائف، فالأمر قائم بالبعض على أي حال، والخطاب إن كان

للبعض فهو ذاك، وإن كان لكل كان أيضاً باعتبار البعض، وبعبارة أخرى المسؤول بها الكل والمثاب بها البعض، ولذلك عقبه بقوله: [وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ] فالظاهر أن (من) تبعيضية، وهو الظاهر من مثل هذا التركيب في لسان المحاورين ولا يصار إليه إلى غيره إلا بدليل^(١).

أقول: بنى (فَالْمَفْلُحُونَ) استظهاره كون (من) تبعيضية على عدة وجوه:-

١- إن طبيعة مثل هذه الوظائف أن تكون كفاية ((فالأمر قائم بالبعض)) حتى لو كان الخطاب لكل.

٢- إن ظاهر هذه التراكيب ذلك ولا يصار إلى غيره إلا بدليل.

٣- تعقيبه بقوله تعالى: [وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ].

ويرد على الأول: بالتفريق بين مقام الخطاب ومقام الامتثال، وبحثنا في الأول وهل أن الخطاب شامل للجميع أم لا؟ أما تحقق المطلوب بامتثال البعض فهذا من الثاني وليس هو محل البحث، فالمطلوب من الأمة أن تكون كلها متصفة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان الغرض يتحقق بامتثال البعض، وحينئذ يكون سقوط الفرض عند أداء البعض لانتفاء موضوعه، ولا يعني هذا عدم ثبوت الوجوب قبل هذا على البعض الآخر فلا يستفاد منه الوجوب الكفائي.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٤٢٧٤ الأعلمي.

وفرض الوجوب على الجميع مع الاكتفاء بقيام البعض واضح المصلحة في هذه الفريضة المهمة، ليرى كل فرد أنه مسؤول عن امثالها، بينما لو كان الوجوب موجهاً إلى البعض، فإنه سيكون سبباً للتقاعس عن أدائها باعتبار أن الوجوب غير متعين به فيؤدي إلى تعطيل الفريضة كما يشهد به الواقع والتجارب. وكما ضيقت صلاة الجمعة المباركة بسبب القول بوجوبها التخييري وهكذا.

ويظهر من قوله (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ): ((المسؤول بها الكل)) الاعتراف بذلك، وسنبحث مفصلاً في هذا الموضوع إن شاء الله تعالى.

وأما الثاني فإنها دعوى ولو سلمناها فإن في المقام قرائن متصلة ومنفصلة -كقوله تعالى: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ]- على خلاف الظاهر المدعى.

أما الوجه الثالث فتقريبه أنه يرى أن الحصر في قوله تعالى: [وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] إضافي، وبناءً على هذه القرينة فقد قرب بعض الأعلام (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) كون (من) تبعيضية بأن قوله تعالى: [هُمُ الْمُفْلِحُونَ] ((معناه أن أولئك كاملو الفلاح لوضوح أن الآتي بالواجب الكفائي أفضل من غيره، فقوله [هُم] من قبيل [هُمُ الْعَدُوُّ] فليس معناه أن غيرهم ليس مفلحاً، بل معناه أكملية فلاح الأمر الناهي من

فلاح غيره، كما أن معنى [هَمَّ الْعَدُوُّ] أشدّية عداوة هؤلاء من عداوة
غيرهم^(١).

أقول: يرد عليه:-

١- اعتبار الحصر إضافياً دعوى على خلاف الظاهر، والقياس
ممنوع، فالحصر مطلق، وإن غير الأمر الناهي لا يكون مفلحاً
بهذا العنوان، وإن كان على خير بدرجة من الدرجات.

٢- لو تنزلنا فإن هذا التفاضل والإضافة بلحاظ الامتثال، ونحن لا
ننكره؛ لأن من المتفق عليه عدم حصول الامتثال من قبل الكل؛
لأن الموضوع ينتفي بامتثال البعض، فلا يبقى للوظيفة موضوع،
لكن كلامنا ليس بلحاظ مقام الامتثال، وإنما في مقام التكليف
وإلقاء العهدة وما ذكره المستشكل لا يتعرض له.

ويمكن الاستدلال على كون (من) تبعيضية برواية مسعدة
بن صدقة^(٢) عن أبي عبد الله (عليه السلام)، وستأتي مناقشتها عند
البحث عن نوع الوجوب بإذن الله تعالى.

نعم يمكن قبول التبعيضية في مقام الامتثال لأنه ليس من

(١) الفقه للسيد محمد الشيرازي: ١٥٧٤٨

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب

المتوقع كون المطلوب أن يكون كل فرد فرد داعياً إلى الخير
 أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر؛ لوجود العصاة والجهلة
 بالحكم والموضوع والقاصرين والمقصّرين والعاجزين عن
 الامتثال ونحو ذلك، وهذا لا يضر بما استظهرناه من كون عهدة
 الوجوب ملقاة على الأمة كلها، لصدق اتصاف الأمة بهذا
 الوصف إذا تحقق الغرض بالبعض، كما توصف الأمم الغربية
 بأنها متقدمة تكنولوجياً مع العلم بأن بعض أفرادها كذلك لأن
 هذا البعض كافٍ في صدق العنوان وليس المطلوب أزيد
 لوجود من هم في مهن لا ترتبط بهذا العنوان كالأعمال
 الخدمية.

ويمكن الاستدلال بالآية على رد القول بالوجوب الكفائي من

وجهين:-

١- التعبير بالأمة وهي ((كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما إما دينٌ واحد
 أو زمان واحد أو مكان واحد))^(١) فهي جماعة كبيرة، وعلى
 القول بالوجوب الكفائي فإن الأمر يتأدى بواحد أو قريب منه،
 لذا يعرفون هذا الواجب بأنه إذا قام به شخص سقط عن
 الآخرين، فهذا نقض بالآية عليهم.

(١) المفردات للراغب، مادة (أم).

٢- ولو تنزلنا وقلنا بالوجوب الكفائي على فئة معينة من المسلمين التي سميت بالأمة في الآية فإنه أخص من المدعى الذي هو الوجوب الكفائي مطلقاً؛ لأن الظاهر من عمل مثل هذه الجماعة الخاصة القيام بالوظيفة بلحاظ المستوى الاجتماعي لأداء الفريضة أي المعروف والمنكر الذي يتحول إلى ظاهرة اجتماعية؛ لأن مثلهما يحتاج إلى جماعة متخصصة ولها مؤهلاتها وأدواتها، فتكلفت أمة أو جماعة بهذه الوظيفة على مستوى المجتمع كشرطة الخميس التي أسسها أمير المؤمنين (عليه السلام)، كالأمر الكفائي الصريح بنفر البعض للتفقه في الدين.

أما أداء الفريضة على المستوى الفردي فلا دليل على كونه كفائياً؛ لأنه ولو بأدنى مراتبه ممكن للجميع، فهو واجب عيني على الجميع، وستعرض لهذه المباحث لاحقاً بإذن الله تعالى.

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[آل عمران : ١١٠]

الآية الثانية): قوله تعالى: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ
خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ] (آل عمران : ١١٠).

أقول: دلت الآية على وجوب الوظيفة على الأمة حيث جعلتها أهم صفة
تتميز بها، ولإبراز أهميتها فقد قدمت على الإيمان بالله تعالى.

و (كان) هنا تامة تفيد الوجود ولزوم الاتصاف وأن من شأنها ذلك
فيكون المعنى وجدتم وفيكم شأنية أن تكونوا خير أمة، واستعمل الماضي
لتأكيد الحصول والوقوع وأنه مستمر إلى المستقبل، كلزوم الأسماء

الحسنى للذات المقدسة في مثل قوله تعالى: [وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا] (النساء : ١٥٨).

ويمكن أن تكون بمعنى أنتم خير أمة أخرجت للناس نظير قوله تعالى: [كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا] (مريم: ٢٩) أي من هو في المهد، وليست كان الناقصة التي تقبل انتفاء الصفة وانفكاكها عن الموصوف، ولو اعتبرناها ناقصة فمعناها سبق ذلك في علم الله تعالى والتعبير عنه بالماضي لتأكيد تحققه.

أما استعمال لفظ (كان) بالماضي فلا يخلو من تكريم لهذه الأمة لأنه أخذ بنظر الاعتبار مقارنتها بكل الأمم السابقة وأن ذلك ثابت وواقع لا محالة كوقوع أحداث الزمن الماضي.

ثم أفادت الآية شرط هذه الخيرية بأنكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، فخيريتها على جميع الأمم مستمرة ما دامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فالآية ظاهرة في الممارسة الفعلية لهذه الوظيفة والتحرك بها، وليس في شأنية الاتصاف أي أن خيريتها ليست من جهة أنها مأمورة بهذه الوظيفة، وأن من شأنها القيام بها، وأن هذه الوظيفة مشرعة ومجعولة لها.

وهذا وجه أفضليتها على سائر الأمم؛ لأن هذه الوظيفة مجعولة في جميع الديانات السابقة كما تشير إليه جملة من الآيات الكريمة [لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ] (المائدة: ٦٣) [كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ] (المائدة: ٧٩) وغيرها، وكذا الأحاديث الشريفة كمخاطبة قوم شعيب وغيرها مما يأتي إن شاء الله تعالى، ولو لم تكن تلك الأمم مأمورة بها لما كان هناك وجه لأفضلية أمة الإسلام عليها، فخيريتهم على سائر الأمم أنهم يواصلون التحرك بهذه الوظيفة الإلهية على مر الأجيال، وإن كان بمستويات متفاوتة من القوة والضعف، وبحسب كثرة العاملين وقتهم.

والجواب هنا موجه إلى الأمة بما هي أمة على نحو ما قلناه في الآية السابقة، ولا يضر باتصافها بهذا الوصف إذا تحقق الغرض بقيام البعض؛ لنفس البيان هناك. نعم الخيرية على مستوى الأفراد تحصل بأداء هذه الوظيفة، ولو على نحو الشأنية بمعنى أنه إذا كان صادقاً وجاداً في الامتثال، لكن الموضوع انتفى بقيام البعض، فلا يبعد شموله بالخيرية بلطف الله تعالى، وهو معنى موجود في الأحاديث الشريفة بخصوص عدد من الموارد.

والتعبير بـ[أخرجت] فيه إشارة لطيفة لقيام اليد الإلهية بصنع هذه الأمة بهذه الأوصاف وإظهارها وتقديمها للبشرية لتكون خير أمة، والواقع يشهد أن ما تنعم به الأمم المتحضرة اليوم من رقي وازدهار وأخلاق

إنسانية هو من بركات هذه الأمة المرحومة ووجودها حتى في الأزمنة التي عاشت اندحاراً، فعلى الأمة أن تلتفت إلى قيمتها هذه لتقوم بمسؤولياتها وتتعلم دورها الريادي والقيادي من الأمم الأخرى.

حل التنافي بين الآيتين:

وفي ضوء ما استظهرناه من كون (من) بيانية يتضح التطابق بين هذه الآية وسابقتها، إلا أن الأكثر لما بنوا على كون (من) تبعيضية في الآية السابقة فقد أوردوا إشكالية عدم التوافق بينهما، ونحن لا نرى الإشكال وارداً حتى على هذا الاحتمال؛ لأن آية [وَلْتَكُنَّ] ليس لها مفهوم ينفي خطاب آية [كُتِّمَ]، ولا مانع من كون التكليف موجهاً للأمة جميعاً، وتفهمه جماعة معينة على أنها مخاطبة أكثر من غيرها لخصوصية فيها كالحوزة العلمية أو الوجهاء المتنفذين أو السلطات التنفيذية ونحوها، فيكون خطاب [وَلْتَكُنَّ] تذكيراً وتأكيداً للوجوب العام وإشعاراً لهذه الجماعة بالوجوب الخاص عليها.

هذا على الفرض المشهوري من وجود إشكال في اجتماع وجوبين على موضوع واحد، وإلا فإننا لا نرى مانعاً من توجه خطاب بالوجوب لعموم الأمة، وخطاب لجماعة خاصة بالوجوب؛ لتذكيرها بالمسؤولية الخاصة، وموارده في الفقه كثيرة.

وعلى تقدير التنافي بين آية [ولتكن منكم] وآية [كتتم]، فقد بذلت عدة محاولات لرفع هذا الإشكال، وما قيل أو يمكن أن يقال منها:-

١- إن الآية [كتتم] بلحاظ توجه التكليف إلى مجموع الأمة، أما آية [ولتكن] فهي بلحاظ الامتثال لما قلناه من أن من غير المتوقع تمكن الكل من الامتثال للأسباب التي ذكرناها فتقوم به الأمة القادرة من دون أن يؤثر على توجه الخطاب بالوجوب إلى الجميع، وهكذا كل الواجبات كالصوم والحج والزكاة فإن الخطاب بها موجه إلى الجميع، لكن القادر على الامتثال جماعة من المسلمين فيصح توجيه التنفيذ وامتثال الواجب إلى الجماعة المعينة خاصة^(١)، كأن يأمر خصوص المستطيعين للحج بتهيئة جواز السفر ولوازم الرحلة ونحو ذلك، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] مع أن غير المؤمنين مكتوب عليهم الصيام أيضاً وإنما خوطب خصوص الذين آمنوا تشریفاً لهم أو لأنهم الجماعة التي يتوقع منها الامتثال.

(١) هذا الوجه والذي يليه لخصناه من كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للشيخ

٢- إن آية [ولتكن] ليست بصدد بيان أصل التشريع حتى تتنافى مع آية [كنتم] بل هي تشير إلى تأكيد هذه الوظيفة على فئة خاصة تكون مسؤوليتها عن أداء هذه الوظيفة ألزم من غيرها؛ لاجتماع الشروط فيها ولتوفر أدوات التأثير لديها كالمرجعية الدينية والحوزة العلمية أو جماعة معينة تخصص لأداء هذه الفريضة كشرطة الخميس، ولا مفهوم لها حتى تنافي الأخرى نظير قوله تعالى: [لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] (المائدة : ٦٣)، وعن النبي (صلى الله عليه وآله) (إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله)^(١) ومن المعلوم أن إظهار العلم يكون غالباً بصورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- ما قدمناه في البحث من أن آية [ولتكن] ناظرة إلى المعروف والمنكر الاجتماعيين أي التي تشكل ظواهر عامة لأنه لا يتيسر لأي أحد ممارسة الأمر والنهي المؤثرين فيهما إلا بانضمام

(١) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب

الجهود الى بعضها، أما آية [كنتم] فهي بلحاظ الأعم من ذلك
الشامل للفرديين وممارسته واجب عيني على الجميع^(١).

٤- ما حكي عن المراغي ومحمد عبده وغيرهما من ((أن الآية
الأولى -أي آية [ولتكن]- خطاب موجّه للمؤمنين كافة، بأن
يتخبوا منهم أمة تقوم بهذه الفريضة، وذلك بأن يكون لكل فرد
منهم إرادة وعمل في إيجادها ومراقبتها ونقدها وتصويب
حركتها، وبهذه الطريقة تساهم الأمة كلها في الأمر والنهي، ومعه
يتم التوفيق بين هذه الآية وسائر آيات الأمر والنهي الظاهرة في
نسبتها لمجموع الأمة))^(٢).

٢

وفيه:-

أ- إنه ينطلق من ظرف خاص وناظر إلى آية محددة لأداء
الفريضة من خلال سلطة سياسية ونحوها فهو يعالج جزءاً
من المشكلة.

ب- لازمه سقوط الوظيفة عن عموم الأمة بعد انتخاب
هذه الجماعة وهو معنى غريب عن الخطاب الشرعي والفهم

(١) ذكر هذا الوجه أيضاً في الأمثل: ٣٨٤ ٢

(٢) فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٤٨ عن تفسير المراغي: ٢٢٢، وتفسير

المنار: ٣٦٤ ودراسات في ولاية الفقيه للشيخ المتظري (قدس سره): ٢٢٧ ٢

المشرعي، إذ المسؤولية مستمرة لذا يَأْتَمُّ الجميع إذا لم يتحقق الامتثال.

٥- ما نقل عن الثعالبي وحاصله ((أن الآية الأولى هنا ناظرة إلى وظيفة الأمر والنهي العالمية، أي قيام المسلمين بالوظيفة في حق عموم غير المسلمين، فيما سائر الآيات ناظرة إلى قيام المسلمين بالوظيفة -عامتهم وجماعة منهم- داخل المجتمع الإسلامي))^(١).
أقول: يمكن أن نستشهد له بتقريبين:-

أ- تضمن الآية الأولى للدعوة إلى الخير وهو الإسلام وهي ثمرة

الجهاد الذي يكون خارج المجتمع الإسلامي لدعوة الأمم الأخرى إلى الإسلام، وقد ورد معها ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتكون الفئة المستهدفة بالخطاب هي نفسها لوحدة السياق مثلاً ونحوه.

ب- ما تقدم في الوجه الثالث من أن آية [ولتكن] ناظرة إلى المستوى الاجتماعي للفريضة، وما يوجد عند الأمم غير

(١) فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٥٤ عن تفسير الثعالبي: ٨٨ ٢ وقد وصف الناقل هذا الوجه بأنه لا دليل عليه.

المسلمة أوضح مصاديق هذا المستوى، فتكون الآية ناظرة إليه.

٦- إن آية [كتتم] تمثل الحكم الطبيعي الأصلي الموجه للأمة، ولما علم الله تعالى أن الأمة لا تمتثل كلها للأمر، تنزل الخطاب ليلزم جماعة على الأقل بذلك فهو حكم ثانوي تنزلي على فرض عدم تحقق الامتثال العام على نحو الترتب، أو التخفيف كقوله تعالى: [الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا] (الأنفال: ٦٦) فقللت النسبة من واحد إلى عشرة إلى واحد إلى اثنين.

٧- إن آية [كتتم] هو المطلوب النهائي الذي يراد أن تصل إليه الأمة بأن تكون كلها آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، والوسيلة لتحقيقه هي آية [ولتكن] بأن تؤدي كل جماعة ما عليها فإذا امتثلت هذه الجماعة وتلك الجماعة فإن الأمة كلها ستكون ممثلة في النهاية، نظير ما أجبتا به على إشكال التنافي بين آية [فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ] (التغابن: ١٦) وآية [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ] (آل عمران: ١٠٢).

٨- إن آية [ولتكن] هي لاستشارة الهمة والتحفيز على السبق لامتثال هذه الفريضة، والخطاب موجه للجميع فلا تنافي الآية الأخرى، نظير قوله تعالى على لسان عيسى بن مريم (عليه السلام): [مَنْ أَنْصَارِي

إلى الله] (الصف: ١٤) فالخطاب موجه إلى الجميع، وكما يقول

قائد الجيش: من يبايعني على الموت ويتقدم معي، وهكذا.

٩- أن تكون آية [وَلَتَكُنْ] كناية عن تحقق الغرض بفعل البعض

وهم الأمة والجماعة فتكون إشارة لكون الواجب كفاً، بمعنى

كفاية قيام البعض بالامثال وسقوطه بذلك عن الآخرين، قال

المحقق الأردبيلي (قده): ((إلا أن في الإيجاب على البعض

إشعاراً بأن المقصود يحصل بفعل البعض، وأن العلم بأن الغير

سيفعل الواجب الكفاً قبل فوت وقته كاف)) وأضاف (قده)

بما لا يخلو من النظر، قال (قده): ((بل الظن المذكور أيضاً

١

فيجوز التأخير)) (١).

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا مَّهْلِكُكُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا قَالُوا مَعذْرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

[الأعراف : ١٦٤-١٦٥]

(الآية الثالثة): قوله تعالى: [وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ
مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذْرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا
نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا
بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ] (الأعراف : ١٦٤-١٦٥).

أقول: تقريب الاستدلال ينطلق من الروايات الشريفة، ففي الخصال
بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) في تفسير الآية قال (عليه السلام): (كانوا ثلاثة
أصناف: صنّف ائتمروا وأمروا فنجوا، وصنّف ائتمروا ولم يأمرُوا فمسخوا
ذراً، وصنّف لم يأتمروا ولم يأمرُوا فهلكوا) (١).

أقول: والتقريب واضح لأن الآية صرّحت بنجاة الأمرين بالمعروف
الناهين عن المنكر فقط ووصفت الصنفين الآخرين بالظالمين واستحقاقهم
العقاب، ولو لم تكن هذه الوظيفة واجبة لما استحق الصنف الثاني القاعد
عن أداء الفريضة الذين ائتمروا ولم يأمرُوا العذاب.

ويظهر من الآية أن هذا الصنف التارك لفريضة الأمر بالمعروف

والنهي

عن المنكر هم الذين قالوا: [لم تعظون قوماً] لأنهم بحسب الظاهر غير الواعظ وغير المنهي فيتعين بهم، ويظهر أنهم محسوبون على المتدينين الملتزمين بالشريعة وربما يظهر من كلامهم أنهم كارهون لفعل المنكر، مبررين سكوتهم بأنه لم يكن عن معصية لوجوب هذه الفريضة وإنما ليأسهم من صلاح العصاة، وإن كان سكوتهم عن ردع المعتدين لا ينم عن وجود غضب لله تبارك وتعالى.

قال السيد الطباطبائي (قَدَسَ سِرُّهُ): ((وفي الآية دلالة على أن الناجين كانوا هم الناهين عن السوء فقط، وقد أخذ الله الباقين، وهم الذين يعدون في السبت والذين قالوا: [لم تعظون] إلخ وفيه دلالة على أن اللائمين كانوا مشاركين للعادين في ظلمهم وفسقهم حيث تركوا عظمتهم ولم يهجروهم.

وفي الآية دلالة على سنة إلهية عامة، وهي أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع، وعظة إن لم يمكن المنع أو هجره إن لم تمكن العظة أو بطل تأثيرها، مشاركة معهم في ظلمهم، وأن الأخذ الإلهي الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم في ظلمهم))^(١).

أقول: ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في سورة العصر: [إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ] فلا يكفي لخروج الإنسان من حالة الخسر أن يكون صالحاً في نفسه بالإيمان والعمل الصالح، بل لا بد أن يكون إنساناً مصلحاً للمجتمع وفاعلاً في عملية التغيير بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

((وفي قولهم [إلى ربكم] حيث أضافوا الرب إلى اللائمين ولم يقولوا إلى ربنا إشارة إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بنا بل أنتم أيضاً مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم لأن ربكم لمكان ربوبيته يجب أن يعتذر إليه، ويبدل الجهد في فراغ الذمة من تكاليفه والوظائف التي أحالها إلى عباده، وأنتم مربوبون له كما نحن مربوبون فعليكم من التكاليف ما هو علينا))^(١).

أقول: هذه التفاتة لطيفة، وهي لا تناسب وصفه للأمة اللائمة بأنهم ((كانوا أهل تقوى يجتنبون مخالفة الأمر إلا أنهم تركوا نهيمهم عن المنكر فخالطوهم وعاشروهم ولو كان هؤلاء اللائمون من المتعدين الفاسقين لوعظهم أولئك الملمومون، ولم يجتنبوهم بمثل قولهم [معذرة])).

(١) النص وما بعده في الميزان في تفسير القرآن: ٨ ٣٠١ ٣٠٠

أقول: يكفي قولهم: [ربكم] لوعظهم وتذكيرهم بحقوق الربوبية عليهم.

وهنا يثار إشكال على قوله تعالى: [نَسُوا] له تقريبان:-

١- إن هؤلاء لم يكونوا ناسين بل كانوا ذاكرين وملفتين إلى مغبة العمل.

٢- إذا كانوا ناسين فإن الناسي معذور ويقبح عقابه، فلماذا أخذوا بعذاب بئس.

ونكتفي في الجواب بما قاله السيد الطباطبائي (قَدِّسَ): ((وقوله تعالى: [فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء] المراد بنسيانهم ما ذكروا انقطاع تأثير الذكر في نفوسهم وإن كانوا ذاكرين لنفس التذكر حقيقة فإنما الأخذ الإلهي مسبب عن الاستهانة بأمره والإعراض عن ذكره، بل حقيقة النسيان بحسب الطبع مانع عن فعلية التكليف وحلول العقوبة.

فالإنسان يطوف عليه طائف من توفيق الله يذكره بتكاليف هامة إلهية ثم إن استقام وثبت، وإن ترك الاستقامة ولم يزره زاجر باطني ولا ردعه رادع نفساني عدا حدود الله بالمعصية غير أنه في بادئ أمره يتألم تألماً باطنياً ويتحرج تحرجاً قلبياً من ذلك ثم إذا عاد إليها ثانياً من غير توبة زادت صورة المعصية في نفسه تمكناً، وضعف أثر التذكير وهان

أمره، وكلما عاد إليها وتكررت منه المخالفة زادت تلك قوة وهذه ضعفاً حتى يزول أثر التذكير من أصله، ساوى وجوده عدمه فلحق بالنسيان في عدم التأثير، وهو المراد بقوله: [فلما نسوا ما ذكروا] أي زال أثره كأنه منسي زائل، الصورة عن النفس)).

أقول: تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في مقدمة الكتاب حينما طبقنا تدرج ترك هذه الفريضة الذي ورد في الحديث النبوي الشريف (كيف بكم) على صعيد داخل النفس.

في تفسير الإمام العسكري (عليه السلام) عن الإمام السجاد (عليه السلام) من حديث (وذلك أن طائفة منهم وعظومهم وزجروهم، ومن الله خوفهم، ومن انتقامه وشديد بأسه حذروهم، فأجابوهم عن وعظهم: [لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ] بذنوبهم هلاك الاصطلام [أَوْ مَعَذَّبَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا] فأجابوا القائلين لهم هذا: [مَعَذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ] إذ كلفنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنحن ننهي عن المنكر ليعلم ربنا مخالفتنا لهم وكراحتنا لفعالهم، قالوا: [وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ] ونعظهم

أيضاً لعلهم تنجع فيهم المواعظ، فيتقوا هذه الموبقة، ويحذروا عقوبتها) (١).
وروى في الدر المنثور بسنده عن عكرمة قال: ((جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس؟

(١) تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني: ١٢٩٤

قال: هؤلاء الورقات، وإذا في سورة الأعراف)) ثم ذكر هذه الآيات وفسرها إلى أن قال: ((أرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها))^(١).

والآية تنفع في البحث عن الشرط الذي ذكره للوجوب وهو التأثير في المقابل أي المأمور المنهي، كما أن في الآية رداً على القول بالوجوب الكفائي؛ لأن النهي قد تحقق بموعظة البعض فلماذا أخذ البعض الآخر - وهم الساكتون - بعذاب بئس؟ فالوجوب إذن لا يسقط بقيام البعض حتى ينتفي الموضوع.

(لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[المائدة : ٦٣]

(الآية الرابعة): قوله تعالى: [لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] (المائدة : ٦٣).

في الآية الكريمة توبيخ وتقريع للربانيين والأحبار لتركهم فريضة النهي عن المنكر، وكذا لتركهم الأمر بالمعروف المستفاد بالاقتران الذي تقدم ذكره في البحوث التمهيديّة، وتصف تخليهم عن وظيفتهم ببئس الصنيع.

والربانيون نسبة إلى الرب سبحانه وتعالى، ويمكن أن يراد بهم ما نسميهم في عرفنا (المتدينين) وهم الذين يغلب عليهم الالتزام بالشريعة فنسبوا إلى صاحب الشريعة سواء كانوا من العلماء أو غيرهم، أو يراد بهم واجهة المؤسسة الدينية والقائمون بالوظائف الدينية كأئمة المساجد وخطباء المنابر والجمعة وسدنة العتبات المقدسة، أما الأحبار فهم العلماء وحملة العلم سواء كانوا صالحين أو فاسقين.

وذكر قول الإثم وأكل السحت من دون المنكرات لا يخص الآية بها لعدم الخصوصية ولدلالة آيات أخرى على العموم كقوله تعالى: [كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ] (المائدة: ٧٩)، وإنما ذكر قول الإثم وأكل

السحت خاصة لأنهما المذكورات في الآية السابقة [وتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ] (المائدة: ٦٢)، ولأنهما أصل المعاصي المتفشية في المجتمع. فقول الإثم يتضمن الغيبة والنميمة والكذب والافتراء والبهتان وإيذاء الآخرين والتضليل وترويح الشبهات وتحريف الكلم عن مواضعه والتغريب بالآخرين والتدليس عليهم وغيرها كثير.

أما أكل السحت فيشمل موبقات كثيرة كالفوائد الربوية والرشوة في القضاء وسرقة أموال الشعب وأخذ الأثمان على إلقاء الأحكام بغير ما أنزل الله تعالى، وشرعنة عمل الظالمين، والتطيف في الميزان وبيع المحرمات وأكل المال بالباطل والظلم ونحوها كثير.

فالآية تدعو إلى العمل بهذه الفريضة وتذم تاركها بأشد الذم، وهي عامة في دلالتها لكل المنتسبين إلى الشريعة، ولو قلنا بأن خطابها خاص لشريحة العلماء والمتدينين، فإن ذلك لا ينافي عموم الوجوب، وإنما خصت هؤلاء لأن الوجوب عليهم وأكد والامتثال متوقع منهم أكثر من غيرهم لمعرفةهم بعظمة هذه الفريضة وشدة وجوبها وسوء عاقبة تركها،

كما في ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام): (لنحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم)^(١).

ولا يرد هنا إشكال اجتماع وجوبين على موضوع واحد باعتبار الوجوب العام للفريضة الشامل للأخبار والربانيين، وهذا الوجوب الخاص المستفاد من الآية، لأن هذا الخطاب فيه مزيد تأكيد على هؤلاء الخاصة وتذكير بمسؤوليتهم المضاعفة عن الفريضة، مضافاً إلى نقاشنا في أصل الكبرى فإننا لا نمنع منها كما تقدم^(٢).

قال العلامة الطبرسي: ((فدَمَّ هؤلاء أي الربانيين والأخبار- بمثل اللفظة التي ذمَّ بها أولئك^(٣)، وفي هذه الآية دلالة على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه وفيه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))^(٤).

(١) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي، باب

البح ٣

(٢) انظر: أسمى الفرائض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القسم الأول ٢ ٩

(٣) يقصد قوله تعالى: [لِبَسِّ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] في هذه الآية وقوله تعالى: [لِبَسِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ] في الآية السابقة.

(٤) مجمع البيان: مج ٢، ٣٣٦

قال في ظلال القرآن: ((إن سمة المجتمع الخَيْرِ الفاضل الحي القوي المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهي، ولا على إيذاء الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

هكذا وصف الله الأمة فقال: [كُتِّمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] ووصف بني إسرائيل فقال: [كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ].. فكان ذلك فيصلاً بين المجتمعين وبين الجماعتين.

أما هنا فينحى باللائمة على الربانيين والأخبار، الساكتين على المسارعة في الإثم والعدوان وأكل السحت؛ الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب

الله)) (١).

أقول: ينبغي الالتفات إلى أن مطلوبة هذه الوظيفة من الربانيين وعلماء الدين لا تعني أن يتركوا كل أعمالهم ومسؤولياتهم وواجباتهم ويتفرغوا لأمر هذا ونهي ذلك ويترصدوا كل منكر لينهوا عنه ويراقبوا

أفعال الناس ويتجسسون عليهم ليأمرهم وينهوهم، فهذه سيرة غير عقلانية ولا متشرعية، وإنما عليهم أن يكونوا متصفين بهذه الصفة ويكون ديدنهم ذلك ويمتلكون حاسة الغضب لله تعالى إذا عصي، ولا يترددون في الامتثال عند تنجز التكليف.

((ثم إن قوله سبحانه: [يَفْعَلُونَ] إما مجاز؛ لأن الترك ليس فعلاً - على قول المشهور-، وإما حقيقة، ويراد بالفعل الذي أوجب تركهم الأمر والنهي، وذلك عبارة عن تكاليفهم على الدنيا وأخذهم الرشوة على سكوتهم والأول أقرب سياقاً والثاني أقرب والله العالم))^(١)

أقول: ليس في التعبير مجاز، وإنما هو على نحو الحقيقة؛ لأن الترك يصدق عليه فعل إذا اقترن بالقصد، كالصوم الذي هو كفٌّ عن المفطرات مقترناً بنية القربة إلى الله تعالى. مضافاً إلى أن التقريب الذي ذكره للاستعمال على نحو الحقيقة مقبول، ومراد من الشارع المقدس، وهو الالتفات إلى علل الأفعال قبل نفس الأعمال والعلاج لا بد أن يتناول العلل، وقد نبهنا على ذلك في خطابات متعددة.

(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)

[المائدة : ٧٩]

(الآية الخامسة): ونظير هذه الآية قوله تعالى: [كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

فَعَلَوْهُ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [(المائدة : ٧٩).

وهذه صريحة في ذم كل التاركين لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا اختصت الآية السابقة بالربانيين والأخبار.

في الدر المنثور بعدة أسانيد عن رسول الله (ﷺ) قال: (إن بني إسرائيل لما عملوا الخطيئة نهاهم علماءهم تعزيراً، ثم جالسوهم وآكلوهم وشاربوهم كأن لم يعملوا بالأمس خطيئة، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبي من الأنبياء، ثم قرأ رسول الله (ﷺ): والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهين عن المنكر، ولتأطرنهم على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم) (١).

وإلى هنا نكتفي بتقريب الاستدلال بهذه الآيات الكريمة.

(يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم)

[المائدة: ١٠٥]

إشكال التنافي مع آية اعلينكم أنفسكم:

ويحسن الآن التعرض إلى ما قيل من الإشكال بوجود التنافي ظاهراً بين هذه الآيات التي توجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فِئْتَبِّئْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ] (المائدة: ١٠٥).

وتقريب الإشكال أن آية [عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ] تضع عن المؤمنين وظيفه الدعوة إلى الله تبارك وتعالى و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتكتفي منهم بالالتفات إلى إصلاح أنفسهم، ويكون معنى [لَا يَضُرُّكُمْ] أي لا تبتة عليكم ولا مسؤولية شرعية؛ لسقوط التكليف عنكم.

ويظهر أن البعض اتخذ من هذه الآية ذريعة لترك هذه الفريضة منذ صدر الإسلام، ففي الدر المثلثور بأسناد عديدة ((صعد أبو بكر منبر رسول الله ﷺ) فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم لتتلون آية من كتاب الله وتعدونها رخصة، والله ما أنزل الله في كتابه أشد منها [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ] والله لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليعمنكم الله منه بعقاب)) (١).

أقول: آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأتي أن تكون هذه الآية حاکمة عليها على نحو النسخ والإلغاء كما يَصوِّرُ الإشكال، خصوصاً بعد جعل هذه الوظيفة سمة الأمة الإسلامية التي تتميز بها عن كل الأمم في قوله تعالى: [كنتم خير أمة]، وعليه فلا يحتمل سقوط فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بآية [عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ]، مضافاً إلى أن فهم آية [عليكم أنفسكم] على أنه ترك وظيفتي الدعوة والأمر والنهي قابل للمناقشة فيزول الإشكال من أصله.

وهذا ما سيتضح من خلال الوجوه التي نذكرها لمعالجة الإشكال،

ومنها:-

١- إن آية [عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ] تأتي بعد امتثال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالمعنى الذي تقدم^(١) في تفسير قوله تعالى: [قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ] (التحریم: ٦) وفي هذا المعنى رواية أوردها في الدر المنثور بطرق عديدة عن أبي أمية الشعباني قال: ((أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قال: قوله: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله (ﷺ) قال: (بل ائتمروا

(١) وكذلك انظر: أسمى الفرائض، القسم الأول: ٧٩

بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً، يعملون مثل عملكم)) (١).

وأخرج عن حذيفة وغيره في هذه الآية قال: ((إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر)).

٢- معنى [عليكم أنفسكم] أي أنتم مسؤولون عن صلاح أنفسكم والتزامها بأوامر الله تعالى ونواهيه ومنها فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير، وحيث لا تتحملون مسؤولية من ضل ممن هم مرتبطون بكم كأبائكم وأزواجكم ونحوهم، فتكون بمعنى قوله تعالى: [وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى] (الإسراء: ١٥) وقوله تعالى: [تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ] (البقرة: ١٣٤)، خصوصاً وأن المخاطبين يومئذ كان آباؤهم وبعض أقربائهم على الشرك، ويؤيد هذا المعنى ورود لفظ [إذا اهتديتم] هنا وفي الآية السابقة عليها [أُولُو كَان

(١) الدر المنثور، ج ٣، ٢١٥، وأوردها مختصرةً في تفسير البرهان: ٣، ٢٩٨ عن مصباح

أَبَاؤَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ] (البقرة : ١٧٠).

ويمكن أن يستفاد هذا المعنى مما رواه في الدر المنثور بسنده عن ابن عباس في تفسير الآية قال: ((إذا ما أطاعني العبد فيما أمرته من الحلال والحرام، فلا يضره من ضلَّ بعده إذا عمل بما أمرته به))^(١)، وعنه أيضاً قال إن مراد الآية: ((أطيعوا أمري واحفظوا وصيتي)) واختاره العلامة الطبرسي في المجمع^(٢).

٣- إن آية [عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ] خاصة بدعوة الكفار إلى الإسلام فترخص في تركها وترك الجهاد، وربما يستدل له باستعمال لفظ الهداية والضلال في الآية مما يناسب كون الخطاب بلحاظ دعوة الكفار، روى في الدر المنثور بسنده عن أبي عامر الأشعري ((إنه كان فيهم شيء فاحتبس على رسول الله ﷺ)) ثم أتاه فقال: ما حبسك؟ قال: يا رسول الله قرأت هذه الآية: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ] قال: فقال له النبي ﷺ: أين ذهبتم؟ إنما هي: لا يضركم من ضلَّ من الكفار إذا اهتديتم^(٣).

(١) الدر المنثور، مج ٣، ٢١٩

(٢) مجمع البيان، ج ٢، ٣٩٢

(٣) الدر المنثور، ج ٣، ٢١٥

أقول: هذا المعنى لا يمكن قبوله في فريضة الجهاد والدعوة إلى الله تبارك وتعالى كما لم يقبل في فريضة الأمر والنهي؛ لأن الدعوة إلى الخير من مقومات هوية هذه الأمة وعناصرها الأساسية كما تقدم في تقريب قوله تعالى: [ولتكن منكم].

٤- أن الآية خاصة بظرف التقية وحصول الضرر من ممارسة الفريضة

فتكون دليلاً على اشتراط عدم الضرر من الامتثال.

في الدر المنثور بطرقه عن ابن مسعود في قوله تعالى: [عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ] قال: ((مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر ما لم يكن من دون ذلك السوط والسيف، فإذا كان ذلك كذلك فعليكم أنفسكم))^(١) وروى مثله عن ابن عباس.

أقول: لا يدل ظاهر الآية ولا سياقها على الاختصاص بظرف التقية.

٥- أن يقال: إن هذه الآية تدل على الرخصة، فتحمل آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الظاهرة في الوجوب على الاستحباب كما هو مقتضى الصناعة.

وهو وجه يجري على القواعد المعمول بها لو كنا نحن

والآيات الشريفة، وعلى فرض ظهور الآية في هذه الرخصة، وروى في الدر المنثور عن الحسن أنه تلا هذه الآية فقال: ((يا لها من سعة ما أوسعها، ويا لها من ثقة ما أوثقها))^(١).
أقول: بغض النظر عن صحة الوجه فنياً، إلا أن فهم الرخصة بعيد لبعده الأثر المترتب عليها وهو قوله تعالى: [لا يضرّكم] إذ من المعلوم تضرر المجتمع بوجود الفساد والانحراف فيه، وأن عدم الردع عن المنكر يؤدي إلى انتشاره وفتكه في كيان المجتمع حتى يقضي عليه، قال تعالى: [وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً] (الأنفال : ٢٥).

مضافاً إلى أن نتيجة هذا الوجه مما لا يمكن قبولها لإجماع المسلمين على وجوب الفريضة في الجملة.

٦- إن آية [عليكم أنفسكم] تدعو المؤمنين إلى الثبات على الحق والاستقامة، وأن يلزموا ما هم عليه، ولا يتأثروا بما عليه أهل الضلال من النعم المادية والترغيب فيدعوهم ذلك إلى ترك ما هم عليه، فتقول لهم الآية: إن ما عندهم هو الخير فالزموه -الذي هو معنى عليكم- ولا يغرنكم ما فاتكم مما عند أهل الضلال فتضلوا مثلهم، فتضروا أنفسكم بالتأثر بهم، ولا تخافوا من أن

يكون لزوم طريقتكم المثلى سبباً لفوات النعم عليكم ونحوها.
 فيكون هذا المعنى قريباً من قوله تعالى: [وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ
 إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ
 رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى] (طه : ١٣١)، وقوله تعالى: [لَا يَغْرَنَّكَ تَقَلُّبُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
 الْمَهَادِ] (آل عمران : ١٩٦-١٩٧)، وقوله تعالى: [وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ
 الْهَدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِطُّفُ مِنْ أَرْضِنَا] (القصص: ٥٧)، وهو ما يريد الله
 تعالى حماية عباده منه في قوله تعالى: [وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ
 أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبِئُوتَهُمْ سَقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ
 وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبِئُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَوَّنُونَ،
 وَزَخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ
 لِلْمُتَّقِينَ] (الزخرف : ٣٣).

٧- ما يقرب من قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا أصلحكم بفساد
 نفسي) ويكون معنى الآية: التفتوا أولاً إلى إصلاح أنفسكم ولا
 تشغلوا بالعمل على إصلاح المجتمع وتضييعوا أنفسكم، فإذا
 لزم الانهماك بالعمل الاجتماعي تضييع أنفسكم فتركه أولى
 والالتفات إلى تهذيب النفس وتكميلها.

وهذه مشكلة كبيرة أفرزها واقع العمل الإسلامي الاجتماعي

والحركي، والمتصدين له على أوسع مستوياته لكنهم عندما يتعرضون لامتحانات التقوى والاستقامة ينهارون، وقد شخّصت هذه المشكلة في جملة من خطباتي.

وتدل عليه فيما نحن رواية علي بن إبراهيم في تفسيره الآية عن النبي (ﷺ) قال: (أصلحوا أنفسكم فلا تتبعوا عورات الناس ولا تذكرونها، فإنه لا يضركم ضلالتهم إذا كنتم أنتم صالحين) (١).

وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذه النكتة في آيات عديدة كقوله تعالى: [فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا] [الكهف: ٦-٧]، وقوله تعالى: [وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لَلَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا] (الرعد: ٣١).

أقول: والخلاصة أن على المؤمن أن يراقب الله تعالى في حركته ولا يشغله شيء عن إصلاح نفسه ويوظف كل عمل لهذا الغرض، ومن تلك الأعمال الدعوة إلى الله تعالى و الأمر

(١) البرهان في تفسير القرآن: ٣ ٢٩٨ عن تفسير القمي: ١ ١٨٨

بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يكلف نفسه أكثر من ذلك،
فإن النتائج بيد الله تعالى وهو مدبّر الأمور ومسبب الأسباب.
وهذا الوجه اختاره السيد الطباطبائي في الميزان (قُلِّبُوا):
(إن الآية لا تنافي آيات الدعوة وآيات الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر فإن الآية إنما تنهى المؤمنين عن الاشتغال بضلال
الناس عن اهتداء أنفسهم وإهلاك أنفسهم في سبيل إنقاذ غيرهم
وإنجائهم.

على أن الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر من شؤون اشتغال المؤمن بنفسه وسلوكه سبيل ربه،
وكيف يمكن أن تنافي الآية آيات الدعوة والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر أو تنسخها؟ وقد عدّهما الله سبحانه من
مشخصات هذا الدين وأسسها التي بنى عليها كما قال تعالى:
[قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي]
(يوسف: ١٠٨) وقال تعالى: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ] (آل عمران: ١١٠).

فعلى المؤمن أن يدعو إلى الله على بصيرة وأن يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر على سبيل أداء الفريضة الإلهية

وليس عليه أن يجيش ويهلك نفسه حزنا أو يبالغ في الجد في تأثير ذلك في نفوس أهل الضلال فذلك موضوع عنه))^(١).

٨- ما يشبه الوجه الخامس بتطبيقه على المجتمع وذلك بأن نفهم من [أنفسكم] العموم المجموعي لا الاستغراقي؛ لأن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فيكون المعنى: عليكم أن تلتفتوا إلى صلاح وإصلاح مجتمعكم من خلال إصلاح أنفسكم، وحينئذ يكون قوله تعالى: [لا يضرركم] إما من باب التطمين من قبل الله تعالى بأنهم لا يضرهم الضالون، بمعنى أن ضلالهم لا يسري ولا يصل إليكم ما دتم عاملين على إصلاح بعضكم بعضاً، فتكون من آيات الحث على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو تكون بمعنى أنهم ليس عليهم تضييع وظيفتهم أمام مجتمعهم من أجل أن يلتفتوا إلى إصلاح حال الآخرين.

وهذا المعنى أورده في مجمع البيان وقال: ((إن هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله تعالى خاطب بها المؤمنين فقال: [عليكم أنفسكم] يعني عليكم أهل دينكم - كما قال: [ولا تقتلوا أنفسكم] - لا يضركم من ضل

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٦٣٦

من الكفار، وهذا قول ابن عباس في رواية عطا عنه، قال: يريد يعظ بعضكم بعضاً وينهى بعضكم بعضاً ويعلم بعضكم بعضاً ما يقربه إلى الله ويبعده عن الشيطان ولا يضركم من ضل من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب))^(١).

وأيضاً احتمله السيد الطباطبائي، قال (قَدْ رَوَى): ((وتسع الآية أن تحمل على الخطاب الاجتماعي بأن يكون المخاطب بقوله: [يا أيها الذين آمنوا] مجتمع المؤمنين فيكون المراد بقوله: [عليكم أنفسكم] هو إصلاح المؤمنين مجتمعهم الإسلامي باتخاذ صفة الاهتداء بالهداية الإلهية بأن يحتفظوا على معارفهم الدينية والأعمال الصالحة والشعائر الإسلامية العامة كما قال تعالى: [واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا] (آل عمران: ١٠٣) وقد تقدم في تفسيره أن المراد بهذا الاعتصام الاجتماعي الأخذ بالكتاب والسنة.

ويكون قوله: [لا يضركم من ضل إذا اهتديتم] يراد به أنهم في أمن من أضرار المجتمعات الضالة غير الإسلامية فليس من الواجب على المسلمين أن يببالغوا الجد في انتشار الإسلام بين الطوائف غير المسلمة أزيد من الدعوة المتعارفة كما تقدم.

وهنا معنى آخر لقوله: [لا يضرّكم من ضل إذا اهتديتم] من جهة أن المنفى في الآية هو الإضرار المنسوب إلى نفس الضالين دون شيء معين من صفاتهم أو أعمالهم فتفيد الإطلاق، ويكون المعنى نفى أن يكون الكفار ضارين للمجتمع الإسلامي بتبديله مجتمعاً غير إسلامي بقوة قهرية فتكون الآية مسوقة سوق قوله تعالى: [اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون] (المائدة: ٣)، وقوله: [لن يضرّوكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار] (آل عمران: ١١١))^(١).

٩- ما ذكرناه في بعض كتبنا^(٢) من أن التكاليف على قسمين: الفردية والاجتماعية، ونعني بالأولى تلك التي توجّه إلى الفرد بما هو فرد من دون ارتباطها بتكليف الآخرين، كالصلوات اليومية التي يجب على الفرد القيام بها سواء امتثل الآخرون أم لا، أما الثانية فهي التي يخاطب بها الفرد بما هو جزء من المجتمع، وهذا الفرق ناشئ من كون امتثال الأولى يؤتي ثماره سواء أدى الآخرون أم لا بعكس الثانية.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٦ ١٦٧ ١٦٨

(٢) خطاب المرحلة: ١ ٢٩٢ ٢٩١

فآية [عليكم أنفسكم] بلحاظ الأولى أما وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي من الثانية، فموضوعهما مختلف.

القبس القرآني-

١٢

أعطوا للقرآن الكريم دوراً متميزاً في حياتكم^(١)

بعض المتحدثين حينما ترد الآيات القرآنية في كلامه يميّزها بالإلقاء عن بقية كلامه فيرتّلها، وكذلك دأبت دور النشر في السنين الأخيرة على تمييز الآيات القرآنية بالخط عن بقية الكتاب فتوضع بنفس الرسم القرآني، ولعل غرضهم في ذلك لتنبية القارئ إلى عدم مسّها إلا بطهور ونحوها من الأغراض.

وهذا الفعل المبارك وهو تمييز النصوص القرآنية عن غيرها في محلّه لكننا نفهم منه معنى أوسع من هذا الذي أرادوه، لأنّ نظم القرآن ومعانيه

() من حديث سماحة الشيخ يعقوبي مع حشد من طلبة الجامعات والشباب من السماوة وهيئة الوعي للجميع من بغداد يوم السبت ٥ / ٢ / ١٤٣٤ المصادف ١٦ / ٢٠١٣٢.

من صنع الخالق تبارك وتعالى فمن الطبيعي أن تتميز عن صنع المخلوقين مهما كانوا متقنين للفصاحة والبلاغة.

يروى صاحب كتاب (في ظلال القرآن) انه كان على ظهر باخرة مسافراً إلى الولايات المتحدة وفي يوم الجمعة أقام صلاة الجمعة وألقى خطبتها، وكان المسافرون من أديان شتى ولغات مختلفة، فوقف غير المسلمين ينظرون إلى هذا المشهد الغريب عنهم، بينهم سيّدة يوغوسلافية كانت تنصت وتتابع حتى انتهى من الصلاة فسألها عن معنى انشادها وهي لا تفهم العربية، فقالت: لا أدري لكنني وجدت نفسي منجذبة إلى الجو الذي أوجده كلماتك وقالت أن الذي لم أستطع تفسيره هو أن كلمات تخللتها خطبتك كانت تشدني وتجذبني أكثر ولا أعرف لماذا؟ يقول سيد قطب لكنني أعرف أنها الآيات القرآنية التي كنت أضمنها في خطابي.

هذا هو القرآن الكريم في تأثيره على النفوس وبشفائه للروح وانسجامه مع الفطرة وتطهيره القلب الذي لم يطبع عليه الرين حتى وإن لم يكن يفهم ألفاظه، وهذا هو القرآن الكريم في تميزه عن كلام المخلوقين، وهذا مظهر من مظاهر إعجازه، وربّانية صنعه ومصدره.

خلافاً لما يرد في الإشكال الذي واجهه رسول الله (ﷺ) ويردده اليوم مدعو الحداثة والتجديد الفوضوي غير المنضبط، وهو أن القرآن من صنع البشر سواء كان النبي محمد (ﷺ) نفسه أو غيره ممن يزعمون أنه علّمه،

وأجاب القرآن بوضوح (وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) (النحل/١٠٣) وقال تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء/٨٢).

هذا التمييز للقرآن الكريم يجب أن نحافظ عليه في حياتنا فنعطيه هذا الدور المتميز عن غيره من سائر أولوياتنا فنواظب على تلاوته ونتدبر في آياته ونتخذة دستوراً في حياتنا لا نحيد عنه، ونبراساً يضيء لنا الدرب، ومرجعاً لنا في كل قضاياها وحل مشاكلنا.

فلا نبخل على القرآن بدقائق يوماً في أوقات صلواتنا أو فراغنا لتتلو عدداً من الآيات الكريمة، وقلت مراراً أن الأولى أن تكون في مصحف مؤطر بتفسير بسيط لمفرداته وآياته كتفسير شبر لنحيط ولو إجمالاً بالمعاني العامة للقرآن الكريم، وهو كتاب جليل وضعه مؤلفه بعد مراجعة عدة تفاسير واطّلع على الأقوال المختلفة. وليكن لكل فرد من الأسرة نسخة واحدة على الأقل من المصحف تختص به، والأفضل أكثر من نسخة، هذا غير المصاحف الأخرى الموجودة في الدار.

وأؤكد عليكم أيها الشباب بالعمل بهذه النصيحة فإنكم في بداية حياتكم ونقطة الانطلاق لتأسيس مستقبلكم، فعندما يكون الأساس هو القرآن الكريم وعلومه ومعارفه فإن المستقبل يكون سعيداً قوياً مثمراً

بلطف الله تبارك وتعالى، وفي كل الميادين سواء في دراستك أو عملك وكسبك أو في علاقاتك مع أهلك والآخرين، فضلاً عن العلاقة السامية مع ربك والنبى وآله الطاهرين (عليهم السلام).

وقد جربت ذلك في حياتي عندما كنت في بداية العشرينيات من عمري ومن الله تعالى عليّ بالأنس بالقرآن وملازمة له ولازمت أحيى بركاته والحمد لله وحده.

الحل والعلاج في العودة إلى الله تبارك وتعالى (١)

علّة البلاء:

من الحقائق التي بينها الله تبارك وتعالى من خلال القرآن الكريم لثبوتها في قلوب وعقول المؤمنين أن ما يصيبهم من بلاء وعنّت وضيق وشدة فإنما هي نتيجة أعمالهم السيئة [وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ] (الشورى: ٣٠) [فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ] (النحل: ٣٤) [مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ] (النساء: ٧٩)، ويلفت أنظار المسلمين من أصحاب رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهم في قمة المواجهة العسكرية مع مشرقي قريش في معركة أحد أن هزيمتهم كانت بسبب عدم تهذيب أنفسهم فهذا هو السبب الحقيقي وليس الأسباب المادية [إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا] (آل عمران: ١٥٥).

الله تعالى يعلمنا طريق الحل:

وفي نفس الوقت يعلمنا الحل وسبيل النجاة من هذه المعاناة.

(١) من النصائح والمواعظ التي كان يوجهها سماحة الشيخ (دام ظله) إلى الأمة من خلال

أئمة الجمعة خلال فترة المواجهات المسلحة عام ٢٠٠٤

انه بالعودة إلى الله تبارك وتعالى والتضرع إليه والتوسل إليه تبارك وتعالى وتصفية القلوب مما فيها من غلٍّ وضغائن وريزائل كالحسد والعجب والكراهية والأناية [ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطع على قلوبهم فهم لا يسمعون] (الأعراف: ٩٦-١٠٠).

والمراد بالبأس هنا ليس الاستئصال كما كان يحصل للأمم السابقة على الإسلام، فإن مثل هذا العذاب قد رفع عن هذه الأمة ببركة النبي (ﷺ)، ولكن الأمة بقيت معرضة -بسوء تصرفها- لألوان أخرى من العذاب: نقص الثمرات، وقوع الفتن والحروب بينهم فيذيق بعضهم بأس بعض، تداعي الأمم الأخرى عليهم لاستعبادهم، وهذه البلاءات كلها قد نزلت بالأمة والعياذ بالله. وقال تعالى [ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب] (الطلاق: ٢-٣)، ويخاطب الأمم التي تتخبط في جهلها وغفلتها وبعدها عن الطريق الحقيقي [قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا] (سبأ: ٤٦) أي أن تلتفتوا إلى أنفسكم فتعودوا إلى الله تبارك وتعالى أفراداً وجماعات وتجأرون إلى الله بالدعاء والاستغاثة.

وهذا لا يعني أن هذا القيام لله تبارك وتعالى واللجوء إليه مختص بحال الاضطرار، إذ المطلوب أن يكون الإنسان في كل حالاته ذاكراً لله تعالى مستجيراً به طالباً منه التوفيق والتثبيت على الإيمان والزيادة من عمل الخير والتأييد، بل إنه سبحانه يعرض مستغرباً مثل هذا النموذج الذي لا يعرف الله إلا في أوقات الضيق والشدة كأنقطع السبل في البحر الهائج [فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّكَ دَعَاؤَ اللَّهِ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ] (العنكبوت: ٦٥)، ولا يقصد الشرك الظاهري أي عبادة الأصنام ونحوها لأنه خلاف دعوتهم لله مخلصين، وإنما يريد الشرك الخفي أي الإعراض عن الله والالتجاء إلى الأسباب من دونه.

ويضرب لنا مثلاً في قوم يونس فإنهم قد أحيطوا بعذاب، وظن نبينهم أنهم قد أخذوا ولم تبق فرصة لنجاتهم، فغادر المدينة إلا أنهم عادوا إلى الله وخرجوا جميعاً مستغيثين بالله أن يرفع عنهم البلاء، فاستجاب الله تبارك وتعالى لهم ونجاهم [فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَّنتْ فَفَنَعَهَا إِيمَانَهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا أَمَّنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ] (يونس: ٩٨).

وابتغوا إليه الوسيلة:

ولا يتم هذا الاتصال بالله تبارك وتعالى وينتج ثمراته إلا بولاية أهل البيت والتوسل بهم إلى الله تبارك وتعالى وإدامة ذكرهم وإقامة شعائرهم

والاستغاثة بالإمام القائم بالأمر (عجل الله تعالى فرجه)، قال تعالى [وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى] (طه: ١٢٤) وقد ورد في الروايات أن الذكر هي ولاية أهل البيت (عليهم السلام) فمن لم يتمسك بهم يكن في عيشة ضيقة تعيسة خالية من الإمدادات الروحية.

يروى عن الإمام الهادي (عليه السلام) قوله ما معناه إذا ضاقت بنا الأمور دعونا الله تبارك وتعالى بـ(يا من تحل به عقد المكاره ...) وهو من أدعية الصحيفة السجادية ويوجد في كتاب مفاتيح الجنان.
هكذا علمنا الله تبارك وتعالى وهكذا أدبنا أهل البيت (عليهم السلام) فأين نحن من ذلك التأديب الذي يراد منه نفعنا وسعادتنا ؟

الانفعال والارتجالية:

أنا لا أنكر تقدم المستوى الإيماني لدى هذا الجيل بفضل الله تبارك وتعالى بشكل أذهل الأعداء وأصاب خطتهم بالخيبة والخسران، إلا أنه مع الأسف في كثير من حالاته عبارة عن وهج عاطفي وحرارة متدفقة غير مقترن بوعي عميق وتربية راسخة للقلب والنفس، مما يجعل هذه الاندفاعات في مهب الريح -والعياذ بالله- إذا لم تتداركها بما يصلحها.

وإلا بماذا تفسر انتشار الافتراء والبهتان والتسقيط والتشويه بين المؤمنين بل أصبح شغل الكثير من أهل الغفلة هو ذم العلماء والمراجع والقدح فيهم

وانتقادهم، ولا أدري من أين نال هؤلاء القيمومة على الآخرين ليعطوا لهم الحق في تقييم أعمال المراجع والمفكرين؟! ألم يسمعوا الحديث الشريف (إن حرمة المؤمن عند الله أعظم من الكعبة)، فالاعتداء على سمعة المؤمن وكرامته وتشويه صورته اشد من الاعتداء على الكعبة، أو على العتبات الطاهرة للأئمة المعصومين (عليهم السلام) -رغم أنها من الجرائم الشنيعة-، فهل التفت المؤمنون إلى هذه الكبائر التي تورطوا فيها، وعميت بصائرهم عن رؤيتها حتى تنشر صحائف أعمالهم أمام الحكم العدل [فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ] (ق: ٢٢).

هل غضبنا لله تعالى أم لأنفسنا؟

وهل غضبوا لانتهاك حرمة المؤمنين أم على العكس إنهم خاضوا في هذه الكبائر وشربوا كأسها حتى الثمالة، حتى أن بعض أئمة الجمعيات استغلوا هذا الموقع الإلهي الذي يعبر عنه الإمام (عليه السلام) (اللهم إن هذا مقام أوليائك وخلفائك) استغلوه للمهاترات الكلامية وتصفية الحسابات الشخصية ولانتقاد العلماء.

التربية إلى نصف الطريق:

عن هذا النقص في تربية المشتغلين بالعمل الاجتماعي الإسلامي والأسف من عدم اكتمال التربية قال الشهيد السيد محمد باقر الصدر رائد

الحركة الإسلامية في العراق^(١). ((إننا استطعنا أن نربي الآخرين إلى نصف الطريق)) وعلق عليه الشهيد السيد محمد الصدر (قده): ((ولم يقل إلى نهايته لأنه لو كان الأمر كذلك لما حصل أي شيء من تلك النتائج. ولو كان أولئك المتدينون قد أصلحوا أنفسهم قبل إصلاح الآخرين، وما رسوا المقدمات المنتجة لصفاء النفس ونور القلب وعمق الإخلاص وقوة الإرادة وعفة الضمير لما عانوا ما عانوا، بل ولعلمهم لم يحتاجوا في الحكمة الإلهية إلى كل هذا البلاء الذي وقع عليهم، وإنما كانوا مع شديد الأسف مصداقاً لقوله تعالى [وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ] (محمد: ٣٨) ولم يكونوا مصداقاً لقوله تعالى [الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ] (الحج: ٤١))، وليس ذلك إلا لان الأفراد التامين من جميع الجهات والأوصاف الجامعين للشرائط عددهم قليل، وأقل من الحاجة بكثير)).

المعركة الكبرى:

أيها الإخوة والأخوات زادهم الله بصيرة:

إننا مطالبون بمحاربة الشياطين في أنفسنا الأمانة بالسوء قبل كل شيء،

١ من بحث بعنوان (التربية الدينية) كتبه السيد الشهيد الصدر الثاني أيام إقامته الجبرية

في الثمانينات وهو مخطوط محفوظ عندي، ونشر ضمن سلسلة (حديث الروح).

ومهما تعاظمت شياطين الجن والأنس فإنها دون هذا العدو الأكبر الذي وصفه الحديث الشريف (أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك)، بل إن كل شياطين الإنس هي ثمرة هذا الشيطان ولو أصلحنا ما في نفوسنا لم يبق شيء من تلك الشياطين؛ لذا سمى النبي (ﷺ) جهاد النفس بالجهاد الأكبر ومعناه أن العدو في هذا الجهاد هو العدو الأكبر. وجهاد الأعداء الآخرين مهما تفرعنوا بالأصغر.

النصر الحقيقي:

إن نصرنا الحقيقي حينما نستطيع سحق أهوائنا وأنانياتنا ونزيل الغل والحقد والكراهية وحب الدنيا بكل أشكالها (وأخطرها حب الرئاسة والتسلط وتصفيق الجماهير) والحسد والرياء والعجب والتكبر والعنجهية والاستعلاء وغيرها من الرذائل، ونملاً قلوبنا بالحب والرحمة والشفقة والعفو والصفح والتآلف والمودة والصبر وكظم الغيظ وغيرها من الفضائل.

هذه هي وصايا أهل البيت (عليهم السلام) وهذه تربيتهم، حتى حينما كان يظن شيعتهم أن الفرصة قد حانت وإن الثمرة قد آن قطافها، كانوا (عليهم السلام) دائماً يذهبون في الاتجاه الآخر غير الذي يفكر به الآخرون مهما قربوا من الإمام (عليه السلام)، وهو اتجاه محاسبة النفس ومراقبتها وعرضها على الميزان الذي نصبه أهل البيت (عليهم السلام)، وأقرأ كشواهد على ذلك أقوال الإمام الصادق (عليه السلام) لمن عرضوا عليه النصرة وتسليم مفاتيح السلطة بعد القضاء على

الأمويين، ونصائح الإمام الرضا (عليه السلام) للذين خرجوا لاستقباله على طول الطريق من المدينة المنورة إلى مرو.

ابتعادنا عن أدب السلف الصالح:

إننا ضيعنا حتى الحد الأدنى من ذكر الله تعالى وهو الالتجاء إليه عند الاضطرار، فها هو البلاء يحيق بنا والأعداء يتربصون بنا ولا أجد المؤمنين يعقدون مجالس الدعاء والتوجه إلى الله تعالى والاستغاثة بالمعصومين (عليهم السلام) والتوسل إلى صاحب الأمر (عجل الله تعالى فرجه) كي يتولانا برعايته مع عدم الإخلال بالواجبات الأخرى طبعاً، يروي لنا سلفنا انه إذا مر بهم بلاء اجتمعوا في المساجد والحسينيات للدعاء ولذكر مصائب أهل البيت (عليهم السلام) وزيارتهم، وكان طلبة العلم في النجف يتوجهون مشياً على الأقدام إلى مسجد السهلة مستغيثين بالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) أو كربلاء لزيارة الحسين (عليه السلام) أو أي مسجد جامع لأبناء المدينة فيرفع الله عنهم البلاء، كما فعل بقوم يونس، بل ما حصل لنفس النبي يونس (عليه السلام) فانه لما نادى [إِلَهِهِ إِلَّا إِلَهُهُ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ] (الأنبياء: ٨٧) جاءه الغوث والخلص [فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ] (الأنبياء: ٨٨) وقال تعالى [فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ] (الصافات: ١٤٣ - ١٤٤).

لذا يبين الإمام المهدي (عليه السلام) امتعاضه من شيعةه لأجل هذه الغفلة عن

الله تعالى وعن أهل البيت (عليهم السلام) في كثير من اللقاءات معه (عليه السلام) ومنها قصة السيد الرشتي المذكورة في مفاتيح الجنان لما ضلَّ الطريق في ظروف صعبة قال له موبخاً لماذا تتركون زيارة عاشوراء والنافلة وزيارة الجامعة الكبيرة^(١)

هذا هو الحل وهذا هو طريق النجاة أن نقوم لله تعالى مثني وفرادي متآلفين ومتحابين أنقياء القلوب أصفياء النفوس ونعمل بوصايا المعصومين (عليهم السلام) ونتأدب بأدبهم ونترك التعصب والتشنج والتطرف والأنانية وحب الدنيا.

[قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ] (هود: ٨٨).

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ) (١) رفض العيشية في الحياة

[آل عمران : ١٩١]

درس بليغ من النبي ﷺ :

نحن في جوار رسول الله (ﷺ) وفي ضيافته، ونحب أن نقف عند محطة من حياته الشريفة (ﷺ) وسلم) ففي الرواية إنه (ﷺ) وسلم) كان إذا استيقظ من نومه (١) في جوف الليل قلب طرفه في السماء متأملاً ويقرأ الآيات الكريمة العشر في أواخر سورة آل عمران وهو يبكي [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، رَبَّنَا

(١) كلمة ألقاها سماحة الشيخ (دام ظله) في المدينة المنورة في موسم الحج ١٤٣١ هـ -

حيث دعي لحضور الملتقى الثقافي الذي يقيمه الشيخ طاهر الهاجوج في الموسم في الحسينية الكبيرة التي أنشأها، وكان في استقبال سماحة الشيخ الهاجوج وعدد من الوجهاء، وحضر الملتقى عدد من العلماء وممثلي البعثات والمرجعيات الدينية من النجف الأشرف وقم المقدسة. وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٤ ذو القعدة هـ الموافق

٢٠١٠ ١١ ٢

(٢) الدر المنثور للسيوطي في تفسير الآية.

إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا
مَنادِيًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رِسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

خلقنا للمعرفة:

[رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ] أيها الأحبة:

نحن لم نخلق في هذه الدنيا عبثاً وبلا غرض، قال تعالى: [وَمَا
خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ
مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ] (الأنبياء: ١٦-١٧). فلا بد أن نلتفت إلى هذا
الغرض الذي خلقنا من أجله ليكون ماثلاً أمامنا دوماً ولنكرس حياتنا من
أجله، قال تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] (الذاريات: ٥٦).

وورد في تفسير الآية عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (خرج
الحسين بن علي (عليه السلام) على أصحابه فقال: أيها الناس إن الله جل ذكره ما
خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن
عبادة من سواه) (١) ومما ورد في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة

(١) علل الشرائع للشيخ الصدوق: باب ٩ علة خلق الخلق.

(إلهي علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن تتعرف إليّ في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء).

فالغرض من وجودنا هو التعرف إلى الله تبارك وتعالى وعبادته بحقيقة العبادة، بأن يكون الله تبارك وتعالى كقطب الرحى الذي ندور حوله وإلى هذا المعنى يشير الطواف بالكعبة، وأن يكون تبارك وتعالى محور حياتنا في كل حركاتنا وكل سكناتنا ومشاعرنا وعواطفنا ومواقفنا التي نتخذها في حياتنا.

المعرفة غير التصومع:

وهذا لا يعني أن نترهب ونعتزل الدنيا في الصوامع والكهوف، بل بالعكس فإن هذا الهدف يدفعك إلى أن تخوض الحياة بكل تفاصيلها وتمارسها بشكل طبيعي لتؤدي رسالتك ولكن عليك أن توظف كل ممارساتك لهذا الهدف، لقد كان الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين) عباداً مخلصين لله تبارك وتعالى ومعصومين عن الالتفات إلى غيره ومع ذلك فقد كانوا يمارسون حياتهم الطبيعية كأى إنسان، فلا منافاة. فالعمل والكسب يمكن أن يجعله الإنسان لاكتناز الأموال وزيادة أرصدته في البنوك للمباهاة والتفاخر ولا يخرج حقوقه الشرعية فيكون وبالاً عليه، ويمكن أن يجعله للتعفف مما في أيدي الناس وللإنفاق في وجوه

البر والإحسان ومساعدة المحتاجين والحج والزيارة وتزويج المؤمنين ودعم المؤسسات الخيرية فينال رضا الله تبارك وتعالى ويحقق الهدف.

والأكل مثلاً يمكن أن يجعله لحفظ البدن الذي هو واجب وللتقوي على العبادة ونحوها من الأهداف الصحيحة، والزواج الذي فيه إشباع للشهوة والغريزة يمكن وضعه في هذا السياق بأن يجعل غرضه إقامة سنة الله تبارك وتعالى وصيانة النفس والزوجة من الحرام وإدخال السرور على رسول الله (ﷺ) وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام) وتكثير نسمات الموحدين وبناء أسرة صالحة وإدخال السرور على امرأة مؤمنة ونحوها من النيات المباركة وهذا إنما يتحقق حينما يكون الإنسان دائم الذكر لربه مستحضراً وجوده المقدس والإنسان غير المعصوم لا يكون كذلك على الدوام ولكن ليحفظ هدفه الذي يسعى لتحقيقه، ولو أدركته غفلة أو انساق وراء شهوة فليعد فور تذكره إلى ربه قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ] (الأعراف: ٢٠١).

أوثق العرى:

ونحن أتباع أهل البيت (عليهم السلام) متمسكون بأوثق العرى الموصلة لمعرفة الله تبارك وتعالى الدالة على عبادته وأعظم الوسائل لنيل رضاه، والضامن الأكيد لسلامة المسير إلى الله تبارك وتعالى والصائنة من الانحراف عن الصراط المستقيم، ففي تنمة رواية علل الشرائع المتقدمة

(فقال له رجل: يا ابن رسول الله بأبي أنت وأمي فما معرفة الله؟ قال: معرفة أهل كل زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته) لأن من لا يعرف إمام زمانه ولا يأخذ عنه فإنه لا يعرف الله حق معرفته، ومن يعتقد أن ربه يتركه بلا إمام يهديه فقد ضل سواء السبيل، وقد ورد في الدعاء (اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني).

وابتغوا إليه الوسيلة:

وقد أمر الله تبارك وتعالى باتخاذ هذه الوسيلة لنيل رضاه قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ] (المائدة: ٣٥) وهي ولاية أهل البيت ومودتهم كما دلت عليه الروايات ويمكن الاستفادة هذا المعنى من القرآن الكريم بالجمع بين الآيتين الكريمتين [قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا] (الفرقان: ٥٧) وقوله تعالى: [قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ] (الشورى: ٢٣). فالسبيل هي مودة أهل البيت (عليهم السلام) وقد أمرت آية سورة المائدة باتخاذها وسيلة.

كل مخلوق ميسر لما خلق له:

ومن لطف الله تعالى بعباده وحكمته في تدبير شؤونهم وتغطية كل مساحات الحياة أنه نوّع الطاعات والقربات الموصلة إليه وأعطى لعباده إمكانيات ومؤهلات مختلفة، فبعض أعطي العلم النافع فهو يتقرب إلى الله بإرشاد الناس وتعليمهم معالم دينهم وهدايتهم، وآخر أعطي المال ليتقرب إلى الله بإنفاقه في وجوه البر والإحسان، وآخر أعطي أخلاقاً كريمة يعاشر بها الناس فيحبه الله تبارك وتعالى.

فهذا التنوع في القناعات والاختلاف في أداء الأعمال الموصلة إلى الله تعالى رحمة بالعباد كما في الحديث النبوي الشريف (اختلاف أمتي رحمة)، وهنا شقشقة أريد أن أبوح بها لأن مجتمعنا مبتلٍ بها في جميع البلدان وليست خاصة ببلد فقد بلغني أنها موجودة هنا في المملكة وإيران والبحرين ولبنان كما هي موجودة عندنا في العراق وهي عدم التعاطي مع هذا التنوع بايجابية، بل بحساسية مفرطة وسوء ظن تصل إلى حد التقاطع وتبادل الاتهامات والتسقيط وربما التكفير في بعض الحالات والعياذ بالله، وهذه حالة مرفوضة ولا مبرر لها من سيرة أهل البيت (عليهم السلام) وتعاليمهم وتوقع أصحابها في الكبائر. مع ما فيها من حرمان للأمة من طاقات فاعلة وحركات مؤثرة.

لقد شبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمة بالسفينة التي تتحرك بحركة واحدة نحو ساحل الأمان ولو شاء أحد أن ينفرد برأيه ويخرج من حركة الأمة

ويقلع خشبته من السفينة فإن الأمة تغرق فلا بد من حركة تكاملية لعناصر المجتمع يتم بعضهم دور بعض ويشكل كل واحد المساحة التي يستطيع التحرك فيها، وليست حركة تقاطعية عدائية، أجارنا الله تعالى وإياكم من مضلات الفتن.

(ولتنتظر نفس ما قدمت لغد)^(١)

[الحشر : ١٨]

لنراجع أنفسنا:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَتَنْتَظِرَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمْتَ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] (الحشر: ١٨-١٩).

(ولتنتظر نفس ما قدمت لغد) هذا الغد ليس يوماً واحداً وإنما هو زمان واسع فسيح يبدأ من موت الإنسان ولا ينتهي عند عرصات القيامة والحساب بل هم فيها خالدون: فريق في الجنة وفريق في السعير نعوذ بالله. فإله تبارك وتعالى يدعونا في هذه الآية إلى أن نراجع أنفسنا وننظر ماذا قدمنا لهذا الغد المجهول العصيب الذي فيه أهوال وصعوبات لا يعلمها إلا هو تبارك وتعالى، لا نعرف نحن عنه شيئاً ولا نعرف ما معنى أن

(١) في يوم الجمعة ٢٧ ذو القعدة ١٤٣١ هـ الموافق ١١ ٥ ٢٠١٠ م أقدم سماحة الشيخ (دام ظله الشريف) على خطوة تاريخية مباركة وغير مسبوقه -على الأقل في العقود القريية المنصرمة- فقد أقام سماحته أول صلاة جمعة في مكة المكرمة في مقر إقامته، وقد ألقى سماحته خطبتي صلاة الجمعة مرتدياً ثوب إحرامه حيث أعاد إلى الأذهان تلك الأجواء التي عاشها المؤمنون في العراق أيام إقامة صلاة الجمعة في مسجد الكوفة المعظم من قبل السيد الشهيد الصدر الثاني (رحمته) وبكى فيها (دام ظله) وأبكى العيون لأكثر من مرة لما تضمنته الخطبة من مواعظ. وما في المتن الخطبة الأولى منها.

ننظر لهذا الغد حتى نستعد له ونهيئ له ما يناسبه، لكن الله تبارك وتعالى هو ولي هذا الغد وملك هذا الغد وخالق هذا الغد بين لنا ما ينفعنا في تلك الحياة وحاشا لله تبارك وتعالى الرحيم الرؤوف بعباده المحسن إليهم أن يتركهم سدى، قال تعالى [وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ] (البقرة: ١٩٧).

سفر الآخرة:

خذوا مثلاً: سفركم هذا إلى الحج وهو سفر قصير لا تتجاوز مدته الشهر ومعكم إدلاء يرشدونكم ومتعهدون يتولون إدارة شؤونكم ورفقة وإخوان وجهات توفر لكم الخدمة والمنزل والطعام ومع ذلك فإن أحدكم يستعد له منذ مدة طويلة ويتحسب لكل احتمال ويعد كل ما يحتاجه من دقائق الأمور ويعيد النظر في جهازه خشية أن يكون قد نسي شيئاً. فكيف بسفر الآخرة الذي لا أمد له ولا معين ولا رفيق ولا زاد إلا عملك فإنه قرينك صالحاً كان أو سيئاً والعياذ بالله تعالى وزادك التقوى التي يطلبها الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء يوم عرفة (اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك وأسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك)^(١).

(١) مفاتيح الجنان ١٣ ٤

وهذا المستوى الذي يطلبه الإمام الحسين (عليه السلام) ويحثُّ على الوصول إليه هو مستوى [اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ] وهو لا يتيسر إلا لعباد الله المخلصين ولكن لا مانع من طلبة والسعي لتحصيله من خلال تطبيق الآية الأخرى [اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ] فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكْفُلُ لِمَنْ يَعْمَلُ بِمَا يَتَسَرَّ لَهُ أَنْ يُوَفِّقَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُهُ بِلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ.

التقوى حركات وسكنات:

وهذه الفريضة الإلهية التي وفقكم الله تعالى إليها فدعاكم لضيافته والوفود إلى بيته الأمن المحرم هي من أعظم مصاديق التقوى و أوثق الأسباب لتحصيلها بل أن آية [وتزودوا] وردت في سياقها قال تعالى [الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ] (البقرة: ١٩٧).

والتقوى عنوان يتحلل إلى الكثير من الحركات والسكنات: الحركات باتجاه الأعمال الصالحة سواء كانت على نحو الواجبات أو المستحبات وهي أضعاف الأولى، والسكنات أي التوقف إزاء الأعمال غير الصالحة سواء كانت على نحو المحرمات أو المكروهات، وقد حفلت الكتب بتسجيلها جميعاً حتى دقائقها ولا يستطيع أحد استقصائها.

من حكمة الله تعالى تنوع القابليات:

ومن حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أنه نوع القابليات والقدرات والمؤهلات عند خلقه لتغطّي كل مساحات عمل الخير ولكي لا يحرم أحد منها، فأعطى للبعض ثروة مالية فهو يتصدق منها ويساعد الفقراء والمحتاجين ويزوج الشباب المعسرين ويحج ويزور ويبني المساجد ويشيد المشاريع الخيرية وآخر لم يعطه مالا لكنه أعطاه علماً نافعاً فهو يرشد الناس ويهديهم ويصلح ما فسد من أمور دينهم ودنياهم ويوجههم ويعلمهم أمور دينهم. وآخر لم يعط مالا ولا علماً لكنه أعطى أخلاقاً حسنة فهو يعاشر الناس بالمعروف ويفشي السلام ويتصدق بالكلمات الطيبة، كما ورد في قول النبي (ﷺ وسلم) لعنه العباس: (يا بني عبد المطلب إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)^(١).

ففرص الطاعة والتقرب إلى الله تعالى متكافئة للجميع لكنها منوعة بحسبهم، روي أن مجموعة من النسوة شكت إلى رسول الله (ﷺ) تفضيل الرجال عليهن بإعطائهم فرصة الجهاد الذي هو (باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه)^(٢) - كما وصفه أمير المؤمنين - وسقط

(١) بحار الأنوار: ١٦٩٧١

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٢٧

١ عنهن، فأجاب النبي (ﷺ) بأن (جهاد المرأة حسن التبعل)^(١) فالتساوي في فرص التكامل مكفولة للجميع. وكذلك فرصة الحج التي منحت للمستطيعين لم يحرم منها الفقراء فورد فيهم (صلاة الجمعة حج المساكين)^(٢).

٢

وهذه من عدالة الله تبارك وتعالى ومن حكمته لتَمَلَأ كل مساحات عمل الخير بحسب اختلاف إمكانيات الناس وتوجهاتهم، وإذا قال أحد أنه لم يعطني الله شيئاً فليراجع نفسه وسيجد ما يتقرب به وتلقي ما ورد في الحديث الشريف (ما عبد الله بشيء كالفرائض)^(٣). ونعود إلى ما بدأنا به من قوله تعالى (ولتنظر نفس ما قدمت لغد).

(١) بحار الأنوار: ١٠٧١٨

(٢) بحار الأنوار: ١٩٩٨٦

(٣) تحف العقول: ٢٨٦ وفيه (ولا طاعة كأداء الفرائض).

القبس القرآني
١٦

(لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ﴿٢﴾ [الملك : ٢]
تمام حسن العمل بإتقانه والمداومة عليه

العمل وحده لا يكفي:

أن الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى لها مدى واسع يستوعب الخلق كلهم، وهنا نقول أن القيام بالعمل الصالح وحده لا يكفي بل يوجد ما يتممه ويعطيه قيمته وهو أهم من العمل نفسه لأنه بدونه يبقى عملاً

(١) الخطبة الثانية لصلاة الجمعة التي أقامها سماحة الشيخ المرجع في مكة المكرمة في

يوم الجمعة ٢٧ ذو القعدة ١٤٣١ هـ الموافق ١١ ٥ ٢٠١٠ م.

فارغاً وشكلياً لا قيمة له، كما ورد في بعض الروايات إن صلاة بعض الناس تُلّف في خرقة يوم القيامة وترمى بها في وجهه، وإنه (كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه)^(١) وما ورد في الحج أن أحد أصحاب الأئمة أعجب بكثرة الحجيج وارتفاع أصواتهم بالتلبية والتكبير والحمد لله تعالى فقال له الإمام (عليه السلام): ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج.

فالعامل وحده لا يكفي لنيل رضا الله تبارك وتعالى والفوز عنده، بل قد يكون وبالاً على صاحبه كما ورد في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) في يوم عرفة (إلهي كم طاعة بنيتها، وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك بل أقلني منها فضلك)^(٢) فقد كنت أتصور أن ميزاني ثقيل بالأعمال الصالحة التي قدمتها وعودت عليها لكنها لما عرضت على الموازين القسط ليوم القيامة وإذا بها لا قيمة لها، بل صرت أهرب وأتبرأ منها وأطلب الإقالة والعفو عنها.

لنضرب لكم مثالا:

(١) نهج البلاغة: ٤/ من حكمه (عليه السلام) الحكمة رقم (١٤٥) وفيه (وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء، حبذا نوم الأكياس وإفطارهم).

(٢) البحار ج ٩٥ ٢٥٢

وقد تستغرب ذلك لكنني أقرب القضية بمثال: فلو أن ملكاً دعا شخصاً حقيراً للقاءه وضيافته فلبى الدعوة وكان الملك مقبلاً عليه وهياً له كل أسباب التكريم والجوائز الثمينة لكن المدعو كان معرضاً عنه ولا يلتفت إليه ومتشاعلاً بأمور أخرى، ألا تعد هذه إساءة في الأدب مع الملك ويعاقب عليها؟ فالصلاة دعوة للقاء الله تبارك وتعالى ومناجاة معه فإذا كان المصلي مشغولاً عن ربه وشارد الذهن عن صلواته فهو كهذا الشخص مع حقارة قدره أمام ملك الملوك فماذا سيكون جزاؤه؟ فهذا هو حال صلاتنا التي هي أهم العبادات وعمود الدين فكيف نرجوا الثواب عليها؟ إلا بلطف الله تعالى وكرمه وفضله وصفحه.

اقتران العمل بتحسينه:

فلا بد أن يقترن العمل بأمرين لينتج الغرض المطلوب وهما:
 الأول: تحسين العمل، قال تعالى [الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا] (الملك: ٢) فليس المهم كثرة العمل وإنما حسنه، وقد حثت آيات كثيرة على حسن العمل وإن القبول بحسب الإحسان في العمل. قال تعالى [إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ] (الأعراف: ٥٦) [إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرًا مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلًا] (الكهف: ٣٠).

كيف يمكن تحسن العمل؟

وإحسان العمل يتحقق بجملة أمور:

منها: إخلاص النية لله تبارك وتعالى والإتيان بالعمل لنيل رضاه وليس لأي هدف آخر، فهذا الحج قد يأتي به شخص للمباهاة أو للرياء وليقال له (حاج فلان) أو للسياحة والاطلاع على تلك المشاهد المقدسة وغيرها من النوايا غير المخلصة، فهذا لا يكون عملاً مقرباً إلى الله تعالى وإن كان الحاج لا يحرم الأجر مطلقاً مهما كانت نيته لكن قد يكون أجره في الدنيا كما ورد في بعض الروايات.

ومنها: إتقان الأحكام الشرعية للعمل وحفظ حدوده، فللحج أحكام وتفاصيل لا بد من معرفتها وأداء العمل بشروطه لأن الإخلال بها إخلال بالعمل نفسه وقد يقع باطلاً، لذا لا بد من اختيار المرشدين العارفين الورعين والآخذ منهم ومتابعتهم وسؤالهم عن دقائق الأمور، فالعمل التام لا بد أن يقترن بالعلم والإخلاص، ورد في الحديث الشريف (الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم) (١).

ومنها: الالتفات إلى أسرار العمل ومعانيه وحقائقه، فإن وراء

هذه

(١) جامع السعادات: ٢٢٠١

الأعمال الجوارحية حقائق هي المطلوبة من العمل وليس هذه الحركات الشكلية، كالأمثال التي تضرب وتراد منها الحقيقة التي صورت على شكل هذا المثل، وكالرؤيا الصادقة في المنام التي لها حقيقة تؤول إليها الرؤيا وترجع إليها لذا سميت تأويل الأحلام فمثلاً ملك مصر رأى في المنام سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات وكانت حقيقة هذه الرؤيا ما فسرها به يوسف الصديق (عليه السلام).

فيحسن التعرف إلى الأسرار المعنوية لمناسك الحج والأغراض المقصودة من حركاته وأفعاله وهي على مستويات وتحتاج إلى بحث مفصل كالذي ورد في رواية الإمام السجاد (عليه السلام) مع الشبلي (١).

المداومة على العمل:

الثاني: المداومة على العمل وحفظه ومواصلته، ولا نعني بهذا الأمر تكرار الحج لأن هذا غير متيسر إلا نادراً فللمداومة أنحاء عديدة ربما نتعرض لشرحها في خطبة مستقلة بإذن الله تعالى (٢).

لكننا نريد الإشارة هنا إلى أن الإنسان قد يوفق في مثل هذه المواسم الروحية الخالصة إلى أعمال إضافية لم يكن معتاداً عليها فيؤديها

(١) راجعها في رسالة مناسك الحج لسماحة الشيخ، صفحة ٢٤٤ الطبعة الثالثة.

(٢) تجد الخطبة في كتاب خطاب المرحلج ٥ ٦ ٤ بعنوان: كيفية إدامة حالة الطاعة

بسبب ارتفاع الهمة للطاعة والأجواء المشجعة ومصاحبة المؤمنين الصالحين والتعلم منهم كصلاة الليل أو تلاوة القرآن (الذي يستحب ختمه في رحلة الحج) أو صلاة جعفر الطيار التي كان السلف الصالح يهتم بها ويواظب عليها، أو الصلاة في أوقاتها ومنها صلاة الصبح وصلاة الجماعة والاستماع إلى التوجيهات الدينية وغيرها، فالمطلوب منه أن يستمر على هذا التقدم ويحافظ على هذا الانتصار الذي حققه على النفس الأمارة بالسوء فيواظب على هذه الأعمال التي وفقَّ إليها وذاق حلاوة أدائها.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يحافظ على كل المكاسب التي يحققها في جهاده مع نفسه مما يوفق له في الأزمنة الشريفة -كشهر رمضان- أو الأمكنة الشريفة أو المواسم المباركة كالحج.

لاحظوا ما ورد في من حفظ سورة من القرآن الكريم أو آية ثم نسيها وهي عدة روايات معتبرة منها صحيحة أبي بصير قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): (من نسي سورة من القرآن الكريم مثلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة في الجنة فإذا رآها قال: ما أنتِ فما أحسنك ليتك لي؟ فتقول: أما تعرفني أنا سورة كذا وكذا ولو لم تنسني رفعتك إلى هذا) (١).

ومن المداومة على العمل إدامة آثاره كالانتهاة عن الفحشاء والمنكر بالنسبة للصلاة قال تعالى [إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ]

(١) أصول الكافي: كتاب فضل القرآن، باب (من حفظ القرآن ثم نسيه).

(العنكبوت: ٤٥) فيجعل المؤمن صلاته نصب عينيه ويتذكرها دائماً لتردعه عن الهم بأي معصية أو منكر، فهذه مداومة على الصلاة، وقد وعد الله تعالى بأن (الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلمّ بذنب)^(١).

(وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة)^(١) [يونس : ٦١]

(١) وسائل الشيعة: كتاب الحج، أبواب وجوب الحج وشرائطه، باب ٨ ص ٤٤

لنستشعر الرقابة الإلهية

غالباً ما يدفع الشعور بالمراقبة من قبل الغير بالإنسان إلى سلوك معين مختلف عن سلوكه لو لم يكن يشعر بكونه مراقباً، وهذا أمر واضح وله عدة أمثلة وتطبيقات في الواقع، فالإنسان يفعل في السر أموراً يخشى ويخجل من فعلها في العلن، ولو علم حينها أنه مراقب لما فعلها بكل تأكيد، فسائق السيارة مثلاً حين يواجه إشارة المرور في طريقه ولا يجد أثراً لشرطي المرور فإنه يتجاوز الإشارة الحمراء دون تردد، لكنه لو كان يعلم بأن هناك كاميرات خفية تقوم برصده وأن هناك من يراقبه لما أقدم على تجاوز حدوده في الشارع، وهكذا كثير من أفعال الإنسان التي يقوم بها في السر وهو في غفلة عمن يراقبه فيها.

وأوضح مصاديق ذلك وأشدّها غفلة وخسارة هي عدم الشعور بكون الله تعالى رقيباً عليه، فتجد الإنسان قد يؤمن نظرياً بأن الله تبارك وتعالى يراه [وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

(١) يوم الاثنين ٢ ذو الحجة الموافق ١١ ٨ ٢٠١٠ زار وفد من إحدى حملات الكراة الشرقية في بغداد مقر بعثة سماحة الشيخ (دام ظله) في مدينة مكة المكرمة، وألقى مرشد الحملة كلمة بهذه المناسبة وطلب من سماحة الشيخ كلمة إرشادية فاستجاب (دام ظله) لطلبهم وألقى هذه الكلمة فيهم.

وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ [يونس: ٦١] لكن من حيث التطبيق لا تجد هذا الاعتقاد منعكساً على أفعاله، وهو علامة على أن إيمانه لم يكن واقعياً، وإلا لو كان كذلك لظهر أثر واقعية الإيمان في فعله.

وقد أشارت بعض نصوص الأدعية الشريفة إلى هذه المفارقة، فمن ذلك قول الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة: (يا من سترني من الآباء والأمهات أن يزوجوني، ومن العشائر والإخوان أن يعيروني، ومن السلاطين أن يعاقبوني، ولو اطلعوا يا مولاي على ما اطلعت عليه مني إذن ما أنظروني، ولرفضوني وقطعوني)^(١).

ومنه قول الإمام السجاد (عليه السلام) في دعاء أبي حمزة: (فلو اطلع اليوم على ذنبي أحد غيري ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنك أهون الناظرين إلي وأخف المطلعين عليّ، بل لأنك يا رب خير الساترين وأحكم الحاكمين، وأكرم الأكرمين، ستار العيوب، غفار الذنوب، علام الغيوب، تستر الذنوب بكرمك، وتؤخر العقوبة بحلمك، فلك الحمد على حلمك بعد علمك، وعلى عفوك بعد قدرتك)^(٢).

من مصاديق الغفلة:

(١) مفاتيح الجنان ١١ ٣

(٢) السابقين ٢٤ ٢

ومن مصاديق ذلك أيضاً الغفلة عن الموت مع الاعتقاد به يقيناً،

حتى قال

أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما رأيت يقيناً أشبه بشك من الموت) (١)، فنحن نؤمن بأن الموت حق، وأنه لا بد أن يختطفنا في أية لحظة من لحظات العمر، ولكن كم واحد منا يؤمن بذلك عملياً، بمعنى أنه استعد له وتهيأ وأدى ما عليه واجتنب كل ما حرم الله عز وجل، والحال أنك تجد العكس من ذلك، فالكثير منا يعمل وكأنه سيظل خالداً في هذه الدنيا.

الغفلة عن إمام الزمان (عليه السلام):

ومن مصاديق الغفلة والتصرف بخلاف وجود المراقبة ما ذكرته الرواية الشريفة: (والله إن صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنة يرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه) (٢) وهي رواية موجودة وصحيحة، إذن نحن بمرأى من الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف، فمن يستشعر الخجل والحياء من فعل أمر أمام الناس علناً في حين يفعله في السر، مثل هذا الإنسان كيف به إذا اعتقد أن إمامه يراه دائماً، بالتأكيد إن ذلك سيدفعه إلى أن يكون أكثر مراقبة لنفسه في تعاملاته وتصرفاته، وبطبيعة الحال إن

(١) بحار الأنوار: ٢٤٦٧٥

(٢) الغيبة: ١٨٩

مثل هذه الأحاديث حين يمر بها الإنسان ويستشعر كل هذه الكاميرات التي تراقبه فإنه لن يتعامل مع الآخرين وكأنه في مغالبة على الدنيا، وسعي إلى الحصول على الغنائم والمكاسب الدنيوية، بل يستشعر مسؤوليته أكثر، ويحاسب نفسه أكثر، لأننا لن نترك سدىً وليس الأمر منتهياً، صحيح أن حلم الله تبارك وتعالى طويل لكنه يؤجلهم إلى يوم [لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا] (الكهف: ٤٩).

نسأل الله تبارك وتعالى أن يعيننا على طاعته وأن ينقذنا من الغفلة وأن نكون ذاكرين لله تبارك وتعالى ولإمامنا ﷺ الشريف، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

(فاعلم أنه لا إله إلا الله))
نبد الآلهة من دون الله تعالى

[محمد : ١٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

ما المراد من رمي الجمرات؟

من مناسك الحج رمي الجمرات الثلاث في منى بالحصى، وقد ورد في الروايات عن أصلها بأن خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) لما أخذ ولده إسماعيل لذبحه امتثالاً لأمر الله تبارك وتعالى اعترضه إبليس في الموضع الأول ليرده ويخذله ويحرك عواطفه حتى يتراجع عن تنفيذ ما أمر الله

(١) أقام سماحة الشيخ (دام ظله) صلاة الجمعة الثانية في مقر إقامته في مكة المكرمة يوم ٦ ذو الحجة ١٤٣١ المصادف ١٢ ١١ ٢٠١٠، وما في المتن هو الخطبة الثانية منها.

تعالى فرماه إبراهيم (عليه السلام) بالحصى فانهزم اللعين، ثم تمثل له مرة أخرى في الموضوع الثاني والثالث وكان رد إبراهيم (عليه السلام) الحازم هو هو فتحوّل إلى منسك يؤديه الموحّدون لرمي الشياطين.

وقد يثار هنا إشكال حاصله إن رمي الجمرات في الإسلام تعبير عن نبذ أصنام الجاهلية ورفض عبادتها، وقد كان هذا العمل مبرراً وله وجه في صدر الإسلام حيث كانوا حديثي عهد بالجاهلية فأراد لهم الشارع المقدس قلع عبادة الأصنام بالكلية من داخل نفوسهم وترسيخ رفضها، أما اليوم حيث لم تعد توجد أصنام تُعبد من دون الله تعالى فلا يبقى معنى لأداء هذا المنسك. وأجوبة هذا الإشكال عديدة نريد أن نجعل واحداً منها محور خطبتنا.

الاصنام التي تعبد من دون الله تعالى:

وهو أن الأصنام والآلهة التي تُعبد من دون الله تعالى عديدة ومتنوعة وبقية ما بقي البشر إلا أن يملأ الله تبارك وتعالى الأرض قسطاً وعدلاً ويبسط كلمة التوحيد على أرجاء الأرض، ولئن زال أحد أشكالها وهي الأصنام والأوثان التي تُصنع من الحجر والخشب وربما التمر ثم تعبد من دون الله وتقدس وتقدم لها النذور والقرايين، فإن أشكالاً أخرى من الأصنام تعبد وتقدس وهي أشد وطناً على الإنسان وأكثر إذلالاً للبشرية وتكلف الناس أضعاف ما كانت تكلفهم تلك الأصنام، وأولها هوى النفس

وشهواتها وأطماعها وغرائزها التي يطيعها الإنسان ويسعى لتنفيذ إرادتها ويخضع لسلطتها وإن كان في ذلك معصية الله تبارك وتعالى، فأصبح الهوى إلهاً يعبد من دون الله تعالى لأن معنى العبادة هي الطاعة والانقياد والاستسلام بحيث ورد عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: (من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان) (١)، وقد سمي الله تبارك وتعالى الهوى إلهاً في قوله تعالى [أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ...] (الجاثية: ٢٣)، كم من تاجر تعرض له معاملة مشبوهة ينهى عنها الشرع المقدس لكن ربحها يسيل لعابه ويثير طمعه فيرتكبها؟ وكم من امرأة تعلم أن السفور حرام وإن إبداء مفاتنها أمام الرجل الأجنبي معصية فتفعله إرضاءً لغرائزها؟ وكم من شاب يعلم أن الصلاة واجبة عليه وأنها عمود الدين وهوية المسلم لكنه يتركها كسلاً وحباً للراحة والدعة؟ أليس كل هؤلاء وأمثالهم قد نصبوا من أهوائهم وأنفسهم الأمارة بالسوء أصناماً وآلهة يعبدونها ويطيعونها من دون الله تبارك وتعالى؟

التشريعات البشرية:

وثاني الآلهة التشريعات التي تُسنُّها عقول الناس القاصرة وبحسب ما يقدرونها من مصالح بنظرهم الضيق ويتعبدون بها ويلتزمون بها ويعاقبون على مخالفتها من دون الرجوع إلى شريعة الله تبارك وتعالى تحت عناوين مختلفة كالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان وحاكمة الشعب والقوانين والدساتير الوضعية وغيرها، وهذا الوضع قائم حتى في الدول التي تصف نفسها بأنها إسلامية، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الآلهة وهذه الأرباب في قوله تعالى: [اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ] (التوبة: ٣١) وورد في تفسيرها عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون)^(١) فانطبق عليهم اتخذهم أرباباً من دون الله تعالى لأنهم شرّعوا لهم من أنفسهم قوانين تحكّمهم من دون الرجوع إلى الشريعة الإلهية.

(١) الكافي ج ٦ ٣٤ ٤

وهذه الرواية تنطبق على كثير مما يجري في مجتمعاتنا كبعض القوانين التي يسنّها البرلمان، والسنيّة العشائرية التي يضعها ناس جاهلون بأحكام الشريعة وتفصيلها فتأتي مليئة بالمظالم والفساد والانحراف.

آلهة الأعراف والتقاليد غير الصحيحة:

ومن الآلهة الأخرى الأعراف والتقاليد الاجتماعية التي يضعها الناس ثم يعطونها قداسة وأهمية بحيث لا يستطيع الفرد الخروج عنها خشية العار والفضيحة والضغط الاجتماعي ونحوها.

فبعض السادة التزموا بعدم تزوج بناتهم العلويات إلا من سادة ولو أدى ذلك إلى عنوستهن وحرمانهن من هذا الحق المقدس رغم إقدام الشباب الأكفاء على خطبتهن، أو إلزامهن التزويج من ابن العم فلو نهى عليها ابن عمها فلا يحق لأي أحدٍ خطبتها ولو أعرض عنها ابن العم ولم يتزوجها.

أو المغالاة في المهور الذي حرم الكثير من الشباب عن التفكير في الزواج لعدم قدرته على هذه التكاليف الباهظة، وكل هذه الأعراف والتقاليد مخالفة للشريعة ولوصايا النبي (ﷺ) الذي روي عنه: (إن جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض

وفسادٌ كبير) (١) وقوله (صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ): (النكاح ستي فمن لم يعمل بستتي فليس مني) (٢) ومثلهم بعض النساء اللواتي يلزمن أزواجهن بتوفير احتياجات باهظة كلبس بدلة جديدة في كل مناسبة أو تغيير أثاث بيت في كل سنة أو موسم مما يكلف الزوج كثيراً وقد يضطر إلى الإغماض عن مصدر الأموال الواردة إليه ليلبي رغبة امرأته، فهؤلاء يعبدون هذه الأعراف والتقاليد ويقدسونها من دون الله تعالى.

الحكام والطواغيت:

ومن تلك الآلهة الحكام والطواغيت الذين يريدون من شعوبهم الاستسلام لهم وتنفيذ أطماعهم ونزواتهم والتضحية من أجل إدامة حكمهم وتقديم الشعب كله قرابين لهم، وهكذا سائر النظم الاقتصادية والسياسية والقوانين الوضعية المتبعة في المحاكم والكيانات المتنفذة كالمصارف وغيرها مما صنعه البشر من دون الرجوع إلى حكم الله تعالى [اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ] (يونس: ٥٩).

كونوا موحدين:

(١) عوالي اللئالي ج ٣ ٤ ٠ ٣

(٢) كنز العمال ج ١٦ ٢ ٧ ٢

هذه نماذج من الآلهة التي تتعبد وتطاع من دون الله تعالى ومن الأصنام التي لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولكنها تقدّس وتتخذ أرباباً للبشر الذين يصنعونها بأيديهم ويعلمون أنها زائفة [يا أيّها النّاس ضرب مثل فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب] (الحج: ٧٣)، يسخر الناس اليوم من عقول أسلافهم في الجاهلية ويسخفونهم حيث اتخذوا آلهة من أصنام يصنعونها بأيديهم وهامهم اليوم يفعلون فعلتهم وينقادون لأصنام وآلهة من صنعهم وإن كان من نوعٍ آخر.

هذه الحقيقة التي يدمغ الله تبارك وتعالى بها الناس في قوله تعالى: [وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون] (يوسف: ١٠٦).

موعظة الشيخ جعفر الشوشتری:

نقل عن الواعظ الشهير الشيخ جعفر الشوشتری (توفي عام ١٣٠٣ هجرية) صاحب كتاب الخصائص الحسينية وقد كان له منبر وعظ في الصحن الحيدري الشريف يحضره المجتهدون والعلماء والفضلاء وعامة الناس، نقل عنه أنه قال يوماً: أيها الناس أن مئة وأربع وعشرين ألف نبي بعثهم الله تعالى كلهم يقولون للناس: (كونوا موحدين وأنا أقول كونوا مشركين) فتعجب الناس من كلامه ولم يفهموا مرامه فأمهلهم حتى قال

لهم: (إنكم أصبحتم كلكم للدنيا وأنا أدعوكم إلى أن تجعلوا لله نصيباً من حياتكم فأشركوه في أعمالكم).

خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً:

وستجدون في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة: (إلهي عميت

عين لا

تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً) (١) وهذه هي الخسارة الحقيقية أن لا يخلص الإنسان عمله لله تبارك وتعالى ويوحّد هدفه في هذه الحياة ليجعله رضا الله تبارك وتعالى، ولا يثبت على الصراط المستقيم ويتيه يمّنة ويسرة بين هذه الآلهة والأرباب المصطنعة.

إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعث ليحرّر الإنسان من هذه التبعية

المقيّنة التي تكبله بقيود وأغلال وأصار تعيقه عن التكامل ونيل رضوان الله تبارك وتعالى [الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ

(١) مفاتيح الجنان ٣ ٣١

أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (الأعراف: ١٥٧)، فلا يحق للإنسان الحر أن يعيد إلى عنقه تلك الأغلال ويحيط نفسه بتلك القيود. وهذه بعض معاني رمي الجمرات أن نرفض كل الآلهة التي تعبد وتطاع والأرباب التي تتخذ من دون الله تبارك وتعالى.

القبس القرآني -

١٩

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)^(١)
أسباب البلاء

[العنكبوت : ٢]

يوم العيد من أيام الله تعالى التي جاء فيها قوله تعالى [وَذَكَّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ] (إبراهيم: ٥) وهي من أيام قادة الإسلام العظام رسول الله (ﷺ) وسلم) والأئمة الظاهرين (عليهم السلام)؛ لذا كان من أعمال الأعياد قراءة دعاء الندبة الذي يستذكر الأنبياء والرسل والأئمة ثم يكرّس الجزء الأكبر لإمام

(١) خطبتنا صلاة عيد الفطر المبارك لعام ١٤٢٧ الموافق ٢٤ ١٠ ٢٠٠٦ وقد اعتاد

سماعته إقامتها في داره.

العصر بقية الله الأعظم (ﷺ) ليذكرنا بأن العيد الحقيقي إنما هو حينما تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً [ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم] (الروم: ٤-٥).

وليذكرنا أيضاً أن لا فرح ولا سرور والمصائب تتوالى على أولياء الله تبارك وتعالى وأهل طاعته والتمسكين بحبل الله المتين، وها نحن في العراق نعيش عنتاً وشدة وكوارث يندر أن يمر بها شعب آخر من قطع الرؤوس والتمثيل بالأجساد وقتل النساء والأطفال وتدمير دور العبادة والمدارس وتخريب البلاد وكل مظاهر الحياة المتحضرة.

لذا يحسن بالمؤمنين أن يستذكروا إمامهم المنتظر دوماً وخصوصاً

بالعيد،

وتتحدث اليوم عن واحدة من أطافه ورعايته للأمة وهو دفع البلاء عنهم وتخفيف آلامهم وحمايتهم، روى أبو نصر الخادم قال: دخلت على صاحب الزمان وهو في المهد فقال: أتعرفني؟ قلت: نعم، أنت سيدي وابن سيدي. فقال: ليس عن هذا سألتك. فقلت: فسّر لي قال: أنا خاتم الأوصياء وبي يرفع الله البلاء عن أهلي وشيعتي (١).

وورد في رسالته الشريفة إلى الشيخ المفيد (قده): (نحن وإن كنا

ناوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين، حسب الذي أرانا الله تعالى لنا

من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين، فإننا نحيط علماً بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم) (إنا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم الأواء واصطلمكم الأعداء) (١).

السبب الأول للبلاء:

وحينما نتساءل عن سبب كل هذا البلاء الذي يحل بالشعب العراقي فسيكون بعضها عائداً إلى نفس الناس.

روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال (أما أنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه [وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ] (الشورى: ٣٠) ثم قال: وما يعفو الله أكثر مما يأخذ به) وعن علي بن الحسين (عليه السلام) قال: (نعم الوجع الحمى يعطي كل عضو قسطه من البلاء ولا خير فيمن لا يبتلى) (٢).

وقد يشاهد الناس صنوفاً من البلاءات لم يكن يعهدوها من قبل وهذا ما يشرحه الحديث المروي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قال (كلما

(١) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ / ٢٣ ٣

(٢) مكارم الأخلاق: للطبرسي ج ٥٧ ٣

أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون^(١).

وهذا الأمر يتطلب مراجعة مستمرة للذات ومراقبة للعمل وعرضاً متواصلاً للسلوك على الشريعة لتجنب الخطأ والزلل فنزيل أصل البلاء وسبب استحقاقه، وفي ذلك قال أمير المؤمنين (أن الله يتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائب ويقلع مقلع ويتذكر متذكر ويزدجر مزدجر)

وليقدر الإنسان النعم الإلهية فيعرف قدرها حينما يفقدها ليحاول استغلالها في المستقبل فيما فيه رضا الله سبحانه، لكن الله يخبر عن غالب البشر أنهم حينما تعود إليهم حالة الرخاء والدعة فإنهم ينسون حالة الحاجة والاضطرار [فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ] (العنكبوت: ٦٥) وقال تعالى [وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ، فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ] (التوبة: ٧٥-٧٨).

(١) الأمالي للشيخ الطوسي ج ٢ ٢٨

وحيثُ إذا كانت النعمة سبباً لشقاء الإنسان سيكون من المناسب بحال الإنسان الرضا بحياة البلاء والمشقة وبهذا نفسر كلام الإمام الصادق (عليه السلام) (لن تكونوا مؤمنين حتى تكونوا مؤتمنين وحتى تعدوا نعمة الرخاء مصيبة، وذلك أن الصبر على البلاء أفضل من الغفلة عند الرخاء)^(١) وورد (إذا رأيت ربك يوالي عليك البلاء فاشكره) وورد (إذا رأيت الله يتابع عليك البلاء فقد أيقظك) لكن الأحاديث الشريفة دعتنا إلى عدم تمني البلاء وأن نسال الله العافية ففي الحديث (سلوا الله العافية من جهد البلاء، فإن في جهد البلاء ذهاب الدين)^(٢).

٢

ويلفت الإمام المهدي (عليه السلام) نظرنا إلى بعض هذه الأسباب، ويعطينا الوصفات العلاجية الدقيقة في رسالته إلى الشيخ المفيد (قدس سره) ومما جاء فيها عن سبب الذل والهوان (ولا يعزب عنا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً، ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) (ولو أن أشياعنا وفقهم الله لطاعته على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا

(١) صفات الشيعتين ٤ ٢

(٢) عيون الحكم والمواعظ: ١٣٥-١٧٥

على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم).

ومن الحلول التي وردت في كلام الإمام (عليه السلام) (فاتقوا الله جل جلاله وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم) (اعتصموا بالتقية من شب نار الجاهلية) ولا تعني التقية الانزواء والانكماش وترك العمل، وإنما تعني العمل بالممكن حتى تفتح فرص الأزيد (فليعمل كل امرئ منكم بما يقرب به من محبتنا، ويتجنب ما يدينه من كراحتنا وسخطنا، فإن أمرنا بغتة فجأة حين لا تنفعه توبة ولا ينجيه من عقابنا ندم على حوبة) (إنه من اتقى ربه من إخوانك في الدين واخرج مما عليه إلى مستحقه، كان آمناً من الفتنة المبطلّة ومحنها المظلّمة المضلّة، ومن بخل منهم بما أعاده الله من نعمته على من أمره الله بصلته، فإنه يكون خاسراً بذلك لأولاه وآخرته).

ولولا لطف الإمام ورعايته لكانت المحنة اشد ولما بقيت لأتباع أهل البيت باقية قال (عليه السلام) (لأننا من وراء حفظهم بالدعاء الذي لا يحجب عن ملك الأرض والسماء، فليطمئن بذلك من أوليائنا القلوب، وليثقوا بالكفاية منه، وان راعتهم بهم الخطوب، والعاقبة بجميل صنع الله سبحانه تكون حميدة لهم ما اجتنبوا المنهي عنه من الذنوب) (١).

السبب الثاني للبلاء:

وهذا الجواب ليس كافياً طبعاً لمثل المعصومين (عليه السلام) لذا فهناك سبب آخر للبلاء، روي عن حمران بن أعين انه قال للإمام الباقر (عليه السلام) (جَعَلْتُ فِدَاكَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ [وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ] أَرَأَيْتَ مَا أَصَابَ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) وَأَهْلَ بَيْتِهِ مِنَ الْمَصَائِبِ بِذَنْبٍ؟ قَالَ: يَا حَمْرَانَ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ، وَلَكِنْ يَطُولُ عَلَيْهِمُ بِالْمَصَائِبِ لِيَأْجِرَهُمْ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ) (١) وهذا النوع من البلاء يشمل شيعتهم أيضاً روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله (بنا يبدأ البلاء ثم بكم وبنا يبدأ الرخاء ثم بكم) (٢) وعن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (ما أكرم الله رجلاً إلا زاد عليه البلاء) (٣).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (سئل رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من أشد الناس بلاءاً في الدنيا؟ فقال: النبيون ثم الأمثل فالأمثل، ويبتلى المؤمن

(١) مشكاة الأنوار للطبرسي: ٥٠٩

(٢) الآمالي للشيخ المفيد: ٣٠١.

(٣) النوادر لقطب الدين الراوندي: ١٦٥

بعد على قدر إيمانه وحسن أعماله فمن صحَّ إيمانه وحسن عمله اشتد
بلاؤه، ومن سَخف إيمانه وضعف عمله قل بلاؤه^(١).

وهذا البلاء على أهل البيت سلام الله عليهم وشيعتهم منصبٌ عليهم منذ وفاة رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حيث جمع أهل بيته وقال لهم (أنتم المستضعفون بعدي) وازداد البلاء بعد استشهاد أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، فتقل كتب التاريخ أنه (اشتد البلاء في الأمصار كلها على شيعة علي وأهل بيته (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وكان أشد الناس بلية أهل الكوفة لكثرة من بها من الشيعة، واستعمل (معاوية) عليهم زياداً الذي ألحقه بنسبه وضم إليه البصرة والكوفة وجميع العراقين، وكان يتبع الشيعة وهو بهم عالم لأنه كان منهم فقتلهم تحت كل كوكب وحجر ومدر، وأجلاهم وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل منهم وصلبهم على جذوع النخل وسمل أعينهم وطردهم وشردهم حتى انتزعوا عن العراق، فلم يبق بالعراق أحد مشهور إلا مقتول أو مطلوب أو طريد أو هارب، وكتب معاوية إلى قضاة وولاته في جميع الأرضين والأمصار: (أن لا تجيزا لأحد من شيعة علي بن أبي طالب ولا من أهل بيته ولا من أهل ولايته الذين يرون فضله ويتحدثون بمناقبه شهادة)^(٢).

(١) مشكاة الأنوار: ٥١٥

(٢) كتاب سليم بن قيس: ٣١٦

ولما حبس المنصور بني الحسن (عليه السلام) وفيهم عبد الله المحض
والد محمد النفس الزكية وإبراهيم الذين ثارا على المنصور العباسي في
المدينة والعراق للضغط عليهم حتى يسلموهما حبسهم أبو جعفر في
محبس ستين ليلة ما يدرون بالليل هم أم بالنهار ولا يعرفون وقت الصلاة
إلا بتسبيح علي بن الحسن والد الحسين بن علي صاحب فخ، فضجر عبد
الله ضجرةً فقال: يا علي ألا ترى ما نحن فيه من البلاء؟ ألا تطلب إلى ربك
عز وجل أن يخرجنا من هذا الضيق والبلاء؟ فسكت عنه طويلاً ثم قال: يا
عم إن لنا في الجنة درجة لم نكن لنبلغها إلا بهذه البلية أو بما هو أعظم
منها، وإن لأبي جعفر (يقصد المنصور العباسي) في النار موضعاً لم يكن
ليبلغه حتى ليبلغ منا مثل هذه البلية أو أعظم منها فإن تشأ أن تصبر فما
أوشك فيما أصبنا أن نموت فنستريح من هذا الغم كأن لم يكن منه شيء
وإن تشأ أن ندعوا ربنا عز وجل أن يخرجك من هذا الغم ويقصر بأبي
جعفر غايته التي له في النار فعلنا؟ قال: لا بل أصبر^(١).

أيها الأحبة:

إن ولاية أمير المؤمنين مرتبة شريفة لا تنال إلا بالجهد والبلاء
وضبط النفس وتطهير القلب، قال رجل للإمام الباقر (عليه السلام): (والله إنني
لأحبكم أهل البيت. قال (عليه السلام): فاتخذ للبلاء جلباباً فوالله إنه لأسرع إلينا

(١) مقاتل الطالبين ١٣١

وإلى شيعتنا من السيل في الوادي^(١). وشرحها بعضهم فقال: جلباباً من العمل الصالح والتقوى تكون لك جنة من الفقر يوم القيامة وقال آخرون- في معنى فليتخذ للبلاء جلباباً-: فليرفض الدنيا وليزهد فيها وليصبر على الفقر، ويدل عليه قول أمير المؤمنين: ومالي لا أرى منهم سيماء الشيعة! فقيل: وما سيماء الشيعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خصّ البطون من الطوى، يبس الشفاه من الظماً، عمش العيون من البكا.

لأن شيعة علي عليه السلام أتقياء أنقياء بررة صالحون ولا بد من اختبارات لتتكشف معادتهم [أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ] (العنكبوت: ٢-٣) فإذا اجتازوا هذه الامتحانات بنجاح استحقوا ما أعد الله تعالى لهم في دار الكرامة من فضله التي أشار إليها الله تبارك وتعالى بقوله سبحانه [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ] (البينة: ٧-٨) وروى جابر الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أن خير البرية هم علي وشيعته) بمعنى التشيع الذي نشير إليه وذكرته الآية في ذيلها.

(١) الأمايلي للشيخ الطوسي ١٥٤

قال رجل للحسن بن علي (عليه السلام) (إنني من شيعتكم، فقال الحسن بن علي (عليه السلام): يا عبد الله إن كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت، وإن كنت بخلاف ذلك فلا تزدد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها، لا تقل أنا من شيعتكم ولكن قل أنا من مواليكم ومحببكم ومعادي أعدائكم وأنت في خير والى خير) (١).

وقال رجل للحسين بن علي (عليه السلام) : يا ابن رسول الله أنا من شيعتكم قال (عليه السلام): (اتق الله ولا تدعني شيئاً يقول الله لك: كذبت وفجرت في دعواك، إن شيعتنا من سلمت قلوبهم من كل غش ودغل، ولكن قل: أنا من مواليكم ومحببكم) (٢).

وقد عرف أصحاب الأئمة (عليهم السلام) هذه المرتبة الشريفة لولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) فبدلوا جهدهم ليكونوا أهلاً لها وكانوا يبكون إذا نسبوا إلى التشيع خشية أن لا يكونوا من أهل هذا الشرف كما حصل لأبي كهمس وابن أبي يعفور وفضيل بن سكرة (٣).

(١) مجموعة ورائح ١٠٦٢

(٢) المصدر السابق.

(٣) معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ج ٢ ص ٢٧٦

قيل للصادق (عليه السلام): إن عمار الدهني^(١) شهد اليوم عند القاضي الكوفة بشهادة فقال له القاضي: قم يا عمار فقد عرفناك، لا تقبل شهادتك لأنك رافضي، فقام عمار وقد ارتعدت فرائصه واستفرغه البكاء فقال ابن أبي ليلى (القاضي): أنت رجل من أهل العلم والحديث إن كان يسوؤك أن يقال لك رافضي فتبرأ من الرفض وأنت من إخواننا فقال له عمار: يا هذا ما ذهبت والله إلى حيث ذهبت، ولكني بكيت عليك وعليّ، أما بكائي على نفسي فنسبتي إلى رتبة شريفة لست من أهلها، زعمت أني رافضي، ويحك حدثني الصادق (عليه السلام) أن أول من سمي الرافضة السحرة الذين لما شاهدوا آية موسى (عليه السلام) في عصاه آمنوا به واتبعوه ورفضوا أمر فرعون واستسلموا لكل ما نزل بهم فسماهم فرعون الرافضة لما رفضوا دينه، فالرافضي من رفض كل ما كرهه الله وفعل كل ما أمره الله، وأين في الزمان مثل هذا، فإنما بكيت على نفسي خشية أن يطّلع الله على قلبي وقد تقبلت هذا الاسم الشريف على نفسي فيعاتبني ربي عز وجل ويقول: يا عمار أكنت رافضاً للأباطيل عاملاً للطاعات كما قال لك فيكون ذلك مقصراً بي في الدرجات إن سامحني، موجباً لشديد العقاب علي أن ناقشني إلا أن يتداركني مواليّ بشفاعتهم، وأما بكائي عليك فلعظم كذبك

(١) أبو معاوية بن عمار البجلي، وُصف بأنه وجه وكان ثقة في العامة أي عند العامة

في تسميتي بغير اسمي وشفقتي الشديدة عليك من عذاب الله: أن صرفت خير الأسماء الحسان وجعلته من أذلها^(١).

وفي ضوء هذا كان أهل المعرفة بحقيقة ولاية أمير المؤمنين ليس فقط يصبرون على البلاء وإنما يعتبرونه نعمة تستحق الشكر وقد تقدم في الحديث الشريف: (لن تكونوا مؤمنين حتى تعدوا البلاء نعمة والرخاء مصيبة وذلك أن الصبر عند البلاء أفضل من الغفلة عند الرخاء).

وورد فيما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران (عليه السلام): (يا موسى ما خلقت خلقاً أحب إلي من عبدي المؤمن، وإنني إنما أبتليه لما هو خير له، وأعافيه لما هو خير له، وأزوي عنه لما هو خير له، وأعطيه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي، وليرض بقضائي، أكتبه في الصديقين عندي إذا عمل برضاي وأطاع أمري)^(٢).

وروي أن عيسى (عليه السلام) مر برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنين بالفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه، فقال له عيسى (عليه السلام): (يا هذا، وأي

(١) مجموعة ورائح ١٠٦٢

(٢) مشكاة الأنوار للطبرسي: ٥١٥

شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟) فقال: يا روح الله، أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه من معرفته، فقال له (صدقت، هات يدك) فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجهاً، وأفضلهم هيئة، وقد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه ^(١).

ومما نسب إلى الإمام الصادق عليه السلام: فمن صبر كرهاً ولم يشك إلى الخلق أو لم يجزع بهتك ستره فهو من العام ونصيبه ما قال الله عز وجل (وبشر الصابرين) أي بالجنة والمغفرة ومن استقبل البلاء بالرحب وصبر على سكينته ووقار فهو من الخاص ونصيبه قال الله تعالى: [إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ] ^(٢).

السبب الثالث للبلاء:

وهذا الذي ذكرناه عام لكن هناك مناشئ للبلاء خاصة بالشعب العراقي ومنها أن هذا البلد سيكون قاعدة انطلاق الإمام المهدي عليه السلام في حركته العالمية لنشر الحق والعدل وان أهله الكنوز التي هي ليست من الذهب والفضة كما ورد في الحديث، وهم الطليعة الذين سيفتح بهم العالم وهذا الدور العظيم لا يتأهلون له إلا باجتياز عدد من الصعوبات والشدائد

(١) مسكن الفؤاد للشهيد الثاني ٧ ٨

(٢) مصباح الشريفة: ١ ٨ ٥

ونجاحهم فيها استعداد لأداء تلك الوظيفة الإلهية [أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا وَالضَّرَّاءُ
وَزُلْزُلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ
قَرِيبٌ] (البقرة: ٢١٤).

السبب الرابع للبلاء:

إن ما شهده العراق من تحولات وتغيرات بعد سقوط الصنم
الصدامي والانطلاقة المباركة للشيعة في هذا البلد وعلو صوت أهل البيت
(عليه السلام) بعد أن خنقه الطغاة طيلة أربعة عشر قرناً دفع الحاسدين والحاقدين
على هذا البيت الطاهر إلى محاولة إسكاته من جديد [أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ
عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ
مُلْكًا عَظِيمًا] (النساء: ٥٤) وهؤلاء الطغاة يدركون عناصر القوة في صوت
الحق إذا انطلق من العراق ويخشون تساقط عروشهم الزائفة.

ومما زاد في تخوفهم حياة الحرية وممارسة الأمة لدورها للتعبير
عن آرائها في قياداتها واختيار من تشاء لحكمها مما يعصف بأنظمتهم
المستبدة والدكتاتورية التي تصادر رأي الأمة وتفرض سلطتها بالحديد
والنار، فاندفعت القوى الإقليمية لتصدير الإرهاب والسلاح والتكفير إلى
هذا البلد الكريم ليخربوه وليكسروا إرادة الأمة ويشوهوا عن ممارسة دورها

الطليعي، ودعموا ذلك بإعلام مضلل يشوه الحقائق ويعرضها بشكل مزيف ليفشلوا هذا النموذج الذي وإن كثرت تحفظاتنا على تفاصيله وعلى الناس الذين تصدوا لقيادته في هذه المرحلة، إلا أن المشروع سائر في الطريق الصحيح وكل ما يحتاجه شيء من الترميم وتصحيح الاعوجاج في السير وهمة المخلصين لممارسة دورهم في إصلاح الخلل والفساد وإفشال مشاريع التخريب بإذن الله تعالى.

لا أريد أن أطيل أكثر من هذا وإن كان الموضوع يستحق لأن خطاباتي وكلماتي المستمرة تبين الكثير من تفاصيل هذا الحديث.
بارك الله لكم في عيدكم وجعلكم ممن رضي عنهم في شهر رمضان وأعتقه من النار وكتب لهم الفوز بالجنة انه ولي النعم.

القبس القرآني-

٢٠

(يوم الفرقان)(١)

[الأنفال : ٤١]

يوم بدر كان فرقانا بين الحق والباطل:

وصف الله تبارك وتعالى يوم بدر بالفرقان في قوله تعالى: [وَمَا

أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ] (الأنفال: ٤١)؛ لأن النصر

(١) المقطع الأول من الخطاب الذي ألقاه سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد اليعقوبي

(دام ظله) على عشرات الآلاف من المؤمنين الذين تجمّعوا لإحياء ذكرى استشهاد

الزهراء (عليها السلام) في النجف الأشرف يوم ٣ ٢ ١٤٢٨ المصادف ١٩ ٦ ٢٠٠٧

الذي منَّ الله به تبارك وتعالى على عباده المؤمنين في معركة بدر كان فيصلاً فرّق بين الحق والباطل: الحق المتمثل بعقيدة الإسلام والانقياد لله تبارك وتعالى فيما يأمر وينهى وإقامة نظام الحياة على أساس شريعته المباركة، والباطل المتمثل بعبادة الأهواء وطاعة الطواغيت والانسياق وراء الشهوات واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله تبارك وتعالى. فأعزَّ الله تبارك وتعالى الحق وجنده ونصرهم وأخزى الباطل وجنده وخذلهم.

ليس ذلك فحسب وإنما كان يوم بدر فرقاناً في تاريخ الإسلام والمسلمين فانتقلوا من مرحلة الخوف والاستضعاف والتشتت إلى مرحلة القوة والعزة والمنعة والدولة وانطلق المسلمون بعدها ليينوا حضارة البشرية كلها.

وكان فرقاناً مميّز أصحاب رسول الله (ﷺ) وسلم) بين من حمل الإيمان في قلبه واطمأنت به جوانحه وثبتت عليه جوارحه فصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبين من كان الإيمان عنده لقلقة لسان وطقوس سطحية يؤديها فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون.

وكان فرقاناً بين فهمين للعوامل الحقيقية للنصر فبعد أن كان الاعتقاد بان الفوز حليف الكثرة العددية و القوى المادية المتنوعة حتى قال قائلهم [إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] (الأنفال: ٤٩)، أصبح معيار النصر هو

الإيمان والصبر والثبات على الحق فتهاوى جبوت قريش وعددها وعدتها بين إقدام المسلمين المعدمين إلا من النزر اليسير قال تعالى: [وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بَيْدَرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ] (آل عمران: ١٢٣).

هكذا كان يوم بدر يوم فرقان على جميع الصعد في معركة العقيدة، معركة تنزيل القرآن أي على مستوى الإيمان به والتصديق بما انزل الله تبارك وتعالى على نبيه (ﷺ) وسلم) وكان الرسول الأكرم (ﷺ) وسلم) هو قائد هذه المعركة.

معركة التأويل:

ثم كانت حاجة لمعركة أخرى تلتها على مستوى السلوك والتطبيق لهذه التعاليم هي معركة التأويل أي الالتزام بحقيقة ما انزل على رسول الله (ﷺ) وسلم) وعدم تحريفه عن حدوده والتصرف في الشريعة تبعاً للأهواء والمصالح والاستحسانات، وكان قائد هذه المعركة أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ قال فيه رسول الله (ﷺ) وسلم) (وإنه المقاتل على التأويل إذا تركت سنتي ونبذت، وحرّف كتاب الله، وتكلم في الدين من ليس له ذلك، فيقاتلهم علي عليه السلام على إحياء دين الله عز وجل) (١) وروي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنه ذكر الذين حاربهم علي (عليه السلام) فقال: (أما إنهم أعظم

(١) الإرشاد للمفيد: ١٢٤١

جرماً ممن حارب رسول الله (ﷺ) وسلم) ، قيل له: وكيف ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: أولئك كانوا جاهلية وهؤلاء قرأوا القرآن، وعرفوا أهل الفضل فأتوا ما أتوا بعد البصيرة) (١) ولما سأل علي (عليه السلام) فقال: يا رسول الله على ما أقاتل القوم؟ قال: على الإحداث في الدين).

فلم تكن هذه المعركة تنفك عن تلك بل أن علياً لو لم يقاتل على التأويل لما بقي التنزيل ولحرف الدين وانتهى كل شيء كما كانت نتيجة الديانات السابقة لان كلمات التنزيل تبقى مجملة وعرضة للتلاعب والتحريف إذا لم توضع النقاط على الحروف فكان علي (عليه السلام) تلك النقطة التي تحركت على حروف كلمات التنزيل فأوضحت معانيها وثبتت حدودها وصانعتها من عبث وتحريف أهل الأهواء والمصالح، لذا قال أمير المؤمنين في حرب صفين (والله ما وجدت من القتال بدءاً أو الكفر بما أنزل على محمد (ﷺ) وسلم)) (٢).

وكان في حرب التأويل يوم فرقان كيوم بدر ذلك هو يوم

الزهراء (سلام)

(١) مناقب آل أبي طالب: ١٩٣

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١٨٣

الله عليها) حيث وقفت (سلام الله عليها) في مسجد أبيها (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وأصحابه منصفون وهي تثبت الحق وتعيده إلى نصابه بحجج بالغة وتدفع عنه التأويل والالتفاف على النصوص المباركة.

يوم الدفاع عن الإمامة:

كان يوم الزهراء فرقاناً أوضح معالم وصفات الإمام الحق وميزته عن المتقمص لها ومن كلماتها سلام الله عليها (وما الذي نقموا من أبي الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ؟! نقموا والله نكير سيفه، وقله مبالاته لحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتممره (أي غضبه) في ذات الله، والله لو ما لوا عن المحجة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردّهم إليها، وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً سَجْحاً (أي سهلاً) لا يكلم حشاشه، ولا يكلُّ سائره، ولا يملُّ راكمه، ولأوردهم منهلاً نميراً، صافياً، رويّاً، تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سرّاً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ريّ الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم: الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ] (الأعراف: ٩٦). [فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا كَسَبُوا وَالَّذِينَ

ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيِّئِهِمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ
(الزمر: ٥١)) (١).

الزهراء (ع) الفرقان الحقيقي:

وكان يوم الزهراء (ع) فرقاناً لتمييز المنقلين على الرسالة من الثابتين عليها الشاكرين من أصحاب رسول الله (ص) [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ] (آل عمران: ١٤٤).

ومن ذلك اليوم تميّز في تاريخ الإسلام خطان الأول مستقيم [فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ] (هود: ١١٢)، يمثل نقاوة الإسلام وأصالته، وخط انحرف عن جادة الصواب، وكلما طال الزمن ازداد الانحراف والابتعاد عن الخط الأصيل حتى صار خلفاء المسلمين كما يسمّونهم يشربون الخمر على منابرهم هذا ولا زال أصحاب رسول الله (ص) أحياء. (وسلم)

وكانت فاطمة فرقاناً يميّز الحق عن الباطل إذ قال فيها رسول الله (ص) (فاطمة يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها) فما رضيت عنه

فاطمة فهو حق وما غضبت عليه فهو باطل لأنها معصومة وممن عرفت الله تبارك وتعالى فعرفت ما يرضيه وما يسخطه وما يصدر منها إلا ما يوافق رضا الله تبارك وتعالى.

وما أحوجنا اليوم إلى هذا الفرقان ليميز لنا الحق من الباطل، والهدى من الضلال في كل عقيدة أو دعوة أو فكرة.
وما أحوجنا إلى هذا الفرقان ليفرق لنا بين الصحيح والخطأ في آرائنا وتصوراتنا.

وما أحوجنا إلى هذا الفرقان ليميز لنا السلوك والتصرف الذي يرضي الله تبارك وتعالى من الذي يسخطه حيث اختلطت الأوراق وكثر المدعون واشتبهت الأمور.

اجعلوا الزهراء (عليها السلام) نصب أعينكم:

فاجعلوا الزهراء (عليها السلام) نصب أعينكم فيما يصدر منكم من فعل أو قول أو موقف أو فكرة تعتقدونها في عقولكم أو ضميمة تضمرونها في قلوبكم، واسألوا أنفسكم عن كل ذلك فحينما لا تلتزم المرأة بحجابها أو لا يؤدي الشاب الصلاة لربه أو لا يدفع التاجر خمس أمواله، أو يقصر المسؤولون في خدمة شعبهم أو يقوم أحد بتصرف من دون الرجوع إلى

المرجعية الرشيدة، فاجعلوا الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) حكما عليكم في خلواتكم هل ترضى بذلك أم تسخط فإن رضاها رضا الله تبارك وتعالى وسخطها سخط الله تبارك وتعالى.

التقوى فرقان القلب:

وإذا سألتكم كيف ندرك ذلك؟ وكيف ينبليج نور الفرقان هذا في قلوبنا حتى نستطيع به هذا التمييز، فإن الله تبارك وتعالى يجيبكم من قبل أن تسألوه تفضلاً منه وكرماً، قال تبارك وتعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ] (الأنفال: ٢٩)، إنها تقوى الله تبارك وتعالى التي تفجر ينابيع المعرفة في القلب، لأن التقوى تزيل تأثير الهوى الذي يصد عن الحق ويحجب القلب عن رؤيته بما يجعل من الحجب فتعمى القلوب التي في الصدور، قال أمير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (إن أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل، أما الهوى فانه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، وهذه الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وهذه الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فإن استطعتم أن تكونوا من أبناء الآخرة ولا

تكونوا من أبناء الدنيا فافعلوا، فإنكم اليوم في دار عمل ولا حساب وانتم
غداً في دار حساب ولا عمل^(١).

إن القلب ما لم يعمر بالتقوى وينفض عنه غبار الهوى وأغلال
الشهوات لا يمكن أن يهتدي إلى الحق ولو أقمت له ألف دليل [ولئن
أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك] (البقرة: ١٤٥)؛ لأن
الدليل مهما كان مفحماً ومسكناً فإنه لا يكون مؤثراً إذا لم تسكن إليه
النفس ويطمئن به القلب.

إن من لا يمتلك هذا الفرقان يتخبط ويسير على غير هدى ويضل نفسه
والآخرين ولا يميز بين ما يضره وما ينفعه ولا بين العدو وغيره كالثور
المستعمل في حلبات مصارعة الثيران يجعل همه في نطح قطعة القماش
الحمراء غافلاً عن عدوه المصارع الذي يطعنه بالخناجر حتى يصيب مقتله.

(وقفوهم إنهم مسئولون) (الصفات : ٢٤)

المسؤوليات الثابتة والمتحركة

لكي نؤدي مسؤوليتنا:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم [وقفوهم إنهم مسئولون] (الصفات: ٢٤)؛ فمسؤولية الإنسان إذن لا تنتهي بالموت، بل لا بد من وقوفه في يوم للسؤال عن كل ما صدر منه صغيراً كان أو كبيراً [في كتاب لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى] (طه: ٥٢) وسيقف الإنسان يومئذ مبهوراً متعجباً مستسلماً [وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمَجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا] (الكهف: ٤٩).

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت غاية كل حي
ولكننا إذا متنا بعثنا ونسأل بعدها عن كل شيء

فعلى الإنسان أن يستعد ليوم السؤال وأن يحضر أجوبته عن كل أفعاله ومعتقداته لكي لا يفاجأ بصحائف أعماله ويجد فيها ما جنت يده ولا يستطيع التدارك فلا ينفعه الندم [ولات حين مناص] (ص: ٣) وأن يعي

(١) خطبتنا صلاة عيد الأضحى المبارك التي أقامها سماحة الشيخ يعقوبي في داره يوم

مسؤولياته أي ما سيُسأل عنه -لأن المسؤولية اسم شيء مشتق مما يُسأل عنه- لكي يؤديها بالشكل الصحيح.

أصناف المسؤوليات:

والمسؤوليات على صنفين: ثابتة ومتغيرة؛ ولا نعني بالمتغيرة: أن حكمها يتغير لأن (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة) وإنما نعني حصول التغير في الموضوع والعناوين فيتغير الحكم تبعاً لها، فالخمر حرام لكن إذا عولجت وانقلبت خلاً صارت حلالاً لتغير الموضوع، والميتة حرام ولكن لمن اضطر غير باغ ولا عاد تكون حلالاً لظروء عنوان ثانوي عليها وهو الاضطرار، فالتغير ليس في أصل الأحكام وإنما في تطبيقاتها.

والتكاليف الثابتة معلومة على مستوى العقائد كالإيمان بوجود الله تبارك وتعالى ووحدانيته وصفاته الحسنى والأنبياء والرسل والأئمة سلام الله عليهم، وعلى مستوى الأحكام كوجوب الصلاة والصوم والخمس وحرمة شرب الخمر والزنا والغيبة وغيرها أو على مستوى الأخلاق كمحبوبة الصدق والكرم والحلم ومبغوضية الحسد والأنانية والتهور وغيرها.

أما المتغيرة فيمكن أن تتأثر بعناصر عديدة:

التأثر بالموقع:

منها: الموقع؛ فإن الإنسان العادي مسؤول عن نفسه وأهله وما

يرتبط به،

وحينما يكون وزيراً مثلاً فإنه مسؤول عن مؤسسات كاملة وإدارة كل الشؤون المرتبطة بوزارته ورعاية مصالح جميع الناس بما يرتبط بوظيفته، وحينما يكون إماماً في مسجد فإنه يكون مسؤولاً عن أبناء تلك المنطقة فيتفقدهم ويصلحهم ويقضي حوائجهم ويساعدهم ويهديهم ويصلح شأنهم، فإذا أصبح قائداً أو مرجعاً دينياً شملت مسؤوليته الملايين من الناس في شرق الأرض وغربها؛ ولذا نجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول وهو بالكوفة (ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشعب)، ويروي التاريخ أن المعتصم العباسي وصلته استغاثة امرأة في عمورية من بلاد الروم نادت: وامعتصماه؛ فقاد جيشاً كبيراً وخرج بنفسه لتأديب الروم وإغاثة المرأة.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (من أصبح لا يهتم

بأمر المسلمين فليس منهم ومن سمع رجلاً ينادي: يا للمسلمين فلم يجبه

فليس بمسلم) (١).

(١) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب فعل المعروف،

وكم من فقير وجائع ومكروب ومهجر ومريض ومسجون بغير حق
ينادي اليوم: يا للمسلمين، يا للحكومات، يا لعلماء الدين، يا للمرجعات.
فليعلم كل واحد مسؤوليته وإذا عجز عن حل المشكلة وقضاء
الحاجة فلا أقل من التفاعل مع القضايا ونصرة أصحابها بالكلمة والموقف؛
عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون
عنده فيهمم بها قلبه فيدخله الله تبارك وتعالى بهمة الجنة)^(١)، أما الذين في
موقع يسعهم قضاء حوائج الناس ويقدرون عليها فلا يهتمون ويقصرون في
إنجازها فقد خرجوا من ولاية الله تبارك وتعالى، ففي الحديث عن موسى
بن جعفر (عليه السلام) (من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيراً به في بعض
أحواله فلم يجره بعد أن يقدر عليه فقد قطع ولاية الله عز وجل)^(٢)، وعن
الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لم يدع رجل معونة أخيه المسلم حتى يسعى
فيها ويواسيه إلا ابتلي بمعونة من يأثم ولا يؤجر)^(٣).

تأثر المسؤولية بالظروف المحيطة:

(١) المصدر السابق ج ٤

(٢) المصدر السابق، باب ٣٧ ج ٤

(٣) المصدر السابق ج ٥

ومنها: الظروف المحيطة به؛ فنحن في العراق نعيش حالة احتلال وصراع سياسي وفقر وحرمان وقتل وتهجير واختطاف وفساد إداري وسرقة للمال العام واعتقال للأبرياء وغيرها من القضايا التي تحتم اتخاذ مواقف بإزائها لم نكن مكلفين بها قبل وجودها، ولا يعذر الإنسان حين يصمّ آذانه عن كل هذه القضايا من دون أن يقوم بواجبه تجاهها، كما لا تعذر الحكومة حين تصمّ آذانها عن مطالبة عوائل الأبرياء المعتقلين للإفراج عنهم أو تصمّ آذانها عن سماع الشعب العراقي المحروم الذي يطالب بتوفير مفردات البطاقة التموينية وتحسينها فتفعل الحكومة العكس وتعلن عزمها على تقليل المفردات إلى النصف.

تأثر المسؤولية بالبلد:

ومنها: البلد الذي يؤثر في نوع المسؤولية، فالشخص الذي

يسكن

العراق له تكاليف تختلف عن الذي يسكن في بلاد الغرب مثلاً فهذا تبرز عنده وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه يعيش في وسط مجتمع مسلم فوظيفته تقويم الانحراف داخل المجتمع المسلم بهذه الوظيفة، أما المقيم في الغرب فتبرز عنده وظيفة الدعوة إلى الإسلام لأنه يحاور غير المسلمين.

ويؤثر في حجم المسؤولية ومقدارها وجربتم لو أن مجموعة من الطلبة الجامعيين ينتمون إلى محافظات متعددة صدر منهم تصرف معين فإن الطالب النجفي يحاسب أكثر من غيره، ومعدريته أقل.

تأثير المسؤولية بالعلم:

ومنها: العلم؛ فكلما ازداد الإنسان علماً ازدادت مسؤوليته بكلا شقيها أي من حيث الثواب على الإحسان والعقاب على الإساءة لذا ورد في الحديث أن الجاهل يغفر له سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد.

تأثير المسؤولية بالمعرفة الإلهية:

ومنها: المعرفة بالله تبارك وتعالى؛ فكلما ازدادت معرفته ازدادت مسؤوليته، فقد تكون حالة مباحة وليست في دائرة المسؤولية ضمن مستوى معين ولكنها تكون ضمن دائرة المسؤولية في المستوى الآخر، لذا ورد في الحديث الشريف (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فهي ليست سيئات بالمعنى المتعارف وإلا لما أصبحت حسنات بالنسبة للأبرار، فهي سيئات بالمعنى المناسب للمقربين.

مثلاً يستغفر البعض لأنه غفل فلبس الحذاء الأيسر قبل الأيمن على خلاف الاستحباب، وروي عن بعض العلماء أنه كان يبكي لما دنت منه الوفاة رغم أنه أنفق كل ما عنده لقضاء حوائج الناس لكنه يبكي لأنه كان يستطيع أن يستعمل جاهه لخدمة مزيد من الناس.

روى سيدنا الشهيد الصدر (قده) أنه صلى ركعتي استغفار ذات مرة لأنه التقى بشخص لم يره منذ مدة فقال له: مشتاقين. ولما عاد إلى نفسه خشي أن لا يكون صادقاً.

ومستويات الناس من هذه الناحية متباينة جداً ومتفاوتة بدرجات لا تنتهي لأن الكمال لا ينتهي، وقد ورد ما يدل على ذلك في حديث عن الأمام علي بن الحسين (عليه السلام) أنه جاء إليه رجل فسأله (فقال له: ما الزهد؟ فقال: الزهد عشرة أجزاء فأعلى درجات الزهد أدنى درجات الورع، وأعلى درجات الورع أدنى درجات اليقين، وأعلى درجات اليقين أدنى درجات الرضا، وإن الزهد في آية من كتاب الله عز وجل [لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ] (١).

الإيمان عشر درجات:

وقد ورد عن المعصومين (عليهم السلام) عدم جواز استعلاء صاحب الدرجة الأرقى على من هو دونه والاستخفاف به أو عدم مراعاة حاله، ففي كتاب الخصال للشيخ الصدوق (رضوان الله عليه) عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله لأحد أصحابه واسمه عبد العزيز: (يا عبد العزيز الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم له عشر مراقي وترتقي منه مرقة بعد مرقة فلا يقولن

صاحب الواحدة لصاحب الثانية لست على شيء، ولا يقولن صاحب الثانية لصاحب الثالثة لست على شيء ... حتى انتهى إلى العاشرة، قال: وكان سلمان في العاشرة، وأبو ذر في التاسعة، والمقداد في الثامنة، يا عبد العزيز لا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، إذا رأيت الذي هو دونك فقدرت أن ترفعه إلى درجتك رفعاً رفيقاً فافعل، ولا تحملنَّ عليه ما لا يطيقه فتكسره فإنه من كسر مؤمناً فعليه جبره^(١).

قصة للجد الشيخ اليعقوبي مع الميرزا النائيني:

وروى^(٢) السيد الصدر (قده) أن جدي اليعقوبي كان يقيم مجالس العزاء الحسيني في دار الميرزا النائيني (قده) المرجع الديني في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي فإذا أنهى المجلس قال الناس: أحسنت وأمثالها إلا النائيني فكان يقول: غفر الله لك، فسأله الشيخ اليعقوبي عن سر ذلك فقال له النائيني (قده): لأنك تأتي في كلامك بروايات لم تثبت صحتها فأطلب لك المغفرة لذلك، فالتزم الشيخ اليعقوبي (قده) في اليوم التالي بالتحقيق في سند الروايات وعدم ذكر إلا ما يصح منها فلم يؤثر في الجالسين ولم تتحرك عواطفهم ولم يتفاعلوا مع المصيبة فأذن له

(١) الخصال للشيخ الصدوق، أبواب العشرة، ص ٤٤٨

(٢) قناديل العارفين ٢ ٩

الشيخ النائيني (قده) بالعودة إلى طريقة التسامح في الروايات أي ما يسمى بقاعدة التسامح في أدلة السنن والمستحبات، وعلّق السيد الصدر (قده) بأن (حال) اليعقوبي أو درجته هي (من بكى أو أبكى أو تباكى كان له كذا من الأجر) وحال الشيخ النائيني (قده) [مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ] فتكليفهما مختلف.

تأثير المسؤولية بالانتماء:

ومنها: الانتماء؛ فالذي يوالي أمير المؤمنين (عليه السلام) وأهل البيت (عليهم السلام) عليه مسؤوليات أكثر من غيره من المسلمين والذي ينتمي إلى المرجعية الناطقة الحركية يشعر بالمسؤولية عن دينه ومجتمعه أكثر ممن ينتمي إلى المرجعيات التقليدية الساكنة لذا تجد الحيوية والاندفاع والسبق إلى تنفيذ المشاريع التي تعلي كلمة الله تبارك وتعالى وترفع راية الإسلام في أتباع المرجعية الأولى أكثر.

مسؤولية الإيمان بالإمام المهدي (عليه السلام):

ولعل من أهم المسؤوليات التي يتحملها من ينتمي إلى مدرسة أهل البيت (سلام الله عليهم) هو الإيمان بالإمام المهدي (عليه السلام) والتفاعل مع قضيته واستشعار مراقبته ورعايته وإطلاعه على أعمال العباد والعمل على تعجيل ظهوره الشريف وإقامة دولته المباركة.

ما الذي نفهمه من دعاء الفرج؟

وأشير هنا إلى واحدة من تلك المسؤوليات وهي ما ورد

في الدعاء

الشريف (اللهم كُنْ لَوْلِيَّكَ الْحِجَّةَ بْنَ الْحَسَنِ صَلَواتِكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آبائِهِ) إلى أن يقول (حتى تَسْكَنَهُ أَرْضَكَ طَوْعاً) أي طواعية وسلاماً من دون قتال أو صعوبات أو معوقات. والدعاء عند أهل البيت ليس فقط كلمات تتلى للثواب وإنما هو وسيلة لإلقاء العلوم والمعارف إلى شيعتهم.

ويمكن أن نفهم هذه الفقرة بعدة أشكال:

١- الطلب من الله تبارك وتعالى أن يذلل للإمام (سلام الله عليه) السماوات والأرض والبحار فتكون في أوضاع مناسبة لحركته المباركة وأن توظف لخدمته وتكون عوامل مساعدة لعمله المبارك كما نصر الله تبارك وتعالى رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في معركة بدر بألف من الملائكة والنعاس والمطر والرعب في قلوب الكفار؛ قال تعالى [إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ، وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، إِذْ يَغْشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةٌ مِنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ

قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ، إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ فَتَبْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ [(الأنفال: ٩-١٢)]
 وكيف أرسل الله تبارك وتعالى الرياح العاتية على الأحزاب فقلعت خيامهم وهزمتهم حتى انسحبوا [يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنوداً فارساً فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً] (الأحزاب: ٩).

٢- أن يمكن المؤمنين من الوصول إلى مواقع النفوذ والسلطة والحكم في البلاد التي ينطلق منها الإمام (عليه السلام) لتأسيس دولته الكريمة وهؤلاء يهيئون تسليم الحكم للإمام (عليه السلام) بكل طاعة وولاء أما إذا كانت بأيدي المنافقين والكفار والمعادين فإن الإمام سيبذل كثيراً من الجهد والتضحيات لفتح هذه البلاد، وقد وردت روايات تسمى فيها بعض القيادات الصالحة التي تلتحق بالإمام (عليه السلام) مع قواتها سلماً وتسلم له القيادة في العراق في حين تحاربه جيوش من بعض الدول المجاورة وبعض المنافقين في هذه البلاد.

٣- إن البشرية ستكون قريباً من الظهور مستعدة لاستقبال المصلح الموعود بسبب الأزمات الخائفة التي تعجز عن حلها سواء

كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو بيئية أو صحية أو عسكرية وغيرها فحينما تبلغهم دعوة الإمام (ﷺ) لإقامة الحق والعدل وسعادة البشرية وإنصاف المظلومين والمحرومين واجتثاث أصول الفساد فسينقادون إليه ويؤمنون به، ويساهم السيد المسيح (ﷺ) بدور فاعل في إذعان الأمم المسيحية للإمام المهدي (ﷺ)، بحسب ما ورد في الروايات.

تكاليفنا تجاه أحداث الظهور:

فكلّ من هذه المحاور يوجب تكليفاً بإزائه، فالشكل الأول

يدعو إلى

ديمومة الدعاء للإمام (ﷺ)، والشكل الثاني يدعو شيعة الإمام (ﷺ) التواقين لظهوره الميمون أن يزيدوا من خبرتهم في الإدارة والحكم وينظموا صفوفهم ويعبثوا طاقاتهم للوصول إلى هذه المواقع وبذل الوسع في النجاح في أداء مهامهم حتى يتمكنوا في الأرض وينجحوا ثم يسلموا مقاليد الأمور إلى بقية الله الأعظم (ﷻ).

والشكل الثالث يقضي بأن لا يقصّر المؤمنون في عرض الإسلام

النقي الأصيل كما ورد عن النبي (ﷺ) وسلم) وآله الطاهرين (ﷺ) على شعوب العالم وأن يبينوا لهم محاسنه ويرغبوهم بالدخول فيه ويشوقونهم إلى اليوم الذي تسود فيه مبادئ الإسلام -التي هي مبادئ الإنسانية-

الأرض كلها مستفيدين من وسائل الإعلام والاتصالات التي بلغت حداً عظيماً، ويشرحون لهم الحال المزرية التي أوصلتهم إليها أنظمتهم التي وضعها البشر بجهله وغروره من أمراض فتاكة كالآيدز ومن قلق ورعب ومستقبل مجهول وتفكك اجتماعي وضياع وأزمات اقتصادية وتلوث بيئة وغيرها من المشاكل المستعصية.

لا تكونوا من المطففين:

إن كل العناصر السابقة كولاية أهل البيت (عليهم السلام) أو الكون في موقع مهم يمكن أن تكون سبباً لامتيازات يحصل عليها الإنسان في الدنيا والآخرة، ومقتضى العدالة والإنصاف أن يفى بالمسؤوليات التي تقابلها وإلا كان من المطففين الذين يأخذون أكثر مما يعطون فهددهم الله تبارك وتعالى بالويل [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَيَلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أَوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ] (المطففين: ١-٦).

روي أن الإمام الحسين (عليه السلام) كان يذهب إلى مكة ماشياً على قدميه وإن النجائب المعدة للركوب تقاد بين يديه تعظيماً لله تبارك وتعالى، ولكنه كان يتكب عن الطريق العام فقيل له في ذلك، فقال (عليه السلام): (أخشى أن أخذ من رسول الله أكثر مما أعطيه) فالحسين (عليه السلام)

صاحب أعظم عطاء في البشرية يستقل ما يقدم إزاء ما يأخذ من امتيازات كالتقديس والحب والتبرك وغيرها.

لنحاسب أنفسنا على ما أدينا من مسؤوليات:
أيها الأحبة:

أمام هذه المديات الواسعة والتنوع الكبير والتباين الهائل في المسؤوليات والاستحقاقات والامتيازات ينبغي للإنسان أن يراجع نفسه ويقيم أعماله ويجري محاسبة يومية انطلاقاً من الأحاديث الشريفة كقول الإمام الكاظم (عليه السلام): (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه)^(١) وقول الإمام الصادق (عليه السلام) (فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقداره ألف سنة، ثم تلا قوله تعالى [فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ])^(٢)، ولا أقل من استغلال الأيام الشريفة لهذه المراجعة والتأمل فيما قدم وأخر كيوم عرفة يوم التوبة العالمي والاستغفار والإنابة إلى الله تعالى وفي يوم العيد الذي يعني العود والرجوع إلى الله تبارك وتعالى، وكان من المعالم البارزة لإحياء هذه الشعائر الحشد الكبير الذي غص بهم الصحن الحسيني المطهر أمس لتلاوة دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة

(١) و (٢) وسائل الشيعة ج ١ ، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس، بيا ٩ آج ١ ، ٢

وهم يبكون ويتضرعون ونقلته لنا بعض الفضائيات، ومثل هذا الاجتماع المبارك سبب مهم لرفع البلاء عن هذه الأمة.

ما الذي يقتضيه الشعور بالمسؤولية؟

إن الشعور بهذه المسؤوليات والالتفات إليها يقتضي عملين:

الأول: رفع التقصير عما لم يقم به الإنسان والندم عليه وتداركه.

الثاني: شحذ الهمة والعزيمة ورفع مستوى الطموح ليلبغ أعلى هذه

الدرجات ويستوعب أكبر مساحة من المسؤوليات ليحظى بأعلى

الامتيازات عند الله تبارك وتعالى [وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ

وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] (التوبة: ٧٢) [قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ

مِّنْ ذَلِكَمَّ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

إِنَّا أَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ

وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ] (آل عمران: ١٥-١٧).

(واعتصموا بحبل الله جميعاً) ^(١) [آل عمران : ١٠٣] أساس وحدة المسلمين

السلام عليكم أيها الحفل الكريم ورحمة الله وبركاته..
يتحدث المسلمون بجميع طوائفهم عن ضرورة الوحدة ونبذ
الخلاف ويعقدون المؤتمرات و الندوات والحوارات تحت هذا العنوان
وتصرف الأموال الضخمة في هذا السبيل دون أن يتحقق تقدم يذكر وربما
ازدادوا بعداً عن بعضهم، فأين الخلل ولماذا هذا العجز عن الوصول إلى
الحل؟

يدلُّنا القرآن الكريم على ما تتحقق به الوحدة بين المسلمين فانه
يقول: [واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم
إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا
حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون] (آل
عمران: ١٠٣).

(١) كلمة سماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) التي أقيمت في الحفل الذي أقامته
ممثلية المرجعية الرشيدة في العاصمة الألمانية برلين بمناسبة عيد الغدير الأغر لسنة

وقد وردت الروايات في تفسير الآية بأن جبل الله هو القرآن الكريم وولاية علي بن أبي طالب والأئمة المعصومين (سلام الله عليهم) من ذريته، وتشهد نفس الآية على هذا التفسير، لأنها ذكرت أن العرب كانوا أعداء متباغضين فوحدهم الله تبارك وتعالى وجمع كلمتهم بنعمة الإسلام، وقد أشارت آية أخرى إلى أن تمام هذه النعمة ونظام عقدها ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال تعالى: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا] (المائدة: ٣) وقد روى المفسرون من الطائفتين أنها نزلت بعد تنصيب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأخيه وابن عمه علي بن أبي طالب (عليه السلام) خليفة وولياً وهادياً للأمة بعده يوم الغدير بعد حجة الوداع.

وإلى هذا أشارت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء في خطبتها في مسجد أبيها (صلى الله عليه وسلم) (فجعل إمامتنا نظاماً للملة، وطاعتنا أماناً من الفرقة).

ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ليست قضية عاطفية تجاه شخصيته العظيمة ولا عقيدة نظرية تؤمن بها وإنما هي باب يفتح منه ألف باب من الاعتقادات والأحكام والآداب تكون برنامجاً كاملاً في المعتقد والسلوك على صعيد الفرد والأمة.

والأمة لم تقع فيما وقعت فيه من التخبط والصراع والفتن المضلة التي تسببت في إزهاق أرواح الأجيال بعد الأجيال من الأبرياء وخراب البلاد وانهيار الحضارة وعدم الاهتداء إلى الحق إلا بسبب عدم تمسكها بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وعروته الوثقى التي لا انفصام لها. وهذا ما دعا عبد الله بن العباس وغيره من الصحابة العارفين يتأوه إلى نهاية عمره مما حصل في رزية يوم الخميس التي سبقت وفاة رسول الله (ﷺ) وسلم) بأيام، ويقول عن مسألة (العول) أي النقص في فرائض الميراث التي قال بها من لم يأخذ العلم من نيمره الصافي وفندها أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بعده (سلام الله عليهم) وفيها يقول عبد الله بن العباس بعد أن اثبت بطلان القول بالعول في رواية طويلة: قال (وأيم الله لو قدم من قدم الله وأخر من آخر الله ما عالت فريضة))^(١) وهو يقصد بحسب الظاهر التقديم والتأخير في استحقاق الميراث لكنه كان يريد معنى أعمق من ذلك بأن الأمة لو قدمت لولاية أمرها من قدمه الله تبارك وتعالى واختاره لخلافة رسول الله (ﷺ) وسلم) لما نقصت فريضة أو عطلت سنة.

إن استحقاق أمير المؤمنين (عليه السلام) للخلافة بعد رسول الله (ﷺ) وسلم) كان سابقاً على يوم الغدير، أما الاحتفال الذي أقامه رسول الله

(١) وسائل الشيعة، كتاب الميراث، أبواب موجبات الإرث باب ٦١٧

(ﷺ وسلم) في غدیر خم في طريق عودته إلى المدينة بعد حجة الوداع ودعا المسلمين إلى مبايعة علي بن أبي طالب (عليه السلام) بالولاية والإمامة بعده (ﷺ وسلم) تلبية لأمر الجليل تبارك وتعالى حيث انزل الآية الكريمة [يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ]، أقول أما هذا الاحتفال فكان كاشفاً عن هذا الاستحقاق وإعلاناً رسمياً للتنصيب، وقد كان الكثير من الصحابة الأجلاء (رضوان الله تعالى عليهم) يعلمون أحقية أمير المؤمنين (عليه السلام) وبولايته وعرفوا بتشيعهم له في وقت مبكر من حياة رسول الله (ﷺ وسلم).

فالنقاش إذن في دلالة قول النبي (ﷺ وسلم) يوم الغدير (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) أو المناقشة في نزول الآية في قضية الغدير لا يقدم ولا يؤخر وهي شبهة مقابل البديهة - كما يقول العلماء - لأن حق أمير المؤمنين في خلافة رسول الله (ﷺ وسلم) لم يكتسبه من ذلك اليوم بل استحقه بما يحمل من صفات تؤهله لهذا المقام الشريف وقد أعلن رسول الله (ﷺ وسلم) هذا الاستحقاق في مناسبات عديدة سبقت قضية الغدير بسنين وكان بعضها - كحديث الدار - في وقت مبكر من البعثة في مكة المكرمة وفي حياة أبيه أبي طالب (رضي الله عنه) حتى تهكم

بعض مشركي قريش من أبي طالب وقال له أن محمداً يدعوك إلى طاعة
ولذلك الصغير عليّ.

أيها الأحبة من كل طوائف المسلمين.

إنني أريد بهذا الكلام أن أقول أن الوحدة بين المسلمين تتحقق
بالعودة إلى كتاب الله تبارك وتعالى وسنته الشريفة الصحيحة بعد تنقيحها
من التلاعب والتزوير والدس الذي قام به المنافقون، وحينئذ سيلتقي جميع
المسلمين عند الحقائق التي يعلمها الله تبارك وتعالى.

والوصول إلى الحقيقة وكشفها للناس ووظيفة العلماء الأجلاء، ولا
نصل إلى الحقيقة إلا بتحرير العقول من التقليد والتعصب والتحجر وذلك
بفتح باب الاجتهاد ودعوة العلماء الذين حصلوا العلوم التي تؤهل
لممارسة عملية استنباط الحكم الشرعي من مصادره الأصلية إلى عدم
الوقوف على المذاهب المعروفة وتطبيق فتاوى أئمة المذاهب على
الحالات التي تعرض عليهم وإنما يرتقون بمداركهم إلى استنباط الحكم
الشرعي من الكتاب والسنة، وسيجد علماء المسلمين جميعاً أنفسهم عند
تلك القمة السامقة متفقين متوحدين ينهلون من معين واحد ولا يختلفون
إلا بالمقدار الطبيعي الذي يحصل بين علماء أي حقل
من حقول العلم والمعرفة.

وقد وجدت خلال بحثي الفقهي الاستدلالي أن كثيراً من الروايات التي يستند إليها الفقهاء السنة و الشيعة في استنباط الحكم الشرعي متطابقة الألفاظ فضلاً عن المعاني، ويعود الفضل في ذلك إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) والأئمة من بنيه الطاهرين حيث بثوا عدداً ممن حملوا جملة من أحكامهم ومعارفهم ولا يجد المسلمون من غير أتباع أهل البيت حزازة في الأخذ عنهم كعبد الله بن العباس ونقل هؤلاء إلى عموم المسلمين علوم الشريعة من معدنها الصافي، وهذا نابغ من رحمتهم وحبهم للناس جميعاً حتى وإن أعرضت الأمة عن إعطائهم المكانة التي يستحقونها.

أرجو أن يساهم السادة الحضور وكل من يسمع هذا النداء المخلص لتفعيل هذه الدعوة المباركة في أروقة حواضر العلم صانها الله تبارك وتعالى في بلاد المسلمين.

وأسأل الله تعالى أن يأخذ بأيديكم لما فيه الصلاح والإصلاح وأن يثبت لكم قدم صدق عند مليك مقتدر، إنه ولي النعم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

(١) [النساء : ١١٤] لنا خير في كثير من نجواهم أهمية الكلمة وتأثيرها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان علّمه البيان وصلى الله على سيد خلقه المبعوث رحمة للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

(الكلمة) من أوسع القنوات الموصلة إلى رضا الله تبارك وتعالى فمن خلالها تكون النصيحة وبها تتم الموعدة وتجري الهداية ويتحقق الإصلاح ويتشر العلم والمعرفة وتبنى الحضارة وتتقدم الإنسانية وتتكامل التربية فهي وعاء لهذه الطاعات العظيمة وغيرها.

لذلك جاء رجل إلى الإمام (عليه السلام) وسأله: هل الكلام أفضل أم السكوت؟ ففهم الإمام من حاله انه واقع في شبهة أن السكوت واعتزال الناس ومقاطعتهم أفضل لما بلغه من الأحاديث الشريفة التي تحث على السكوت وقلة الكلام فبين له الإمام (عليه السلام) أن الكلام إذا كان خالياً من السوء والفحشاء فهو أفضل بالتأكيد وقال له: وهل بعث الأنبياء إلا بالكلام،

(١) كلمة سماحة الشيخ محمد اليعقوبي التي ألقى نيابة عنه في احتفال أقيم يوم ٤ رجب ١٤٢٦ المصادف ١٠ ٨١ ٢٠٠٥ في وزارة الثقافة بمناسبة مرور عام على افتتاح إذاعة البلاد وقد أضاف سماحته عليها مقاطع مهمة.

قال تعالى: [لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ] (النساء: ١١٤) حتى عَدَّتْ (الكلمة الطيبة صدقة)^(١) في بعض الأحاديث.

وفي المقابل فإن الكلمة السيئة لها ضرر بليغ ومدمّر وإن كثيراً من الكبائر التي وعد الله بها النار مرتبطة بالكلمة كالغيبة والنميمة والبهتان والكذب والافتراء والسب والشتم والإيذاء وإشاعة الفاحشة وغيرها لذا ورد في الحديث (وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم)^(٢) وألّف العلماء والمربّون والأخلاقون كتباً في (آفات اللسان).

لذلك خصص المشرع الأقدس حصة كبيرة من تعاليمه لتهديب هذه الكلمة وتوجيهها لتكون نافعة ببناءة فرسم ملامح الكلمة الطيبة [كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا] (إبراهيم: ٢٤-٢٥) وحذر من ضرر الكلمة الخبيثة [وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ] (إبراهيم: ٢٦) وحذر من مغبة الكلمة الضارة.

فمثلاً اعتبر من يقول ولو شطر كلمة في المشرق فقتل بها شخص في المغرب اعتبره قاتلاً، كما يفعل اليوم صنّاع ثقافة التكفير والقتل والظلم

(١) وسائل الشيعة: كتاب الصلاة، أبواب حكام المساجد، باب ٢٧، ح ٣.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ١١٥.

والعدوان فيطيعهم وينخدع بضلالتهم شخص في المشرق أو المغرب ويقوم بعملية إجرامية يكون وزرها الأول على صانع هذه الثقافة.

ويوجد بهذا الصدد حديث شريف مهم ويشكل ضربة قاضية لهؤلاء الذين يروجون صناعة القتل والرعب لمجرد الاختلاف في الرأي أو تضرر المصالح فقد روى الإمام الصادق (عليه السلام) عن جده رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال "يعذب الله اللسان بعذاب لا يعذب به شيئاً من الجوارح فيقول: أي رب عذبتني بعذاب لم تعذب به شيئاً، فيقال له: خرجت عنك كلمة فبلغت مشارق الأرض ومغاربها فسفك بها الدم الحرام وعزتي لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئاً من جوارحك".^(١)

فإذا استشعرنا هذه الأهمية فإن هذا الشعور سينظم برامج التعامل مع الكلمة وسيراقبها ويتحكم بها، فإن الكلمة في وثاقتك وتحت سيطرتك ما دمت لم تطلقها فإذا أطلقتها فستكون أنت في وثاقها وتحمل تبعاتها ومسؤوليتها، وكم شخص ذهب ضحية الكلمة سواء في الدنيا أو في الآخرة كقاضي القضاة للمعتصم العباسي الذي وشى بالإمام الجواد (عليه السلام) وهو يعلم أن ذلك سيخلده في النار كما قال هو نفسه.

ونحن اليوم نشهد ثورة معلوماتية هائلة وتكنولوجيا اتصالات عظيمة لم تحلم بها البشرية من قبل، تفتح لنا الأبواب الواسعة لإيصال

(١) وسائل الشيعة، ج ٨، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، باب ٤

خطاب السلام والسعادة للبشرية، ولم يعد الطغاة قادرين على حبس الكلمة ومنع وصولها إلى الناس كما كانوا يفعلون عبر التأريخ ولسانهم واحد [مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى] (غافر: ٢٩)، واضطر الإسلام لحمل السيف في وجوه هؤلاء الطغاة ليحرر شعوبهم من عبادتهم ويترك لهم الخيار في اعتناق العقيدة التي يقتنعون بها تحت شعار [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ] و[لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ] (الأنفال: ٤٢) و[فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ] (الكهف: ٢٩) و[إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا] (الإنسان: ٣) وشجع الحوار وثقافة الرأي الآخر [قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ] (البقرة: ١١١) [وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ] (العنكبوت: ٤٦) [ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ] (النحل: ١٢٥).

كما أننا نعيش بفضل الله تبارك وتعالى فرصة عظيمة لإيصال الكلمة الطيبة إلى مسامع العالم التواق للسلام والسعادة والخير، بعد أن فشلت أمامه كل الأيديولوجيات وبعد أن فشل غير اتباع أهل البيت (عليهم السلام) في عرض الإسلام بشكله الصحيح مما اوجب نفوراً وارتداداً لدى معتقيه، فالعالم كله ينتظر منكم يا اتباع أهل البيت (عليهم السلام) أن تعكسوا لهم الصورة النقية الناصعة للإسلام المملوءة بالرحمة وحب الخير والسلام والطمأنينة لكل البشر.

وقد مرّت علينا عقود من سنيّ الكبت وسلب الحرّيات والحجر على الكلام، وقد أزاله الله تعالى ليلبونا أنشكر ونؤدي حق هذه النعمة، أم نكفر والعياذ بالله ونسيء استخدام هذه الحرية.

فهذه عوامل ثلاثة:

- ١- وسائل الاتصالات المتطورة.
 - ٢- فشل الإيديولوجيات في تحقيق السعادة للبشرية وتوفير الأمن والسلام والطمأنينة لها.
 - ٣- توفر الحرية الكاملة لممارسة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والحق والهداية والصلاح.
- تضاعف علينا مسؤولية استثمار (الكلمة) في أداء الرسالة التي ائتمنا الله تبارك وتعالى وقبلنا حملها بعد أن اعتذرت السماوات والأرض وسائر المخلوقات عن حملها (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً).
- واعتقد أن (إذاعة البلاد) من المؤسسات التي تعمل على نشر الكلمة الطيبة وأمامها مجال واسع لترسيخ مبادئ الإنسانية ومثلها العليا فبوركت جهودكم وشكر الله سعيكم.

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)^(١)

[الحديد : ١٦]

الذي أريد أن أعرضه هنا هو كيف نحول إيماننا بالله تعالى من مستوى النظرية إلى مستوى التطبيق، يعني إذا كنا كلنا نعلم أن هذا التصرف خطأ فلماذا نفعله؟ وإذا كنا نعلم أن هذا التصرف صحيح فلماذا لا نفعله؟ كيف نوّلد في أنفسنا الدواعي والدوافع نحو التطبيق بحيث نتعامل

(١) من خطبة ألقيت في صلاة الظهرين يوم عيد الأضحى المبارك ٤٢٢ هـ الموافق ٢٣ ٢ ٢٠٠٢م في جامع حي الغدير في النجف الأشرف. وتجد بقيتها في كتاب خطاب المرحلة ٢ ٢٦ ١.

مع الله تبارك وتعالى كأننا نراه فإن لم نكن نراه فإنه يرانا؟ وهذا مما لا يشك فيه مؤمن.

فهذه المرأة التي لا تلتزم بالحجاب، وهذا الشاب الذي لا يصلي، وهذا الشخص الذي يلعب الطاوالي والدومينو والمؤذن ينادي حيّ على الصلاة، وهؤلاء الذين يغشون في السوق ويأكلون المال بالباطل متذرعين بالحيل الشرعية، وهذا الذين يخون الأمانة، وهذه العشائر التي تحكم بغير ما أنزل الله وتتقاتل فتسفك الدماء وتيتم الأطفال من أجل الأمور التافهة، وهؤلاء الشباب والشابات الذين يكونون علاقات غير مشروعة تحت عناوين مختلفة كالزمانة ونحوها، كل هؤلاء وغيرهم ألا يعلمون أن هذه أفعال محرمة لا يرضاها الله تبارك وتعالى؟ لابد أنهم يعلمون! فما الذي يجرتهم على الله؟! ألا يعلم هؤلاء أن أماننا عقبة كؤوداً هي الموت، وما بعد الموت أعظم وأدهى؟ أليس هؤلاء مسلمين ويؤمنون بالله - ولو نظرياً على الأقل - ويؤمنون بالآخرة والمعاد والحساب، فلماذا لا ينعكس هذا الإيمان على تصرفاتهم؟ أين الخلل؟

وهنا تذكرت كلمة أمير المؤمنين (عليه السلام): (ما رأيت يقيناً أشبه بشكٍّ مثل الموت)، فإنه يقين مائة بالمائة على مستوى النظرية، لكنك لا تجد من يؤمن به عملياً، بمعنى أنه يستعد له الاستعداد الكامل، وكأنه كتب على غيره، فترى الإنسان إذا عزم على سفر قد لا يطول شهراً يعدُّ كل ما

يحتاجه أو يحتمل أنه يحتاج إليه، ويهيئ جميع أموره حتى الحقير منها، فلماذا لا يستعد بنفس الاستعداد لسفر الآخرة ويحضر زاده لهذا السفر الذي بينه القرآن الكريم: [وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الأبواب] (البقرة: ١٩٧)، وقال الإمام الحسين (عليه السلام): (وحصل زادك قبل حلول أجلك).

فكيف نرجع إلى الله تعالى ونعود إليه خصوصاً بمناسبة العيد الذي قلنا أن معناه العود إلى الله تبارك وتعالى؟ وكيف نجلب الإيمان إلى نفوسنا وقلوبنا استجابة للعتاب الرقيق الرحيم الذي يوجهه الله تبارك وتعالى إلينا نحن المؤمنين: [أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ] (الحديد: ١٦)، ثم يضرب لنا مثلاً لهذه القلوب التي تقسو بسبب الخوض في أمور الدنيا، لكنها ترق وتحيى بعد أن يزهر فيها الإيمان وتعمر بذكر الله تعالى، فيقول في الآية التالية: [اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون] (الحديد: ١٦-١٧)، بل قد وصف في آية أخرى إعمار القلب بالإيمان وذكر الله بالحياة، فقال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ] (الأنفال: ٢٤)، ونحن هنا نشير بعض المحفزات النفسية والعقلية والقلبية التي تحثنا نحو التطبيق:

١- إن من شأن كل عاقل أن يرد الجميل بالجميل ويجازي الإحسان بالإحسان [هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ] (الرحمن: ٦٠) [وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ] (القصص: ٧٧)، ونعم الله تعالى علينا كثيرة سواء على صعيد أبداننا التي هي عبارة عن معامل ومصانع كثيرة تعمل بدقة وإتقان، وأبسط مراجعة لكتاب (الطب محراب الإيمان)^(١) تنبئك عن هذا مما يوقف شعر رأسك، أو على صعيد الحياة حولنا من كون متناسق وأرض طيبة معطاء ونعم لا تعد وتحصى [وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا] (إبراهيم: ٣٤)، وجزاء الإحسان إحسان مثله، ولما كان الله غنياً عن عباده ولا يمكن أن يصل إليه نفع من أحد، فردَّ الإحسان بالنسبة إليه طاعته، ومن أشكال شكر النعم أن تطيع المنعم بها، أمّا عصيانه مع نعمه الوفيرة فهذا مما لا يرضاه عاقل.

٢- إن كل واحد منا يحب أن تزيد النعم عليه، وهي بيد الله سبحانه المنعم الحقيقي، وقد وعدنا سبحانه: [لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ] (إبراهيم: ٧)، وفي الحديث: (بالشكر تدوم النعم)، فعلى من يريد زيادة النعم كالمال والبنين والجاه والصحة وغيرها فعليه أن يطيع الله ويشكره ليزيده الله من النعم [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ] (الأعراف: ٩٦).

(١) تأليف: الدكتور السوري خالص جلبي، وهي رسالة دكتوراه في كلية الطب.

٣- إنه إذا أخبرنا إنسان ثقة بأن حيواناً مفترساً في هذه الجهة، فإننا سنهرب بالاتجاه المعاكس، ونحذر منه ونتخذ الإجراءات الواقية من الوقوع في الخطر، فإذا أكد هذا الخبر ثقة آخر ازداد استعدادنا لذلك وكنا أكثر حزمًا، وقد أخبرنا مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ومثلهم من الأوصياء والعلماء أنه سيكون هناك يوم قيامة يثاب فيه المطيع على طاعته ويعاقب العاصي على عصيانه بنارٍ وقودها الناس والحجارة، أفلا يوجب هذا البيان المؤكد الحذر والابتعاد عن كل ما يورطنا في هذه النار المتأججة، وقد وصفها القرآن الكريم بمشاهد مرعبة، وأخبرنا أن معصية الله سبحانه توقعنا فيها، وأن طاعته تورثنا جنة عرضها السماوات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ] (السجدة: ١٧)؟.

٤- أن نسأل أنفسنا سؤالاً: ماذا يخسر الإنسان لو أطاع الله سبحانه واستقام على الشريعة؟! لا يخسر شيئاً، بل هو يعيش ويتمتع بالحياة كما يفعل البعيد عن الله سبحانه، وفوق ذلك له المكاسب الدنيوية والأخروية التي يحققها له الإيمان بالله سبحانه والسير على شريعته، قال الله تعالى: [وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ] (النساء: ١٠٤)، وقد اتبع هذا الأسلوب الإمام الصادق (عليه السلام) حين قال لأحدهم: (يا هذا إن كان ما تقول أنت - بأنه لا جنة ولا نار ولا حساب حق - فنحن وأنتم سواء، فإننا نأكل كما

تأكلون وننكح كما تنكحون، وإن كان الأمر كما نقول هلكتم ونجوناً^(١) وهو أسلوب لا يستطيع أن يرفضه أي عاقل.

٥- أن نلتفت إلى أن الله تعالى مطلع علينا ولا تخفى عليه خافية في السماوات والأرض، وهو أقرب إلينا من جبل الوريد، وقد جعل على كل واحد منا ملائكة يحصون الأعمال في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، وجعل الشهود على ذلك من أعضائنا التي نمارس بها حياتنا [شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين] (فصلت: ٢٠-٢٣)، فإذا التفتنا إلى هذه الحقائق فسنكون دقيقين في تصرفاتنا، وسنحسب ألف حساب قبل أن نورط أنفسنا في المعصية.

٦- إن الإنسان الذي يمتنع عن إعطاء شيء من نفسه أو ماله لطاعة الله تعالى فإنه سيدفع أكثر منها في معصية الله وهو راغم، وستكون عليه حسرة يوم القيامة، فلا يدفع الحقوق الشرعية في أمواله لكنه يدفع أموالاً كثيرة في أمور تافهة تجر عليه حسرة يوم القيامة، أو يقصر في العبادة أو

(١) الكافي: ٧٨١

يتكاسل عن قضاء حوائج المؤمنين فيبتليه الله بمشاغل كان يمكن أن يدفعها الله عنه لو لم يقصر في طاعة الله فيفوز بالآخرة ويكفيه الله مؤونة الدنيا وتعبها.

٧- إن من يطيع الله سبحانه ويتجنب معصيته يعيش لذة الانتصار على أعدى أعدائه، وهي النفس الأمارة بالسوء كما وصفها الحديث الشريف، وكلما كان تمرد النفس على الترك قوياً كان الفعل أكثر لذة، مثلاً: تعرض أمامك امرأة متبرجة قد أظهرت مفاتها أو طالبة جامعية أو زميلة في دائرة تبرعت بإنشاء علاقة عاطفية معك فتنتصر أنت على نفسك الطموحة إلى ذلك، فتعيش لذة الانتصار، وهو ما أشار إليه الحديث الشريف: (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها لله تعالى أبدله الله نوراً وإيماناً يجد حلاوته في قلبه)، أو يغيظك شخص ويسيء إليك وأنت قادر على رد إساءته، فتركها لله تعالى وتنتصر على نفسك التي ترغب بالشففي والانتقام، وهذا معنى الحديث: (ما جرعة أحبُّ إليَّ من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها) (١).

(١) الكافي: ١٠٩٢

وتوجد نقاط كثيرة لا أعتقد أن الوقت يسع لها. ولكن نلقت^(١) النظر الى أمرين مهمين يدعوان الإنسان الى الالتزام بالشريعة والعمل بالقوانين الإلهية:

الأمر الأول:

إن التكاليف الشرعية ليست طوقاً في عنق الإنسان ثقيلاً يريد أن يتحرر منه، بل هو تشريف له. وأضرب لك مثلاً لو أن الملك دعي إلى مأدبة فأناوب إنساناً بدلاً عنه، كم سيكون هذا الإنسان محظوظاً أن ينال شرف النيابة عن الملك ويتحدث باسمه، فكذلك الإنسان اختاره الله سبحانه ليكون خليفته في هذه الأرض [إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً] (البقرة: ٣٠) والله ملك الملوك ورب الملوك فكم تكون عظمة النعمة أن يستخلف أحداً ويسخر له كل ما في الأرض [هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً] (البقرة: ٢٩) وينقل عن شخص عارف انه احتفل يوم بلوغه سن التكليف الشرعي لأنه يوم تشريفه بأعظم النعم.

الأمر الثاني :

(١) هذه الاضافة من بيان مفصل صدر بمناسبة حلول شهر رمضان في تلك الفترة ألحقنا منه هنا ما يرتبط بالموضوع.

إن الشريعة الإلهية إنما وضعها الله سبحانه لتنظيم حياة البشر وهدايتهم إلى ما فيه صلاحهم؛ لأنه خالقهم وهو العارف بما يصلحهم، فإن أي جهاز يعطل نرجع إلى الشركة المصنعة للجهاز فتعرف عيبه وطريقة إصلاحه، والله هو خالق الإنسان وصانعه فهو العارف بمناشئ انحرافه وطرق علاجها، ومن القبيح والمستهجن أن نرجع إلى نفس الإنسان التائه الضال ليرسم لنا طريق الصلاح، وقد جربت البشرية كل النظم الوضعية فزادتها سوءاً على سوء وظلماً على ظلم، وما زالت تتجرع ويلات تلك النظم البشرية، والنتيجة أن الالتزام بالتعاليم الإلهية هو الطريق الوحيد الذي يضمن للبشرية سعادتها واستقرارها وطمأنيتها، وأنت ترى بعينك وتحس سعادة المؤمن واستقراره الروحي في مقابل شقاء الكافر الفاسق وصراعه النفسي وانحرافاته [وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى] (طه: ١٢٤).

فعلى الأخوة المؤمنين أن يلتفتوا إلى هذه النقاط التي ذكرناها ويعملوا على تحقيقها دائماً، ولا يغرنكم بالله الغرور وهو الشيطان الذي يريد أن يخرجكم من الجنة، أي جنة طاعة الله سبحانه ورضوانه، قال تعالى: [وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] (التوبة: ٧٢) [كَمَا أَخْرَجَ أَبُو يَكْمَ مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا] (الأعراف: ٢٧) وهو تقوى الله سبحانه، قال تعالى: [وَلِبَاسٌ تَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ] (الأعراف: ٢٦) ليريحهما

سوءاتهما وعورتهما، وأسوء العورات هو الانحراف عن طاعة الله سبحانه، والانغماس في طاعة الهوى والنفس الأمارة بالسوء. قال تعالى: [إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ] (الأعراف: ٢٦).

فما أشد العدو الذي يرانا ولا نراه، ولكن الله تعالى أعاننا عليه ونبهننا إلى خدعه وغروره وشراكه وفخوخه، وما علينا إلا أن نكون على حذر وملفتين، ولا تأخذنا الغفلة فإنه ليس له سلطة على البشر إلا التزيين والغواية، ويبقى اتخاذ القرار بإرادة الإنسان واختياره [وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قَضَى الْأَمْرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوْأ أَنفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (إبراهيم: ٢٢) فليس لنا أن نتسامح ونتهاون في أمر الله سبحانه فتحسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

إننا جميعا مطالبون بالعودة إلى الله سبحانه والرجوع إليه لأنه هو الغاية وهو المنتهى [إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى] (العلق: ٨) [وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى] (النجم: ٤٢) قال تعالى: [قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى فَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا] (سبأ: ٤٦)، فلنغسل قلوبنا مما علق بها من أدران المعاصي ولنتوجه إلى الله ضارعين تائبين عازمين على عدم العود لمعصيته، وإن الله ليفرح بعودة عبده إليه أكثر من فرح شخص تائه في

الصحراء قد فقد دابته وعليها كل متاعه وما يحتاج إليه من مؤنه، ثم عشر عليها فأوصلته إلى غايته، وقد قال تعالى [إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ] (البقرة: ٢٢٢)، أما يريد أحدكم أن يكون ممن أحبه الله سبحانه؟! ولك أن تجرّب عندما يحبك مدير دائرتك أو رئيسك أو مرجعك كم تشعر بالنشوة، فكيف إذا أحبك رب العالمين وخالق الكون وما فيه؟!.

أسأل الله سبحانه لنا جميعاً الهداية والتوفيق خصوصاً في الفرص العظيمة التي أعدها الله سبحانه ليزيد فضله على عباده فيها وليضاعف النعم عليهم، سواء على صعيد الزمان كشهر رمضان والليالي والأيام الشريفة العظيمة، أو المكان كالمساجد والعتبات المقدسة في مجالس ذكر أهل البيت (عليهم السلام) والاحتفال بمناسباتهم، فاغتنموا هذه الفرصة إن إضاعة الفرصة غصة، وأختم كلامي بوصية رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لأبي ذر: ((يا أبا ذر اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)).

ومن أعظم الأسباب التوسل بأولياء الله العظام وخصوصاً بقية الله الأعظم الذي نعيش برعايته وبركاته وأنظاره الشريفة، جعلنا الله من أهل خاصته وذوي الخطوة لديه وما ذلك على الله بعبير..

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لطاعته، فتكون أيامنا كلها أعياداً، والعيد
الأكبر حين نلقاه تبارك وتعالى وهو راضٍ عنا [وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] (التوبة: ٧٢).

مقامات القرآن الكريم وصنوه أهل البيت (عليهم السلام)

بمناسبة ميلاد السيّدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) نحاول أن نتعرّف على بعض مقاماتها وملامح عظمتها من خلال استقراء الآيات الكريمة وبمعونة الأحاديث الشريفة وهي كثيرة نعجز عن استقصائها، ونفس أسمائها وألقابها كاشفة عن مقاماتها (الطاهرة، المعصومة، الراضية، المرضية، أمّ أبيها، سيّدة نساء العالمين، الكوثر، المحدثّة، البتول) وغيرها.

التلازم بين القرآن واهل البيت (عليهم السلام):

لكنّا نشير اليوم باختصار إلى مقاماتها (سلام الله عليها) التي نتعرّف عليها من خلال الاقتران والتلازم بين القرآن الكريم وأهل البيت (عليهم السلام) - وهي منهم-، هذا التلازم الذي أفاده حديث الثقلين الذي أجمع الفريقان (١) على صحّته وصدوره عن النبي (ﷺ)، ففي مسند أحمد بن حنبل (١٨١/٥)

() كلمة سجّلها سماحة الشيخ يعقوبي (رحمته الله) لقناة النعيم الفضائية بمناسبة ذكرى

ميلاد السيّدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) يوم ٢٠ / ٢ / ١٤٣٤ الذي وافق ٢٠١٣٥١

() لمعرفة مصادره من كتب العامّة راجع (فضائل الخمسة من الصحاح الستّة: ٥٢٢)

ح ٢١٠٦٨) بسنده عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله (ﷺ) (إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله جبل مدود ما بين السماء والأرض - أو ما بين السماء إلى الأرض - وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) ورووه عن جمع غفير من الصحابة.

لا يرتاب مسلم في معنى أهل البيت (عليهم السلام):

وقد بين النبي (ﷺ) بالقول وبالفعل المقصود من أهل البيت في مواطن كثيرة وهم علي وفاطمة والحسن والحسين (صلوات الله عليهم أجمعين)، ففي مستدرك الصحيحين روى بسنده عن أم سلمة أنها قالت: في بيتي نزلت هذه الآية (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) (الأحزاب/٣٣) قالت: فأرسل رسول الله (ﷺ) إلى علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) فقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي) قالت أم سلمة: يا رسول الله ما أنا من أهل البيت؟ قال: إنك إلى خير. وهؤلاء أهل بيتي اللهم أهل بيتي أحق).^(١)

ولا حاجة بعد هذا للدخول في مناقشات لغوية في معنى أهل البيت ومن هو المشمول بها بعد أن حدّد النبي (ﷺ) بنفسه المراد بهذا العنوان.

الزهراء (عليها السلام) عدل القرآن الكريم:

فالسيدة فاطمة الزهراء من أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم بموجب حديث الثقلين - صنو القرآن وعدل القرآن ولا يفترقان حتى يردا الحوض يوم القيامة، ومن هذا الاقتران والملازمة نستنتج خصائص كثيرة ومقامات رفيعة لأهل البيت (عليهم السلام) وللصديقة الطاهرة (عليها السلام) ولأمير المؤمنين (عليه السلام) لتضاف إلى الأدلة على إمامته وتقدمه على الخلق أجمعين بعد رسول الله (ﷺ) منها:

١- مقام العصمة، لأن القرآن (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد) (فصلت/٤٢) وكذلك السيدة الزهراء (عليها السلام) معصومة بغض النظر عن الأدلة الأخرى على عصمتها كآية التطهير وغيرها.

٢- مقام العلم والإحاطة بكل شيء مما علمهم الله تبارك وتعالى فقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بقوله (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) (النحل/٨٩) وقال تعالى (مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام/٣٨) فالسيدة الزهراء (عليها السلام) لها هذا المقام من العلم والإحاطة بمعرفة كل شيء وهو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، قال تعالى (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (البقرة/٢٥٥).

٣- والقرآن له مقام الإمامة والقيادة والحجة ولزوم الطاعة على الخلق أجمعين (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) (الحشر/٧) وقال تعالى (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى) (النجم/٣-٤)

وللقرآن مقام الإمامة، قال رسول الله (ﷺ): (عليكم بالقرآن فاتخذوه إماماً وقائداً) فكذلك السيِّدة الزهراء (عليها السلام) لها مقام الإمامة والقيادة ولزوم الطاعة على الخلق أجمعين، لذا روي عن الإمام العسكري قوله (نحن حجج الله على خلقه وجدتنا فاطمة حجة الله علينا).^(١)

٤- والقرآن هو الحق والحق معه (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ) (الجاثية/٢٩) (فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) (الذاريات/٢٣) وهكذا السيِّدة الزهراء (عليها السلام) فإنَّ الحقَّ يدور معها حيث دارت.

٥- وللقرآن القيمومة^(٢) العليا المطلقة على الخلق قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قِيمًا) (الكهف/١-٢) كما أنَّ القِيم على الأسرة أو المجتمع له الولاية عليهم يقودهم ويدلهم على ما يصلحهم ويسعدهم، فكذلك الزهراء (عليها السلام) لها القيمومة على الناس ومنهجها هو المنهج القِيم والمستعلي على المناهج كلها، وقد عللت الآية علة القيمومة بأنَّ لا عوجَ له.

٦- والقرآن مبارك (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُكٌ) (الأنعام/٩٢) (كِتَابٌ

() خطاب المرحلة: ٥١٢ N

() شرحنا معاني هذه الصفات للقرآن في فصل (القرآن يصف نفسه) في القبس (١) من هذا المجلد بعنوان (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا).

أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ (ص/٢٩) فهو كثير البركة والخير والعطاء ومبارك في آثاره على النفس والمجتمع لأنه مصدر الهداية والإرشاد والسعادة والحياة المطمئنة للبشرية ومصدر العلوم كلها، وهكذا الزهراء (عليها السلام) كثيرة البركة وعطائها لا ينفد، حتى أن الله تعالى سماها الكوثر الذي يعني الخير الكثير.

٧- والقرآن عصمة للأمة من التفرُّق والتشتت والضياع (واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمتَ الله عليكم إذ كنتم أعداء فألفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) (آل عمران/١٠٣) والقرآن وأهل البيت (عليهم السلام) هم الحبل الممدود الذي يعصم الأمة، وفي هذا قالت السيدة الزهراء (عليها السلام) (وجعل إمامتنا نظاماً للملّة وأماناً من الفرقة).

٨- والقرآن عزيز يصعب مناله في كتابٍ مكنون لا يمسه إلا المطهرون، وعزيز لأنه قاهرٌ غالب على من خاصمه، وهو عزيز يندر وجود مثله، وعزيز لأنه يمتنع عن النيل بسوء، وعزيز لأنه مطلوب وكلٌّ مفقودٍ مطلوب، وهكذا السيدة الزهراء (عليها السلام) عزيزة بكل هذه المعاني.

٩- والقرآن موعظة وشفاء وهدى ورحمة للعالمين كما وصف نفسه وهكذا السيدة الزهراء (عليها السلام).

١٠- وللقرآن مقام الشفاعة كما وصفه النبي (ﷺ) (فعلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ).^(١)

() ميزان الحكمة: ١٣٨٧ وكذا الأحاديث التالية في نفس المصدر.

وللزهاء (عليه السلام) الشفاعة يوم القيامة حتى ورد في الرواية أنها (عليها السلام) تلتقط مواليها ومحبيها يوم المحشر كما يلتقط الطير الحب الجيد من الحب الرديء.

١١- والقرآن مخاصم لمن هجره وأعرض عنه ولم يعمل به وحبته غالبية ومصدقة من دون بيّنة أو دليل كما وصفه النبي (ﷺ) بأنه (ما حل مصدق) أي مخاصم مصدق فيما يقول وهكذا السيّد الزهراء (عليها السلام) ستخاصم من ظلمها وأنكر حقها وجحد ولايتها، وهي مصدقة في دعواها.

١٢- والقرآن خالد محفوظ إلى يوم القيامة (إِنَّا نَحْنُ الذُّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر/٩) وهكذا الحجج من أهل البيت (عليهم السلام) باقون بقاء القرآن وهذا دليل على وجود الإمام المنتظر (عليه السلام) وذكر فاطمة وأهل البيت (عليهم السلام) باق إلى يوم القيامة ونورهم باق مهما حاول الحاسدون والمنافقون والمبغضون إطفاءه والقضاء عليه وإزالته (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مَتِّمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (الصف/٨).

١٣- وفي التمسك بالقرآن النجاة من الفتن، عن النبي (ﷺ) قال: (إنها دار بلاء وابتلاء وانقطاع وفناء، فإذا التبتت عليكم الأمور كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار)، فالتمسك بهدى الزهراء (عليها السلام) ينجي من الفتن ويقود إلى الهداية.

١٤- والقرآن يصف نفسه (إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) (الطارق/١٣-١٤) وهكذا كلمات فاطمة (عَلَيْهَا) كلها فاصلة ليس فيها هزل لا محصل من ورائه أو هزيمة خالية من المعاني، وكان يومها يوم الفرقان^(١).

١٥- والقرآن أنيس، يقول الإمام زين العابدين (عَلَيْهِ السَّلَامُ): (لومات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي)^(٢) وهكذا ذكر السيدة الزهراء وأهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) فإنه أنيس للمحبين والموالين وبلسم لنفوسهم المتعبة).

١٦- والقرآن لا يبلى ولا يملُّ بكثرة التكرار، قال امير المؤمنين (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لا تخلقه كثرة الرد وولوج السمع) وهكذا ذكر الزهراء (عَلَيْهَا) كلما يتكرر يزداد اقبالاً وبهجة حتى لو استمر طيلة أيام السنة وعلى مدى السنين.

١٧- ولمن حمل القرآن وتعلمه وعلمه أجر عظيم، روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله، الملبسون بنور الله عز وجل) فلمن أحيوا ذكر الزهراء (عَلَيْهَا) ونشر فضائلها ومناقبها ومظلوميتها مثل هذا الأجر العظيم.

١٨- وإن على حامل القرآن أن يتصف بالخير، روي عن رسول الله

(١) راجع القبس (يوم الفرقان) من المجلد الثاني.

(٢) الكافي: ٦٠٢٢

(ﷺ) قوله (إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالتَّخَشُّعِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ لِحَامِلِ الْقُرْآنِ، وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ بِالصَّلَاةِ وَالصُّومِ لِحَامِلِ الْقُرْآنِ) فعلى الموالين للسيدة الزهراء (عليها السلام) ان يكونوا على مثل هذه الخصال الكريمة.

١٩- وللقرآن ارتباط وثيق بليلة القدر وكان نزوله فيها (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) (القدر/١) (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) (الدخان/٣) وللسيدة الزهراء (عليها السلام) ارتباط وثيق بليلة القدر؛ ورد في الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (فمن عرف فاطمة (عليها السلام) حق معرفتها فقد أدرك ليلة القدر)^(١)، وقد شرحنا في بعض أحاديثنا^(٢) وجوهاً لهذا الحديث.

٢٠- ومن آداب تلاوة القرآن أن يقرأ بالحزن، عن رسول الله (ﷺ) قال (اقرأوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن)، وعنه (ﷺ) (اقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا)، ومن وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) للمتقين (أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلون بها ترتيلاً يحزنون به أنفسهم ويستشيرون به دواء دوائهم) فكذلك السيدة الزهراء (عليها السلام) لا تذكر إلا ويفيض القلب حزناً لذكرها، فضلاً عما لو ذكرت مظلوميتها.

روي أن رجلاً دخل على الإمام الصادق (عليه السلام) وقد ولدت له بنت

(١) راجع مصادره في الموسوعة الكبرى عن فاطمة الزهراء (عليها السلام): ٤٣٨ ١٨

(٢) راجع القبس من المجلد الثاني بعنوان (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ).

فقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (ما سميتها؟ قال: فاطمة فقال (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (آه آه آه ثم وضع يده على جبهته - إلى أن قال- أما إذا سميتها فاطمة - فلا تسبها ولا تلعنها ولا تضربها).^(١)

وهذه الخصائص التي ذكرناها للزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) ثابتة للأئمة الأطهار (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) لكونهم من أهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) وإنما خصصنا السيدة الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) بالذكر لأنها صاحبة المناسبة.

إن ما قمنا به من بيان هذه المقامات لأهل البيت (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) فيه دعوة لاتباع هؤلاء السادة الهداة تلبية لدعوة الإمام (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (قال الرضا (عَلَيْهِ السَّلَامُ): رحم الله عبداً أحيا أمرنا ، فقليل له : وكيف يحيي أمركم ؟.. قال : يتعلم علومنا ويعلمها الناس ، فإنّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبَعونا)^(٢).

(١) وسائل الشيعة كتاب النكاح، أبواب أحكام الأولاد، باب ٨٧

(٢) جواهر البحار، الجزء الثاني، كتاب العلم، عن كتاب: معاني الأخبار.

القبس القرآني-

٢٦

القرآن الكريم يدعو الى التعامل مع الحياة بايجابية

معنى أن نقول المؤمن خَيْر:

قال الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه الكريم (ﷺ) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] وقال تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] والكوثر تعني الخير الكثير، وقال تعالى على لسان زكريا في دعائه لطلب الولد ﴿وَجَعَلْنَاهُ رَبًّا رَّضِيًّا﴾ [مريم : ٦] وقال على لسان عيسى بن مريم ﴿وَجَعَلْنِي مَبَارَكًا أَيَّنَمَا كُنْتُ﴾ [مريم : ٣١] أي كثير البركة و العطاء، ونحو ذلك من الآيات التي ضمت مجموعة من صفات الإنسان الصالح ويجمعها الوصف الذي نطلقه على المؤمن بانه (خَيْر) وهي من صيغ المبالغة أي لا ترى منه إلا الخير، لذا وصفته بعض الاحاديث الشريفة بانه (الخير منه مأمول والشر منه مأمون).

الحث على قضاء الحوائج وإدخال السرور:

() حديث سماحة المرجع اليعقوبي (رحمته الله) مع حشد كبير من الطلبة الجامعيين الذي أقاموا العشر الأواخر من شهر رمضان في النجف الأشرف ضمن برامج عبادي توعوي، والتفاهم سماحته يوم الاثنين ٢٧ رمضان ٤٣٤ هـ الموافق ٢٠١٣٨٥

ووردت احاديث كثيرة تدعوا إلى ان يكون الأنسان مصدر خير وعطاء وعنصرا مثمرا في المجتمع كالأحاديث التي تحث على السعي في قضاء حوائج الناس ومساعدتهم وإدخال السرور^(١) عليهم ورفع الأذى عنهم وفعل المعروف لجميع الناس بغض النظر عن الدين أو القومية أو النسب ونحو ذلك وتذكر لهذه الأعمال الإنسانية الصالحة ثوابا عظيما يفوق اكثر العبادات أهمية.

العفو والصفح عن الإساءة:

وأكمل الشارع المقدس هذه الصورة الحسنة لسلوك المؤمن فطالبه بالعفو والصفح عن إساءة الآخرين، قال تعالى ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور : ٢٢] وامر بنسيان إساءة الآخرين وكأنها لم تقع وان يبقى دائما يتذكر إحسان الآخرين اليه بل دعا الى مقابلة السيئة بالحسنة ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت : ٣٤] ، كما امر بان يكون على عكس ذلك في العلاقة مع

() اذكر حديثا واحدا عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (فوالذي وسع سمعه الأصوات ، ما من احد أودع قلبا سرورا ألا وخلق الله له من ذلك السرور لطفًا، فاذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه ، كما تطرد غريبة الابل) (نهج البلاغة/

نفسه، وذلك بان يتذكر دائماً أساءته للآخرين حتى يكون رادعا عن تكرارها، وان ينسى إحسانه للآخرين حتى لا يحصل عنده شعور بالعجب والمنّ و التفضّل عليهم فيمنعه ذلك من الاستمرار في فعل المعروف، ففي الحديث الشريف (انسى اثنين : إحسانك إلى الغير وإساءة الغير اليك، واذكر اثنين: أساءتك إلى الغير وإحسان الغير اليك).

الحمل على الحسن:

وطلب الشارع المقدس أن تختار الأحسن والأفضل للآخرين عندما تكون بين خيارين أو بين موقفين أو سلوكين فأمر بان تحمل فعل أو قول أخيك على سبعين محملاً حسناً، وان كان ظاهره السوء، لكنه مادام يحتمل أن يكون حسناً فلا تقصّر في الأخذ بهذا الاحتمال ، حتى وان تجاوزت السبعين احتمالاً، وهو رقم يقال للتعبير عن الكثرة فلا يمنع من الأزيد .

وان يكون هذا هو منهج حياتك بان تفتش عن أحسن ما عند الآخرين فتنظر اليه على أساسه، وان تفتش عن أسوء ما في نفسك فتقيمها على أساسه لتكون بين هذا وذلك أنسانا صالحا يسعى نحو الكمال ويحب الخير للناس .

روي أن أخوة يوسف الصديق (عليه السلام) لما تعارفوا معه واعترفوا بجريمتهم تملكهم الحياء مما صنعوا به لكنه خفف عليهم واعتبرهم أصحاب فضل عليه لانهم عرفوه الى أهل مصر انه ابن الأنبياء الكرام وكان

يُنظر إليه على انه عبد كنعاني أُشترى من سوق النخاسين، فهل يوجد سمو في التعاطي مع الأمور مثل هذا ؟
 فيما روي من مواعظ النبي الكريم عيسى (ﷺ) انه مرَّ هو وأصحابه على جيفة كلب ميت فقال بعضهم ما انتن ريحه وقال الآخر ما اقبح منظره وهكذا، لكن النبي الكريم المتأدب بخلق الله تعالى قال (ما أشد بياض أسنانه)^(١).

بركة الانسجام مع الكون:

إن الإنسان حينما يسير وفق هذه الرؤية ويتبع هذا المنهج من التفكير يحصل على ثمرات عديدة، منها القرب إلى الله تعالى، وراحة البال، والسعادة^(٢) وحسن الذكر عند الناس مضافا الى شيء مهم يحسن الالتفات اليه وهو انه ستتجاوب معه كل عناصر الخير في الكون لأنه محكوم بسنن الهية ثابتة فمن اخذ بها نال كل خيراتها وبركاتها، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف : ٩٦].

() حلية الأولياء لابي نعيم الأصبهاني.

() واذكر حديثاً واحداً في ذلك باختصار وهو قول أمير المؤمنين (ﷺ) (السرور

يُسطُّ النفس ويشير النشاط، الغم يقبض النفس ويطوي الانبساط) (غرر

وبذلك يكون قوله تعالى ﴿لِنَّ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم : ٧] على القاعدة الطبيعية- كما يقال - وليس بالجعل التشريعي لزيادة النعم مقابل الشكر، وإنما هي حالة تكوينية طبيعية فان الإنسان الشاكر يكون جزءاً منسجماً مع الكون فيحظى ببركات القوانين الإلهية التي تنظم حركة الكون .

وهذا ما يعترف به غير الموحدين أيضاً فانهم يقولون إن الإنسان يجب أن يكون ممتناً شاكراً للكون - بحسب تعبيرهم لانهم لا يعتقدون بوجود الله سبحانه - على نعمه لكي يحصل الإنسان على المزيد من النعم وغيرها مما تستحق أن يسعى اليها الإنسان.

أهمية التفكير الإيجابي في التنمية البشرية:

هذا المنهج والسلوك الذي أسس له الشارع المقدس أصبح اليوم من أهم قضايا علم الاجتماع والتنمية البشرية التي يهتم بها العالم المتحضر فتؤلف الكتب وتعقد الندوات وتقدم البرامج التلفزيونية التي تتحدث عن ((أهمية التفكير الإيجابي)) وتوصلوا فيها إلى جملة من النتائج التي بينها الشارع المقدس .

ونقل لي أن من الكتب الواسعة الانتشار في هذا المجال كتاب (السر) ومما جاء فيه ((إن للأفكار قوة مغناطيسية ولها تردد وعندها قدرة على الأرسال و الاستقبال مثل الموجات الكهرومغناطيسية ويتم أرسال الأفكار

هذه إلى الكون فتجذب لها مغناطيسياً كل الأشياء التي تشبهها ثم ترجع ثانياً إلى المصدر الذي هو نفس الشخص، وإن الإنسان إذا كان إيجابياً فإنه يجذب كل خير إليه)).

وبشراً الصابرين:

إن الشارع المقدس علّم الإنسان أن يكون تفكيره إيجابياً في كل حالاته حتى عندما يشتد عليه البلاء من خلال إعطائه ثقافة إيجابية توجه سلوكه فإنه وعده بالأجر العظيم إذا صبر واحتسب وأن هذا البلاء كفارة لذنوبه التي اجترحها وبذلك يكون فرصة للإنسان حتى يراجع نفسه ويحاسبها ويصلح أخطائه، ووعدته بالفرج وزوال البلاء مع ثبات الأجر، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥، ١٥٦]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] وبذلك يكون الإنسان سعيداً وهو في أشدّ حالات البلاء كالذي مرّ به الأنبياء و الأئمة صلوات الله عليهم أجمعين.

أمثلة من التفكير الإيجابي:

خذ مثلاً ما جرى في واقعة كربلاء التي مثلت اشرس جريمة عبر التاريخ لكن أصحاب الأمام الحسين (عليه السلام) كانوا فرحين سعداء لانهم نظروا إلى صورتها الأخرى المتمثلة فيما أعدّ لهم من الكرامة والمقام المحمود عنده تبارك وتعالى والبركات العظيمة التي ثمرها إلى نهاية

الدنيا.

وحينما حاول ابن زياد أن يظهر حقه وسمومه على عقائل النبوة وخاطب العقيلة زينب شامتاً (أرايت صنع الله بأخيك والعتاة المردة من أهل بيتك) قالت (عليها السلام) (ما رأيت إلا جميلاً أولئك قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أمك يا بن مرجانة) فوصفت ما حصل بانه جميل .

والإمام الكاظم (عليه السلام) في قعر السجون المظلمة والتعذيب وقيود الحديد لكنه كان يرى الجانب الآخر من الصورة ويقول في مناجاته (الهي طالما سألتك أن تفرغني لعبادتك وقد فعلت فلك الحمد) .

وهكذا النبي الكريم يوسف (عليه السلام) يقول ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] فالسجن مع عذابه ومشقته وضيقه يرى (عليه السلام) فيه الصورة الأخرى وهي نجاته من مكائد النسوة وفخوخ الشيطان لإيقاعه في معصية الله تعالى والأمثلة كثيرة .

نتيجة التفكير السلبي:

أما من يتعامل مع الأمور و الأحداث بسلبية فانه يكون في شقاء وتعاسة ويكون عيشه منكدا ونحو الأسوأ من دون ان يغيّر في الواقع شيئاً لان الأحداث جارية شاء أم أبى عن أمير المؤمنين عليه (عليه السلام) قال (إنك إن

صبرت جرت عليك المقادير وأنت ماجور، وان جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور^(١)

حكى إن مكتشف الكهرباء أجرى ٢٠٠٠ تجربة على نماذج المصباح الكهربائي قبل أن يصل إلى مراده فسخروا منه وانك أتعبت نفسك وخسرت الكثير في إجراء هذه التجارب الفاشلة فقال : ليس الأمر كذلك فقد استفدت معلومة وهي أن هذه الألفي طريقة للعمل غير منتجة.

مثال عن التفكير السلبي:

تقول احدى النساء أنها كانت أما لطفلين ثم حصلت مشاكل مع زوجها وانفصلت عنه وكانت تشعر بضيق وحزن ومتعبة نفسيا وغاضبة على زوجها لأنه تركها وترك مسؤولية إعالة الأطفال على عاتقها حيث كانت مسؤولة عن دفع إيجار المنزل وفواتير الكهرباء والماء وغيرها وكانت الديون تتراكم عليها فبسبب كل تلك الضغوط كانت تشعر بالحقد والكراهة الشديد تجاه زوجها وبسبب الضغوط النفسية اصبح ذلك يؤثر على عملها فكانت ترتكب أخطاء في العمل وتتأخر في إنجاز ما هو مطلوب منها في العمل لأنها محطمة ولا تستطيع العمل بكفاءة عالية لإنجاز الأعمال المطلوب منها في وظيفتها ولكنها عندما قرأت كتاب السر بدأت تغير

طريقة تفكيرها وبدأت تنظر إلى الجوانب الإيجابية الموجودة في حياتها حيث قالت إن الجانب الإيجابي الذي استفدته من زواجي هو الحصول على طفلين جميلين وانها سعيدة بهم وبوجودهم بحياتها ولا تتحمل فكره فقدانهم أو عدم وجودهم بحياتها فعندما بدأت تركز على الأمور الإيجابية والنعم الموجودة عندها في حياتها أصبحت أكثر راحة وأصبحت ممتنة لله وشاكرة لله على النعم الذي انعمها عليها وأصبحت مشاعرها إيجابية وبالتالي تركيزها وكفاءتها في عملها أصبح أفضل وإنتاجها في العمل أصبح أكثر وبالتالي بدء راتبها يزداد وبدأت تستطيع تسديد الفواتير....

لكي تفكر بإيجابية:

ولكي يكون الإنسان معطاءً محباً للخير صبوراً عند الشدائد متفائلاً عليه ان يصلح عقائده وتصوراتهِ ونظرتهِ للحياة أولاً لأنها هي التي توجه سلوكه، لذا ينبغي ان يلتفت إلى أمور:

١- إن كل ما حوله هو خلق الله وان الناس عيال الله تعالى ، عن النبي ﷺ قال: ((الخلق كلهم عيال الله عز وجل ، فأحبُّ خلقه إليه أنفعهم لعِيالِهِ))^(١) وفي دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) برواية أبي حمزة الثمالي (والخلق كلهم عيالك) فلا بد أن يكون كريماً معهم رحيماً بهم محباً لهم

() أخرجه البزار ٢ ٣٩٨ ٩٤٩ ١- كشف الأستار - و البيهقي في شعب الايمان

مهما كانوا.

٢- إن ما يجري هو بقضاء الله وقدره ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ٥١] وما دام الله مولانا وهو الذي يتولى أمورنا فلا يختار لنا إلا خيرا ولكننا قد لا نفهم ذلك ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة : ٢١٦] فلا بد من التسليم له و الرضا به لان الاعتراض و السخط له عواقب وخيمة في الدنيا و الآخرة.

٣- إن الله تعالى يقول (انا عند ظن عبدي بي ان ظن خيرا فله، وان ظن شراً فله) (١) فمن يكون ظنه حسناً و يبحث عن الأمور الحسنة في الحياة فانه سيتحقق له ذلك بأذن الله تعالى

٤- إن الدنيا زائلة ولا يستحق أي شيء فيها أن يكون محط الاهتمام إلا ما يقرب إلى الله تعالى و ينفع في الآخرة

٥- إن من ينظر إلى الجوانب الإيجابية الحسنة للأمور وان لم تكن كذلك حقيقة يكون سعيدا مرتاح البال وكفى بذلك ثمرة طيبة فالسعادة ليست في تحقيق كل ما تتمنى وتريد بل في كونك في طريق الوصول اليها وفي أجواء العمل من اجل تحقيقها.

٦- أما من ينظر إلى الأمور بسلبية فانه يكون في تعاسة وشقاء من دون

أن يتغير حاله إلى الأفضل بل إلى الأسوأ.

القبس القرآني-
٢٧

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) [الحجر : ٩٧]

القرآن الكريم يخفف آلام العاملين الرساليين (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

من السنن الجارية في الأمم عبر التاريخ تعرض المصلحين والعاملين الرساليين وعلى رأسهم الأنبياء والرسل والأئمة المعصومون (صلوات الله عليهم أجمعين) إلى الإيذاء المادي والمعنوي من قبل المتسلطين والطواغيت وأصحاب النفوذ (الذين يسميهم القرآن بالملأ) وأتباعهم من

(١) من حديث سماحة الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) مع بعض أتباعه يوم ١٥ ربيع

الثاني ١٤٢٨ المصادف ٣ ٥ ٢٠٠٧ جواباً على شكاوهم مما يتعرضون له من عدوان

وتسقيط وحرمان من أبسط الحقوق من قبل إخوانهم.

الجهلة والمتفعين والغوغاء [مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ] فصلت ٤٣ (وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا) [آل عمران: ١٨٦]، ويبيدي الله تبارك وتعالى على لسان أوليائه الحسرة والألم والتفجع لهذا الموقف السلبي [يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ] (يس: ٣٠).

ويحكي القرآن الكريم فصولاً عديدة من هذه المواجهة تضمنت أقسى ألوان البطش والقسوة والانحطاط من قبل المعسكر الآخر وأسمى ألوان الصبر والمصابرة والجهاد والرحمة والشفقة من أولياء الله وعباده الصالحين، ورغم أن الإيذاء المادي المشتمل على القتل والتشريد والتعذيب الجسدي والسجن والتجويع وغيرها كان قاسياً إلا أن ما يؤلم الصالحين أكثر هو الإيذاء المعنوي بالإعراض عن الاستماع إلى الحق وإتباعه وخلط الأوراق على الناس بالافتراء والكذب وقتل الشخصية بالتسقيط والتشويه لأن الثاني هو الذي يحول دون نجاح مشروعهم الرسالي ويضع الحواجز بينهم - أي المصلحين - وبين الناس فيؤلمهم ابتعاد الناس وعدم اهتدائهم إلى الحق وتنعمهم بالرحمة التي جاؤوهم بها من ربهم [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ] (الأنبياء: ١٠٧)، أما الأول فإنه يؤدي إلى التعاطف معه والالتفاف إليه واعتناق مبادئه ولو بعد حين للشعور بمظلوميته.

ومما يزيد في شدة وطأة الإيذاء المعنوي أن أتباع نفس الرسل والمصلحين يساهمون فيه عن علم وعمد أو عن جهل وغرور وأناية بسوء تصرفهم وبعصيانهم وعدم الالتزام بتعاليم قادتهم وبضعفهم وتشتتهم والخلافات بينهم ونحوها، بينما لا يتوقع صدور النوع الأول من الأتباع والموالين.

وكان الإيذاء المعنوي أشد على قلب رسول الله (ﷺ) الذي وصفه الله تبارك وتعالى [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ] (التوبة: ١٢٨)، لذا كان ربُّه الكريم الرحيم يسلي قلبه ويخفف عن آلامه ويطيّب خاطره [وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ] (النحل: ١٢٧)، [وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ] (الحجر: ٩٧-٩٩).

بل إن سوراً كاملة نزلت لهذا الغرض كسورتي القصص ويوسف (ﷺ)، فالأولى تصف حالة الاستضعاف التي كان عليها قوم موسى (ﷺ) حيث كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم وفي ذلك البلاء العظيم ولد موسى (ﷺ) فكان من لطف الله به وتديبره له أن يأخذه فرعون الطاغية نفسه ويرعاه حتى أصبح رجلاً رافضاً لما عليه فرعون وقومه ثم غادر مصر خوفاً من القتل حتى ورد ماء مدين وتزوج هناك ثم

عاد نبياً رسولاً كليماً لله تبارك وتعالى بمعجزة عظيمة يدعو فرعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى واستطاع أن يهدي بمعاجزه سحرة فرعون وآمن به من آمن حتى عبأ له فرعون من الجيوش ما لا قبل لموسى والمؤمنين بهم ففلق الله تبارك وتعالى لموسى البحر وأنجاه ومن معه وأغرق فرعون وجنوده لينتصر موسى (عليه السلام) ويقيم الحق والعدل وقد عبّر الله تبارك وتعالى عن هذا التدبير بتعبير رقيق [وَأَلْقَيْتَ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلَتُصَنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي] (طه: ٣٩)، أي لتصنع هذه القيادة الفذة برعاية وتدبير مباشرين من الله تبارك وتعالى، وفي نهايتها تصل السورة إلى الهدف وهو تطيب قلب رسول الله (صلى الله عليه وآله) والتخفيف عن آلامه التي اشتدت في السنين الأخيرة من وجوده المبارك في مكة حيث حوَّصر ثلاث سنين في الشعب حتى فقد ناصرته خديجة وأبا طالب ثم أمر بالهجرة ومغادرة مكة التي تعلق بها قلبه فوعده الله تبارك وتعالى بأنه عائد إليها [إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ] (القصص: ٨٥)، وما مرت إلا ثمان سنوات - وهي ليست كثيرة في عمر الزمن - حتى تحقق الوعد الإلهي بفتح مكة.

وتتحدث سورة يوسف عن ذلك الغلام الصغير الذي حسده أخوته فالقوه في الجب ليهلك ولم يكن هناك أمل بنجاته لكن التدبير الإلهي أتاه بقافلة لتستقي فخرج مع الدلو وباعوه في مصر إلى عزيزها الذي رباه واعتنى به ثم قرَّبه لما وجد عنده علماً وحكمة وتدبيراً وأمانة وصار بيد

النبي الكريم مقاليد أمور الولاية بعد وفاة عزيزها وجاء نفس أخوته الذين كادوا له معترفين بجريمتهم طالبين العفو والصفح فتعامل معهم بسمو الأخلاق.

هكذا يلفظ الله تعالى بعباده وهكذا يصنع أوليائه ويدبر شؤونهم، وهكذا يخيب كيد الباغين والحاسدين والمنافقين والكافرين [وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ] (فاطر: ٤٣).

إن ما يمرُّ بنا اليوم من بلاء وما مرَّ بنا أيام صدام وغيره من الطواغيت لا يستحق أن يذكر في جنب ما أصاب أولياء الله الصالحين في الأمم السالفة حيث ورد في الروايات أنهم نشروا بالمناشير وقرضوا بالمقاريض وحفرت لهم أخاديد النار والقوا فيها ففضوا حرقاً (سورة البروج) والمتوقع من المتهالكين على السلطة وحب الدنيا أن يفعلوا ما هو أسوأ لولا لطف الله تبارك وتعالى، فخير ما يسليكم ويطمئن قلوبكم وينور بصائرکم ويثبت أقدامكم هو القرآن الكريم فاتخذوه قائداً وهادياً. وقد عشت مثل هذه التجربة مع القرآن ولا زلت أعيش لذة الأيام التي قضيتها في كنفه في ثمانينات القرن الماضي حينما كنت حبيساً في الدار لا ادري في أي لحظة يقبض عليَّ الطغاة ويعدمونني الحياة.

وإن مما يخفف الآلام والمصاعب ويدفعنا إلى بذل المزيد من الجهود هو أن نلتفت إلى النعمة التي منحنا الله تبارك وتعالى إياها في هذا الزمن

حيث تتوفر أعظم فرصة لبناء المستقبل الزاهر لامتنا وبنفض غبار السبات الذي أصابها منذ أكثر من ألف عام، ونمهدّ لدولة الحق والعدل ببناء أنفسنا ومجتمعنا ومؤسساتنا على أسس الإخلاص والتقوى والعمل الصالح بعيداً عن المتصارعين على الدنيا الفانية الزائلة. لقد كان أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) يتسابقون إلى الموت فرحين مسرورين لان الإمام (عليه السلام) كشف لهم عن بصائرهم فرأوا منازلهم في الجنة أي رأوا نتائج تضحياتهم والمستقبل العظيم لما يقومون به فصغر في أعينهم ما يلاقون من ألم الجراح وهذا التفسير منسجم مع ما نعتقده من تجسّم الأعمال.

وإذا كانت تلك التضحيات لإبقاء الحياة وجزوة الضمير في جسد الأمة فإن تضحيات اليوم ستؤدي إلى بعثها من جديد وحركتها نحو بناء دولة الحق والعدل.

القبس القرآني-

٢٨

(فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قومًا فاسقين) [الزخرف/٥٤]
قابلية الشعوب على الاستعباد^(١)

لو قرأنا الآية بمعزل عن السياق لكان ظاهرها ان فرعون أمر قومه ان يخفوا ويسرعوا لنصرته ويبادروا للخروج معه للقضاء على النبي موسى (ﷺ) واتباعه وهم أطاعوه واستجابوا لدعوته التي اشير اليها في قوله تعالى (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) (الشعراء/٥٣) وبهذا المعنى ورد في خطبة السيدة الزهراء (ﷺ) في مسجد أبيها (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (وأطلعَ الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً)^(٢)

(١) كلمة سماحة المرجع الشيخ اليعقوبي (دام ظلّه) في حشد كبير من الطلبة والشباب الذين شاركوا في المعاشة التي تنظم في النجف الاشرف في العشر الاواخر من شهر رمضان وتتضمن برامج دينية وتوعوية واخلاقية وقد زارهم سماحته في محل اقامتهم

يوم الاحد ٢٧ رمضان ١٤٣٧ هـ المصادف ٣٠١٦٧٣ م

(٢) الاحتجاج: ١٣٠١

بعكس الثاقل الذي يعني التباطؤ والتكاسل قال تعالى (مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) (التوبة/٣٨).

لكننا لو قرأنا الآية ضمن سياقها فإنها تعني ان فرعون استخف بعقول قومه ووجدهم سلسي القياد طائشين نزقين لا حكمة لهم ولا رشد ولا وعي ولا بصيرة ينعمون مع كل ناعق فمضى في مشروعه الاستكباري والاستعلائي واستعباد الناس وتسييرهم وفق هواه، وهم صدقوا ظنه فيهم حين أطاعوه ورضوا بحالة العبودية فهي هنا كما في قوله تعالى (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) (الروم/٦٠) أي لا يذهبن بحلمك وعقلك ما يفعله المشركون.

وتعلل الآية الكريمة هذه الحالة عند قوم فرعون بأنهم كانوا فاسقين خارجين عن حدود العقل والفطرة ومجردين من الخصائص الإنسانية الكريمة، ورضوا لأنفسهم حياة الذل والهوان والعبودية، والفسق لغة هو الخروج، وفي لغة العرب 'فسق الرطب' إذا خرج عن قشره، وفي المصطلح: الفسق هو الخروج عن حدود الشريعة والعقل والفطرة.

وهذا يعني انهم لو لم يكونوا فاسقين خارجين عن صراط الحق طائعين لأهوائهم لما استطاع فرعون ان يستعبدهم ويستخف بهم، فالمظالم والكبائر التي يرتكبها الطغاة ليسوا فقط هم المسؤولين عنها، وإنما تتحمل

الشعوب جزءاً من المسؤولية إزاء ما يحلُّ بها لأنها مكنتهم من ذلك بفسقها وانحرافها، واستسلموا لخداع ومكر الزعامات والمتسلطين، فأعانوا عدوهم - من شياطين الانس والجن - على أنفسهم، أما المؤمنون المتبعون للقيادة الحقة فإنه يصعب خداعهم وسوقهم.

فالآية تقدّم لنا حقيقة سبق اليها القرآن الكريم وقررها قبل ان يتوصل اليها علماء الاجتماع بعد قرون طويلة وهي ان الشعوب المستضعفة والمستعبدة من قبل الطواغيت او القوى الخارجية المحتلة لا تسقط في هذه الانتكاسة إلا لأنها تتوفر فيها قابلية الاستعباد، وعلى تعبير بعضهم قابلية الاستعمار، وعلى تعبير آخر: قابلية الاستحمار لان الشعوب حينئذٍ تقاد الى حيث يريد مستعبدوها بلا بصيرة ولا وعي وإدراك لمصيرها البائس الذي تسير اليه بحيث تغفل هذه الشعوب عن أشد المظالم وأوضح الجرائم بحقها وتصرّ على السير خلف الظالمين المستبدين فيسوقونهم الى الموت ويسلبون أموالهم ويسخرونهم لتحقيق نزواتهم وهم يصفّقون لهم ويقدمونهم ويطيعونهم طاعة عمياء.

والتأمل في سلوك فرعون مع شعبه الذي حكته الآيات الشريفة السابقة يشير الى الأساليب التي يتبعها الطواغيت والمستكبرون لتدجين الشعوب واستخفافها وهي لا تختلف عن أساليب اليوم إلا من حيث الشكل والأدوات التي تتغير تبعاً للزمان وإلا فالحقيقة واحدة.

قال تعالى (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ، أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ، فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ، فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (الزخرف: ٥١-٥٤).

والأساليب هي:

١- سلب حالة الوعي والادراك والفتنة التي عبر عنها القرآن الكريم بـ(البصيرة) وتكريس حالة الجهل والتخلف والانقطاع عن أسباب المعرفة الحقيقية والاهتمام بالقشور وقلب موازين التقييم من معنوية حقيقية جوهرية الى مادية سطحية زائفة وهكذا ضمن عملية غسل دماغ تسلب عقولهم ووعيهم ويتحولون الى قطع منفذ للأوامر، ولذا قال لهم (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) فدعاهم الى النظر الحسي ولم يدعوهم الى التأمل والتدبر والتفكير لئلا تظهر الحقائق ويفتضح المخادع، والأمور التي دعاهم فرعون الى إبصارها قريبة محسوسة أما موسى (ﷺ) فيدعوهم الى الايمان بامور غيبية بعيدة عن إدراك الناس الغافلين. وتحاط عملية غسل الدماغ احيانا بالقدسية والخطوط الحمراء التي لا تقبل النقاش، وهنا يكون دور لعلماء الدين المحبين للعالم لا تقبل النقاش، وهنا يكون دور لعلماء الدين المحبين للعالم والواجبات المؤثرة في المجتمع (السحرة ومعبرو الاحلام في قوم

فرعون) لإضفاء هذه القدسية وشرعنة ما يفعله الطغاة وإدامة سلطتهم وهيمتهم وإحكام الطوق على الشعوب المستعبدة باسم الدين وشعائره، لكن أي دين؟ لقد وصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) بأنهم (لبسوا الإسلام لبس الفرو مقلوباً) (١).

وهذا ما يدفع الزعامات الحريصة على مواقعها الى استخدام كل أساليب البطش والقسوة المادية والمعنوية بحق المصلحين الواعين الذين ينهضون لإيقاظ الأمة وتبصرتها وترشيد سلوكها، وتحريرها من الاغلال والآصار التي تحجر على عقولهم وتلوث باطنهم وفطرتهم (٢).

٢- استحقاق الآخر (فرداً او شعباً) والاستهزاء به لسحق شخصيته وإظهار عجزه وضعفه ليقنع بأنه مخلوق ليكون تابعاً لغيره فموسى (عليه السلام) عند فرعون (مهين) لأنه من بني إسرائيل المستضعفين المواطنين من الدرجة الثانية الذين لا يحق لهم العمل إلا في المجالات المتدنية كرعى الأغنام وخدمة الأغنياء والمترفين، وكان

(١) شرح نهج البلاغة ٧ ابن أبي الحديد ١٩١

(٢) راجع خطاب المرحلة ج ٩ ص ٢٠٢ تحت عنوان (ويضع عنهم أصرهم والاعلال

التي كانت عليهم).

المظهر الخارجي لموسى (عليه السلام) متواضعاً قال أمير المؤمنين في وصفه (ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرط له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه فقال ألا تعجبون من هذين يشيطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل فهلا ألقى عليهما أساورة من ذهب إعظماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسهما) (١).

(١) نهج البلاغة: الخطبة ٩٢ ويشير الامام (عليه السلام) الى الحكمة في ذلك، وقال (عليه السلام) (ولو أراد الله سبحانه لأتبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء واضمحلت الأنبياء ولما وجب للقابلين أجور المبتلين ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين ولا لزمتم الأسماء معانيها ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام وملك تمدنحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرجال لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار وأبعد لهم في الاستكبار ولأمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم فكانت النيات مشتركة والحسنات مقسمة ولكن الله سبحانه أراد أن يكون التابع لرسله والتصدق بكتبه والخشوع لوجهه والاستكانة

ووصفه فرعون ثانية بأنه (ولا يكاد يبين) مستغلاً ما كان معروفاً عن موسى (ﷺ) قبل خروجه من مصر بأنه كانت له عقدة في لسانه فلا يكاد يبين ما يريد قوله بوضوح فخدعهم بهذه الحالة التي كانت قبل بعثه بالنبوة، فلما بعثه الله تعالى بها شكى حاجته (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسَلْ إِلَى هَارُونَ) (الشعراء/١٣) (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً) (القصص/٣٤) ودعا ربه بإطلاق لسانه (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي) (طه/٢٧-٢٨) وقد استجاب الله تعالى دعاءه وأطلق لسانه (قَالَ قَدْ أُوتِيَ سؤْلَكَ يَا مُوسَى) (طه/٣٦).

٣- إقناعهم بحاجتهم لهؤلاء المستكبرين وانهم لا يستطيعون الحياة بدونهم وخلق حالة رعب وقلق وخوف (فوييا) من البديل (وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) كان نهر النيل والانهيار والجداول المتفرعة عنه التي روي انها وصلت الى ٣٦٠ فرعاً مصدر حياة المصريين ورخائهم وازدهارهم وفخرهم وعزتهم، فصور لهم ان هذه الشبكة الإروائية تجري بأمره ووفق تدبيره وهي تحت

لأمره والاستسلام لطاعته أموراً له خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة وكلما كانت
البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل.

سلطته وقدرته، وموسى (عليه السلام) لا يملك شيئاً من هذا والذهب معه يحرمكم من هذه العزة والرخاء.

٤- خلق حالة الانبهار به لدى الطرف الآخر وجعله باهتاً امام هذه

الجبوت

والعظمة التي هي زائفة في الحقيقة فتأخذ بألباب الناس ومجامع قلوبهم وعقولهم ويكون غاية هم الناس أن ينالوا شيئاً من فتات دنياهم (قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي) (فلولاً ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) وحالة الانبهار تولد تبعية وانقياد لما أنبهر به: ولا يفكر المنبهرون حينئذ في الخروج عن طاعتهم فضلاً عن التفكير في إزالتهم وإقامة النظام البديل.

فالمستكبرون يوهمون الناس بأن من يتطلع الى القيادة والأمرة لا بد ان يكون كالفراعنة متزيناً بالذهب والفضة ويملك الثروة طائلة، وهذا غاية الاستخفاف بالناس أن يجعل دليل صدق النبوة والسفارة الإلهية وتبليغ رسالة الله تعالى حيازته للثروة والذهب والاعراض عن الآيات والبيانات التي جاءهم بها وهو نفس إشكال قريش في الآية (٣١) من سورة الزخرف (وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ).

وكان سرد هذه الحكاية عن آل فرعون هو موعظة وتحذير لقريش من سلوك هذا المنهج الضال، ولا شك ان عملية الإصلاح في المجتمع المترف اقتصادياً والمستقر يكون أصعب ويواجه عقبات جمّة ورفضاً من عامة الناس فضلاً عن المتسلطين.

وكرر فرعون الاشكال الذي أثارته الأمم المكذّبة على انبيائها بأن الله تعالى لو شاء أن يبعث رسولاً لجعله ملكاً ولو اختاره انساناً فلا بد أن تأتي معه الملائكة (أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَسَفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قِيَالًا) (الإسراء/٩٢).

ولم يغب عن فرعون إثارة النعرات والعصبيات الجاهلية بقوله (يا قوم) وهم الاقباط المتسيّدون قوم فرعون لعزل موسى ومن معه من بني اسرائيل.

وهنا يأتي قوله تعالى (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ) وفيه إشارة الى ان فرعون كان يعرف انه مخادع وأن أدلته لا قيمة لها لكنه استخف بعقول قومه واستصغر شأنهم واستعمل وسائل الخداع والمكر مع الاغراء والترهيب فوجدهم طائعين ومسلمين له.

هذا السلوك الفرعوني هو ديدن الطواغيت والمستكبرين والطامحين الى الزعامة والتسلط على رقاب الناس في كل زمان ومكان وأدواتها في

تطور مستمر، لاحظ سلوك الحكومات الغربية تجاه شعوبنا الإسلامية من أجل السيطرة عليها وسلب خيراتها والتحكم في شؤونها مما يسمى بالاستعمار، فهم يسحقون شخصية هذه الشعوب ويشعرونها دائماً بالدونية وجعلهم مستهلكين غير قادرين على بناء حضارة متينة قادرة على البقاء والتقدم وإن كانوا من حيث المظاهر المادية في أرقى صورها - كدول الخليج مثلاً - فهم دائماً مرتهنون لأولئك المتحكمين.

كما استطاعوا أن يبهروا شعوب المنطقة بإبراز مظاهر التقدم العلمي والتكنولوجي وهذا الانبهار أدى الى الانسياق وراء كل ما يصدر عنه الينا من تقاليد وأفكار وسلوكيات كشرب الخمر والانحلال الخلقي تحت شتى العناوين وإشاعة الفاحشة باسم الفن او الرياضة او الحرية، والبحث عن اللهو والعبث واللعب وهكذا في سائر أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، حتى سوقوا أكثر الجرائم انحطاطاً كزواج المثليين بقوانين رسمية تحت عنوان الحرية الشخصية وامثالها والاعتداء على الإسلام ورسوله الكريم محمد (ﷺ) بذريعة حرية التعبير عن الرأي وأمثالها من الامور التي جعلوها مقدسة لا يجوز المساس بها ما دامت تصب في مصالحهم بينما يعاقبون بشدة من يتحدث بمظالمهم ويفضح ادعاءاتهم - كمعاداة السامية - ولا يشفع له حرية التعبير عن الرأي.

واستغلوا أنس الناس الغافلين بالماديات المحسوسة وسرعة التصديق بها لينكروا الغيبات وما وراء المادة، والناس لا تفرق بين ما يدرك بالحواس المادية وما يدرك بالعقل والفطرة الإنسانية السليمة. ولجعل الشعوب في غفلة دائمة وإشغال فكرهم اعتمدوا سياسة الالهاء تارة بالسباقات الرياضية التي ما ان تنتهي واحدة حتى تبدأ الأخرى، وبالحرية الجنسية وبوسائل التواصل الاجتماعي وتقنيات وسائل الاعلام والمواقع الالكترونية وشبكة الانترنت التي تقدم باستمرار الجديد والمثير والجذاب فينشغل الناس بهذه ولا يفكرون في مناقشة أوضاعهم الاجتماعية وإصلاحها ولا يبقى عندهم وقت للتأمل والتدبر قال تعالى (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ) (الأنبياء/٢-٣).

خذ مثلاً تصويت أغلب البريطانيين قبل أيام لصالح انسحابهم من الاتحاد الأوروبي مع انه قرار ليس لصالحهم لكن الدوائر الاستكبارية التي تريد تمزيق الاتحاد الأوروبي نجحت في خداع هذه الاغلبية بالأكاذيب والمخاوف المفتعلة والغريب ان البريطانيين بعد أن صوتوا للخروج ذهبوا بالملايين الى المواقع الإلكترونية ليسألوا عن ماهية الاتحاد الأوروبي

والفوائد التي تجنيها بريطانيا من بقاءها فيه، فكيف صوتوا وهم لا يعرفون شيئاً عن أصل الموضوع.

وفي الختام نشير الى ان علاج هذه الحالة -أي قابلية الاستعباد- التي تؤسس للانحطاط يبدأ باجتثاثها من عقل الانسان وقلبه ونفسه وقد اختصره أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله (لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً) (١) أياً كان هذا الغير: أهواء النفس الأمارة بالسوء او الطواغيت والزعامات المصطنعة، أو شياطين الجن والانس.

(١) غرر الحكم / ح ١٠٣٧١.

(يا أيها الناس إن وعد الله حق)

[فاطر: ٥]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (فاطر ٥/٦-٥).

(يا أيها الناس) نداء لكل البشر وليس فقط الكافرين او الفاسقين او الذين اسلموا او الذين امنوا لان الناس كلهم معنيون بهذا النداء ومن المتعارف ان من يصيح يا أيها الناس فان الناس يلتفتون اليه ويصغون لما يقول لان مثل هذا النداء يتبعه امر مهم او تحذير من شيء خطير او نحو ذلك، فكيف اذا كان المنادي رب العزة والجلال على لسان مئة وأربعة وعشرين الف نبي ومرسل.

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) هذه هي القضية المنادية بها وقد تكرر ذكرها في غير موضع من كتاب الله كقوله تعالى (إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ) (لقمان /٣٣) وحاصلها ان ما وعدكم الله به من انتهاء حياتكم الدنيا بالموت و وجود حياة بعد الموت يكافأ فيها المحسن على أساس احسانه ويعاقب المسيء على اساءته ولكل من المثوبة والعقوبة درجات ودركات، كله حق لا بد ان يقع والا كان ظلماً (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) (آل عمران/١٨٢) لانه يعني مساواة الظالم والمظلوم والجلاد والضحية والمسيء والمحسن وهذا باطل وخلاف الحكمة والعدالة (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران / ١٩١) (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الأنبياء / ١٦)

وهذا الاعلان عن الوعد الحق فيه تحذير للعاصين والظالمين حتى يرتدعوا، وفيه تطمين المظلوم والمحروم بانه سيأتي اليوم الذي يعوضه الله تعالى فيه ويرد اليه الحق فيستقر ويهدأ.

ومادام الموت حق ومنكر ونكير حقاً والنشور حقاً والحساب حقاً والجنة والنار حقاً وكل ما اخبر به الأنبياء والرسل، اذن (فَلَا تَغْرَبَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) فلا تخدعكم الدنيا بزيتها ومظاهرها الخلافة من مال وبنين وعشيرة وجاه وزعامة ومواقع في السلطة واي شيء اخر فأنها كلها تزول لذتها وتبقى تبعثها فالمظاهر الدنيوية التي تبعدكم عن الله تعالى عدو لكم

فاحذروها وعليكم ان توظّفوا ما خولكم الله تعالى به من أمور الدنيا للفوز بالأخرة واكتساب الجنان (الدنيا مزرعة الآخرة) (١).

(وَلَا يَغْرَبَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ) وهذا هو العدو الآخر، أنه الشيطان (الغُرُورُ) وهي صفة مشبهة او صيغة مبالغة من الغرور أي إن التغيرير بالآخرين صفته اللازمة لذاته ووظيفته التي لا يتوقف عنها، ويواجه الانسان مع هذين العدوين العدو الأول والاكبر وهي النفس الامارة بالسوء الميالة الى اللهو واللعب وارتكاب المعاصي والملئبة بالشهوات والغرائز النهممة التي لا تشبع في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) (٢)، وكل ما يقوم به العدو الآخران (الشيطان والدنيا) هو استثارة هذه الشهوات والغرائز وتزيينها والتعمية على العقل والفتنة بالخداع والتغيرير وخلط الأوراق وتشبيه الباطل بالحق ونحو ذلك، أي انها كالعامل المساعد في علم الكيمياء الذي يساعد على التفاعل ويسرعه كوجود النفط او البنزين على الخشبة المحترقة ((وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي

(١) غوالي اللآلي ١/٢٦٧ ح ٦٦.

(٢) المجلسي- محمد باقر- بحار الأنوار- مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية المصححة-

عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُؤْنِي وَلَوْ أُوِّ
أَنْفُسَكُمْ)) (إبراهيم/٢٢).

وتغريـر الشيطان يكون من طريقتين:

١- تزيين مشتبهات النفس واهوائها كالشهوة والغضب والعصبية والحسد وغيرها وكذلك تزيين زخارف الدنيا وبها رجها بغض النظر عن موافقتها لما يرضي الله تبارك وتعالى وعدمها.

٢- الاغترار بحلم الله تعالى وطول اناته عن الظالمين وعفوه وكرمه فيدعوه ذلك الى تسويـف التوبة والتمادي والاستمرار على المعصية، والا ما الذي يدعو العاصي الى ارتكاب المعاصي وهو يعلم انها معصية وفيها غضب الله تبارك وتعالى وسوء العاقبة في الدنيا والاخرة لولا هذا الاغترار وفي دعاء ابي حمزة الثمالي عن الامام السجاد (إلهي لَمْ أَعْصِكَ حِينَ عَصَيْتَكَ وَأَنَا بَرَّبُوبِيَّتِكَ جَاهِدٌ وَلَا بِأَمْرِكَ مُسْتَخْفٌ وَلَا لِعَقُوبَتِكَ مَتَعَرِّضٌ وَلَا لَوْعِيدِكَ مَتَّهَانٌ، لَكِنْ خَطِيئَةٌ عَرَضَتْ وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي وَغَلَبَنِي هَوَايَ وَأَعَانَنِي عَلَيْهَا شِقْوَتِي وَغَرَّنِي سِتْرَكَ الْمَرْخَى عَلَيَّ^(١)) وقد يستغل الشيطان حالة الاستدراج والاغراق بالنعم التي يملئ بها الله تعالى العاصين ليوهمه بأنه على صواب وان الخير كل الخير هو في الاستمرار على هذا

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي للإمام علي ابن الحسين زين العابدين.

المنهج الذي هو باطل ومنحرف، مادام يجلب له هذه السعادة الموهومة فيستمر على عصيانه ويتسافل اكثر في جهنم.
وتعلل الآية التالية هذا الفعل من الشيطان وسببه (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ) وقد أعلن هذا العداء منذ بدأ الخليقة حينما لعن وطرد من زمرة الملائكة عقب استكباره عن السجود لآدم، وقد شهر سلاحه ونصب فخوخه لكم بجميع الاتجاهات (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) (الأعراف/١٦-١٧).

فعداؤه لكم دائم ودائب من حيث تتوقعون ومن حيث لا تتوقعون (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/ ٢٧) وهذا الخفاء يعقد المواجهة ويصعبها، تصوروا ان واحد من فخوخه وخدعه وهو الشرك الخفي كالرياء يوصف خفاؤه في باطن الانسان في الحديث النبوي الشريف (ان الشرك اخفى من ديب النمل على صفاة- أي صخرة- سوداء في ليلة مظلمة)^(١) اذن كيف يمكن معرفة كل فخوخه وخدعه لولا لطف الله تعالى.

وامام هذا الهجوم الشرس والمستمر بكل الوسائل والخدع والمكائد فعليكم ان تقابلوه بالمثل (فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) وليس من العقل والحكمة أن تغفلوا عنه وتتسامحوا مع خططه وأساليبه فضلاً عن اتباعه والانسياق وراء تسويلاته وتزيينه (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) (الكهف/٥٠) ولعله اليوم أكثر خبرة وتقنية مما سبق وقد استطاع في أول محاولة مخادعة آدم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) (فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ) (الأعراف/٢٢) فكيف اليوم وقد كثرت أدواته وتفنن فيها شياطين الانس والجن (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ* وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) (يس/٦٠-٦٢).

وهذا الشيطان لا يرضى من الناس إلا ان يرميهم في السعير (إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ) (فاطر/٦) واتباعه والحزب الجماعة الذين يوحدهم هدف معين ولهم تأثير وفاعلية (لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) كما ان شياطين الانس ودوائر الاستكبار والماسونية لا ترضى من الناس الا ان ينحطوا الى اخس درجات الهمجية التي تترفع حتى الوحوش عن ممارستها بحيث يسن الشذوذ الجنسي المسمى بزواج المثليين بقانون رسمي تباركه الحكومات التي تدعي التحضر.

اما سلاح الانسان في هذه المواجهة الشرسة والمعقدة

والمفتوحة على

الجميع الاتجاهات فانه أولا بعد التوكل على الله تعالى وطلب العصمة والتسديد والتأييد ففي دعاء نهار شهر رمضان (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَلِّ مُحَمَّدًا، وَاَعِزَّنِي فِيهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَهَمِّزِهِ وَلَمِّزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ وَوَسْوَسَتِهِ وَتَثْبِيطِهِ وَبَطْشِهِ وَكَيْدِهِ وَمَكْرِهِ وَحَبَائِلِهِ وَخَدَعَهُ وَأَمَانِيهِ وَغُرُورِهِ وَفْتَنَتِهِ وَشُرَكَهِ وَأَحْزَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَأَوْلِيَاءِهِ وَشُرَكَائِهِ وَجَمِيعِ مَكَائِدِهِ).

وثانيا: الحذر والحيطه والتحفظ والانتباه الى كل اشكال المكر والخداع حتى وإن البست ثوب الخير والطاعة والدين والنصيحة، فان الشيطان يأتي لكل فرد أو جماعة من الجهة التي يخدعهم بها فعنده أدوات لعلماء الدين وأخرى للتجار وأخرى للسياسيين وأخرى للزعماء والوجهاء وأخرى للنساء وأخرى للشباب وهكذا مما يتطلب ذكرها الى تفصيل، ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) ان من وصايا الله عز وجل الى موسى بن عمران (عليه السلام) التي أوصاها بحفظها (ما دمت لا ترى الشيطان ميتاً فلا تأمن مكره)^(١)، والجزء الاخر من الأمور كلها على ميزان العقل والفضيلة والدين واتباع من أمر الله تعالى باتباعه.

وثالثا: كان المرحوم الشيخ جعفر الشوشتري صاحب كتاب الخصائص الحسينية (توفي سنة ١٣٠٣هـ) واعظاً مؤثراً وله منبر وعظ في الصحن الحيدري الشريف يحضر عنده العلماء والفضلاء وعامة الناس،

وذاذ يوم قال للحاضرين بلغني من مخبرين ثقات ان سراقاً تخللوا صفوفكم ليقتنصوا الفرصة ويسرقون ما في جيوبكم فأوصيكم بالحدز والانتباه، وهنا هاج الناس ولملموا ثيابهم وصاروا يراقبون كل حركة ولما سكن المجلس قال لهم: ألا تعجبون من غفلتنا وتقصيرنا إذ نهتم كل هذا الاهتمام بدرهم نخشى سرقة وهو متاع زائل ولا نكثر لنداء الله تعالى وانبيائه ورسله بأن الشيطان لكم عدو متربص بكم ويريد أن يسرق منكم دينكم وتقواكم وهو أئمن ما يجب المحافظة عليه لأنه سبب نجاتكم وفوزكم في الآخرة فكيف نغفل عنه وتسقط في تسويلاته.

القبس القرآني

٣٠

(فسيئفقونها ثم تكون عليهم حسرة) (١) [الأنفال: ٣٦]
 من لا يقدم ما عليه في طاعة الله تعالى يعطي
 أكثر منه في معصيته

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) (الأنفال/٣٦)

وردت الآية في سورة الانفال ضمن سياق الحديث عن معركة بدر وملابساتها ونتائجها، وتشير الى حماقة وجهل وسوء عاقبة مشركي قريش الذين كفروا وتمردوا واستكبروا عن الايمان بالله تعالى وطاعته ورفضوا تكاليفها لكنهم أصرروا على عبادة الاصنام وأنفقوا اموالاً ضخمةً لتجهيز

المقاتلين^(١) للقضاء على النبي (ﷺ) وأصحابه المؤمنين وانهاء دعوته المباركة.

فالأموال التي بخلوا بها ولم ينفقوها في طاعة الله تعالى لم يتنفعوا بها فقد انفقوها في الصد عن سبيل الله تعالى سواءً بالحرب على المؤمنين او بمنع إقامة شريعة الله تعالى او بإبعاد الناس عن الدين ونحو ذلك من اشكال الصد عن سبيل الله تعالى فكانت عليهم حَسْرَةً في الدنيا لأنهم صرفوها في مضرتهم وجلب العار لهم او تركوها لذريتهم ولم تنفعهم إذ غلبوا وهزموا ثم الحسرة الأكبر والعاقبة الأفظع في الآخرة حيث يساقون الى جهنم بكل إهانة وتعذيب.

وظاهر الآية ان كونهم كافرين يدفعهم الى هذا الفعل وكما قالوا ان تعليق الحكم على الوصف يشعر بالعلية، فان كفرهم هذا سبب وعلّة تدعوهم الى هذا الظلم والفسق ويؤدي بهم الى جهنم التي هي حصاد افعالهم (وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ) والحشر لغةً (إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم الى الحرب ونحوها ولا يقال الحشر إلا في الجماعة) كما عن الراغب في المفردات.

في تفسير البرهان: ٤ ١٦٤: (وما بقي من عظماء قريش إلا اخرجوا مالا وحملوا ووقروا.

فتجمّعهم في الدنيا ضد الحق وأهله وخروجهم حاشرين لمحاربة الله ورسوله تجسّم بخروجهم حاشرين الى جهنم افعالهم يوم القيامة. فالآية تكشف عن حقيقة مهمة في حياتنا لو التفتنا اليها بعمق ووعي لأثرت في توجيه الناس نحو الصلاح وخلصتها ان من يمتنع عن بذل ما يتطلبه الايمان وطاعة الله تعالى فإنه سيضطر الى ان يعطي أزيد من ذلك راغماً في معصية الله تعالى فتجتمع عليه الحسرة والعقوبة لكن هذه الحسرة لا قيمة لها ولا ثمرة فيها لأنها جاءت في غير وقت العمل والتدارك.

هذه الحقيقة القرآنية لا تختص بالكافرين، فقد يبخل المتدين الذي يصلي ويصوم لكنه لا يدفع الحقوق الشرعية فيبتلى بصرف ماله في أمور عبثية أو لهوية أو كمالية او ربما محرمة فتكون الحسرة عليه مضاعفة لتقصيره في إداء الواجب عليه من جهة ولإنفاق المال في ما يوجب له حسرة وعقوبة بالنار من جهة أخرى عن الصادق (عليه السلام) قال: ما من رجل يمنع درهماً في حقه إلا أنفق اثنين في غير حقه، وما من رجل يمنع حقاً في ماله إلا طوّقه الله به حية من نار يوم القيامة^(١)، وعنه (عليه السلام): (من منع حقاً لله عز وجل أنفق في باطل مثليه)^(٢)..

(١) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ٦ ١

او انه يتركه لورثته فيكون سبباً لحسرتة على نحو اخر، روي عن الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله عز وجل [كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ] (البقرة: ١٦٧)، قال (عليه السلام): (هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله عز وجل بخلاً ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله أو بمعصية الله، فإن عمل فيه بطاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرةً وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله قوّاه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله عز وجل) (١).

٢

وقد وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) مثل هذا الرجل بقوله: (إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل جمع مالاً بمعصية الله فمات فورثه رجل دخل به الجنة) (٢).

٣

ويفهم من بعض الروايات ان ما يتعرض له المال احياناً من سرقة او تلف انما هو بسبب عدم اخراج الزكاة والخمس ونحوهما من الحقوق الشرعية، وورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (قد يبتي الله المؤمن بالبلية في بدنه او ماله او أهله، ثم تلى هذه الآية (وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن

(١) نفس الباب، ٢

(٢) وسائل الشيعة: كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه، باب ٥ ٥

(٣) نهج البلاغة، باب الحكيم، رقم ٤٢٩

كثير (الشورى /٣٠).

كما لا تختص هذه الحقيقة بالأموال وإنما تتعداها الى ما تتطلبه طاعة الله تعالى من أصغر شيء كالتكاسل عن أداء عمل عبادي معين او حضور في مجلس ذكر أهل البيت (عليه السلام) او السعي لقضاء حاجة مؤمن فانه يبلى بامضاء ذلك الوقت والجهد في غير طاعة الله تعالى في أمور عبثية ومضيعة للوقت او ما هو أسوء من ذلك فتجتمع عليه الحسرة في الدنيا لإضاعته فرصة الهداية واكتساب الجنان المتاحة لهم والندامة والعقوبة في الآخرة، وهكذا في كل أمر راجح شرعاً او عقلاً، خذ مثلاً بعض الأمهات يتناقلن عن ارضاع اولادهن الصغار تكاسلاً او حفاظاً على رشاقتها ونحو ذلك وتعطيه حليباً صناعياً فيبتلى الطفل بأثار سلبية كالمغص ونحو ذلك ما تتمنى معه الام لو ارضعت طفلها وارتاحت من هذا البلاء.

وتمتد تطبيقات هذه الحقيقة الى كل المستويات فعلى صعيد الزعامات والقيادات المتبعة رأينا كثيراً من الناس يتبعون قيادات ما انزل الله بها من سلطان وربما تصل الى مستوى اتباع يزيد والمقبور صدام وأمثالهما من أجل فتات دنيا زائلة وتترك طاعة الله ورسوله والحجج المعبرة والنتيجة خسران الدنيا والآخرة قال تعالى (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ

اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ
 اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرًا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ
 حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (البقرة/١٦٥-١٦٧) فالآية تقول:
 ليت هؤلاء الذين ظلموا انفسهم ولم يتبعوا الحق وظلموا الحق نفسه إذ
 خذلوه ولم ينصروه يرون عاقبتهم السيئة والمؤلمة حين يجتمع الاتباع مع
 القادة الظالمين يوم القيامة حيث يتبرأ هؤلاء القادة من اتباعهم وتنقطع
 بينهم الاواصر والعلاقات ولا يجدون عندهم نفعاً ولا يدفعون عن انفسهم
 عذاب جهنم وكل عذاب فضلاً عن اتباعهم فيكتشف الاتباع عجز قادتهم
 وزعاماتهم وضلالهم وستصيبهم حسرةٌ بسبب اتباعهم وطاعتهم لقادة
 مزيفين وسيأكدون من حقانية ما كان يقوله الله تعالى ورسوله (أَنَّ الْقُوَّةَ
 لِلَّهِ جَمِيعاً) ولم يكن لهم إلا تمني العودة الى دار الدنيا للعمل بما اكتشفوه
 من الحقيقة (لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرًا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا) (البقرة/١٦٧) لكنه
 تمني باطل لا يتحقق لانهم أعطوا الفرصة الكافية في الدنيا وقد كانت هذه
 الحقيقة ماثلة امامهم بما اخبر به الله تعالى ورسله لكنهم حجبوا بصائرهم
 عن رؤيتها بغفلتهم وجهلهم واتباع شهواتهم وتضليل شياطين الانس
 والجن، ومع ذلك فهم غير صادقين في تمنيههم هذا (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا
 نُهُوا عَنْهُ) (الأنعام/٢٨)

هذا على صعيد الزعامات والقيادات الباطلة وأتباعهم من غير المؤمنين لكن هذه الحقيقة لها مستويات داخل المتدينين ايضاً، فقد يفضل الشخص الرجوع الى الجهة التي تحافظ على راحته ومصالحه وتداهنه او لأنها تعطيه ما يشتهي ويوافق هواه ويدغدغ عواطفه، او لأنها لا تكلفه جهداً أو حركةً، ويترك القيادة الحقّة التي تذكره بالله تعالى وتعمل على إعلاء كلمة الله تعالى وصلاح الأمة والارتقاء بها لأنها تتطلب جهاداً للنفس وحركة وعزيمة، ونتيجة اختياره هذا نسيان ربه شيئاً فشيئاً وميله الى الدنيا والانشغالات التافهة ونقصان وعيه ودينه حتى يتحول الى شكليات وطقوس فارغة من المحتوى فتكون حسرة عليهم لانهم لم يستثمروا فرصاً كانت ستكسبهم درجات عالية في الجنة.

وترتقي تطبيقات الآية حتى تصل الى مستوى بذل النفس فأنا الأمة لما تخاذلت عن نصره أمير المؤمنين (عليه السلام) وتفاعست عن نصره الامام الحسن (عليه السلام) أبليت بإمارة معاوية الذي جاء الى الكوفة بعد صلح الامام الحسن (عليه السلام) فخطب في أهلها الذين قاتلوه في صفين وأزهقت أرواح عشرات الآلاف من الفريقين فقال في كلامه (والله اني ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا، ولا لتحجوا ولا لتزكوا، انكم لتفعلون ذلك، وانما قاتلتكم لأنأمر عليكم، وقد اعطاني الله ذلك وانتم له كارهون)^(١).

(١) حياة الامام الحسن ٢ / ٢٥٤.

ولما لم تفي الأمة للإمام الحسين (عليه السلام) بوعود النصره وبخلت بالنفوس عليه وانقلبت لتقاتله فكتب عليها الذلة والخنوع وتسلط الأشرار من أمثال يزيد وابن زياد والحجاج وغيرهم من الطواغيت فقتلوا من خيرة ابناءها ما زاد على الثمن الذي كانوا سيدفعونه لو نصرروا الحسين (عليه السلام) وازالوا حكم الطواغيت وتنعموا بعدالة حجة الله تعالى ودولته الكريمة، وقد حذرهم الامام الحسين (عليه السلام) من هذه النتيجة وألقى الحجة عليهم في خطابه يوم عاشوراء وكان مما قاله (عليه السلام) (فأصبحتم إلباً لأعدائكم على اوليائكم بغير عدلٍ أفشوه فيكم ولا أملٍ أصبح لكم فيهم، أهؤلاء تعضدون وعنها تتخاذلون؟ ويلكم! أتطلبونني بدم أحد منكم قتلته، أو بمال استملكته، أو بقصاص من جراحات استهلكته) (١).

وقال (عليه السلام) (اما والله لا تلبثون بعدها الا كريثما يركب الفرس حتى يدور بكم دور الرحي ويقلق بكم قلق المحور) (٢) اذن لما امتنعوا عن القيام بواجب النصره للإمام الحق لم يحصلوا على ما أرادوا من الدعة والراحة وسرعان ما دفعوا الثمن الذي حذرهم منه غالباً.

(١) تاريخ الطبري: ٥ / ٢٥٤ ينايع المودة للقندوزي: ٣ / ٦٤.

(٢) الصحيح من مقتل سيد الشهداء واصحابه: ٦٥٦، ٦٦٤، ٦٦٥.

وقال زهير بن القين في خطبته (فأنكم لا تدركون منهما - يزيد وابن زياد - الا بسوء عمر سلطانهما كله ليسملان اعينكم ويقطعان ايديكم وارجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان امثالكم وقراءكم أمثال حجر ابن عدي واصحابه وهاني ابن عروة واشباهه).

لاحظ كيف تحول بخلهم بالتضحية الواجبة في سبيل الله الى نصره للأشرار وسقوط مريع في تلك الجريمة البشعة والعاقبة المرعبة.

وخذ مثالا نعيشه اليوم وهو التصدي البطولي للمجاهدين والمتطوعين لصد الهجمة الهمجية للدواعش والإرهابيين الذين أعلنوا بصراحة انهم قادمون لنقض العتبات المقدسة في النجف وكربلاء واحتلالها وغرهم سقوط الموصل وتكريت في يومين بأيديهم، فنهض المؤمنون الغيارى في وجوههم واسترجعوا منهم ما اغتصبوه وطهروا الأرض من رجس وجودهم وكلفنا ذلك شهداء كرام وجرحى اعزاء لكن الثمن سيكون اضعافه لو تقاعسنا ولم نقم بهذا الواجب.

والآية أيضا بصيغة المضارع الذي يعني استمرارية الحالة أي ان الذين كفروا وأعداء الإسلام من الطواغيت والقوى المستكبرة وذيولهم واتباعهم ومنفذي خططهم سيستمرون في انفاق أموالهم للصد عن سبيل الله بكل الأساليب التي اشرنا لها اختصارا، وشواهدة كثيرة في زماننا لكن

النتيجة تكون واحدة دائماً وقطعية وهي الخسارة والحسرة ونشاهد هزيمتهم باستمرار بأذن الله تعالى .

كما ان هذه الحقيقة التي استفدناها من الآية جارية مدى الزمان فلا يقصر احد في القيام بأي عمل راجح شرعاً او عقلاً وليس فقط فعل الواجبات وترك المعاصي، بل المستحبات أيضاً وكل عمل انساني، لأنه ان قصرَ خسر هذه الفرصة للكمال والسمو والفلاح وسوف لا يحصل على النتيجة التي أرادها بل يقع في عكس ما كان يريد، هذه النتيجة اخبر عنها الامام الحسين (عليه السلام) بقوله: (مَنْ حَاوَلَ أَمْرًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ أَفْوَتًا لِمَا يَرْجُو، وَأَسْرَعَ لِمَجِيءِ مَا يَحْذَرُ) (١).

وبالعكس فإن من يجاهد نفسه ويتخلى عن مشتبهاتها وما تمنيه به من السعادة والراحة الموهومة فان الله تعالى يعوّضه عن صبره ومجاهدته بما يقرب عينه حقيقةً وليس زيفاً كالذي ورد في النظر الى المحرمات، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) وهو يحدث عن ربه (النظرة سهم مسموم من سهام

(١) الكافي ٢: ٣٧٣ ح ٣، تحف العقول : ١٧٧، بحار الأنوار ٧٨: ٢٠ ح ١٩ وفيهما

اسرع لما يحذر و ٧٣: ٣٩٢ ح ٣، معادن الحكمة ٢: ٤٥ ح ١٠١، وسائل الشيعة

١١: ٤٢١ ح ٣.

أبليس، من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه) (١) فلاحظ
 التعبير بالاببدال الذي يعني الحقيقة التي ذكرناها .
 (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ
 شَهِيدٌ) (ق/٣٧)، (وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ) (الحاقة/١٢).

الفهرس

- القبس : ١ : (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [الفرقان : ٣٠]..... ٥
- شكوى القرآن..... ٥
- الافتتاح:..... ٥
- القرآن يشكو:..... ٦
- ونستفيد من هذا الحديث أكثر من أمر:..... ٧
- البعد عن القرآن سبب انحطاط المسلمين:..... ٩
- ما تمسك بالقرآن من أعرض عن العترة الطاهرة:..... ١٠
- لكي يفرغوا مضمون القرآن:..... ١٣
- كلمة حق يراد بها باطل:..... ١٤
- التخطيط لقتل الإسلام:..... ١٥
- الخسارة الجسيمة:..... ١٦
- الوصية بحفظ القرآن..... ١٨
- القرآن طريق الوصول إلى المعرفة:..... ١٩
- حاجتنا إلى إعادة القرآن إلى الحياة:..... ٢٠
- اهتمام النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم أجمعين) بالقرآن:..... ٢١
- دواعي الاهتمام بالقرآن:..... ٢٤

- ٢٩ القرآن يصف نفسه:
- ٣٤ شرح لبعض أوصاف القرآن:
- ٣٤ مبارك:
- ٣٥ عزيز:
- ٣٦ مجيد:
- ٣٦ قِيَمًا:
- ٤٠ قول ثقيل:
- ٤١ موعظة وشفاء وهدى ورحمة:
- ٤٤ الحياة في كنف القرآن:
- ٤٥ ما الذي وجدته في رحاب القرآن؟
- ٥٠ ضرورة العودة إلى القرآن:
- ٥١ مسؤولية الحوزة في إعادة القرآن:
- ٥٣ جاهلية اليوم:
- ٥٤ مقارنة بين الجاهلية الأولى والجاهلية اليوم:
- ٥٦ صفات ومميزات المجتمع الجاهلي بحسب المفهوم القرآني:
- ٧٧ القرآن علاج لأمراضنا الاجتماعية:
- ٧٩ دروس مستفادة من طريقة القرآن في إصلاح المجتمع:
- ٩٠ من فقه المواجهة مع الكفار والطواغيت:

- ٩٥ الكيان الصهيوني من الأعراض المرضية فعالجوا أصل المرض:
- ٩٦ فائدة تكرار القصص في القرآن:
- ٩٩ كيف السبيل إلى إعادة تفعيل دور القرآن؟
- ١٠٢ الفقه والفقهاء في المصطلح القرآني:
- ١٠٦ مسؤولية الحوزة عن تفعيل دور القرآن:
- ١١٠ بعض الآداب والمستحبات المتعلقة بتلاوة القرآن:
- ١١٤ الأربعون حديثاً في فضل القرآن وآثاره وآداب تلاوته:
- ١٣٩ القبس : ٢ : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)
- ١٣٩ كيف خطط رسول الله ﷺ للخلافة من بعده
- ١٤٠ الإمامة ضرورة عقلانية:
- ١٤٠ ضرورة الإمامة في الشرع:
- ١٤٢ المصالح المهمة من تعيين الخليفة:
- ١٤٥ شرفية موقع الإمامة في الفكر الإسلامي:
- ١٤٦ [مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى]:
- ١٤٧ خطر الاعتراض من الداخل الإسلامي:
- ١٥٠ نموذج من الانحراف الإسلامي:
- ١٥١ حملات اليهود بعد وفاة النبي ﷺ:
- ١٥٢ العدو الخارجي والكيد بالإسلام:

- ١٥٣ التحديات الجسيمة أمام النبي ﷺ :
- ١٥٤ عقيدة العامة في الإمامة:
- ١٥٩ عقيدة مدرسة أهل البيت ﷺ في الإمامة:
- ١٦٤ الدور العلوي في الحفاظ على الدين:
- ١٦٥ التخطيط للخلافة:
- ١٦٧ الإعلان العظيم تكلل في يوم الغدير:
- ١٦٨ أعظم الأعياد في الإسلام:
- ١٧١ لماذا كان يوم الغدير أعظم عيد في الإسلام؟
- ١٧٢ التشيع يزداد وضوحاً بيوم الغدير:
- ١٧٤ كيف خطط رسول الله ﷺ للخلافة من بعده:
- ١٧٤ أشكال التخطيط النبوي لتعيين الخليفة:
- ١٧٨ الضوابط والمعايير لتولي الخلافة:
- ١٧٩ تطبيق الضوابط على المتصدين للخلافة بغير حق:
- ١٨٣ المرجعية الدينية ومسؤوليات التخطيط لإعداد البديل:
- ١٨٥ مسؤولية الأمة في البحث عن المرجع البديل:
- القبس : ٣ : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ) [آل عمران : ١٤٤] ١٨٧
- ١٨٧ ماذا خسرت الأمة حينما ولّت أمرها من لا يستحق

- ١٨٧ رزية الخميس:
- ١٨٨ النزاع بين الخط الإلهي والخط البشري:
- ١٩١ مع الوعي في الطرح:
- ١٩١ ماذا خسرت الأمة؟
- ١٩٢ النتائج الوخيمة لتولي غير المؤهلين لإمامة الأمة:
- ١٩٢ النتيجة الأولى: تصدي غير المؤهلين للإمامة:
- ١٩٤ الإعداد النبوي للخليفة الحق:
- ١٩٥ آثار خطيرة:
- ١٩٧ النتيجة الثانية: فتح باب الاجتهاد مقابل النص:
- ١٩٩ النتيجة الثالثة: عرقلة تربية الأمة وتكاملها:
- ٢٠٣ النتيجة الرابعة: تمزق الأمة وتشتتها:
- ٢٠٦ النتيجة الخامسة: عزل الدين عن إدارة الحياة بكل أبعادها وتفصيلها...:
- ٢٠٨ النتيجة السادسة: حدوث الانفصال بين الأمة والخلافة:
- ٢٠٩ بالمقابل كان هناك علي بن أبي طالب (عليه السلام):
- ٢١٢ النتيجة السابعة: تأخر ركب الحضارة الإنسانية.....:
- ٢١٥ لماذا نحتفل بعيد الغدير؟
- ٢١٦ لتأخذ الدرس في فهم أشكال المرجعية الدينية:
- ٢١٨ المرجعية الحركية هي الأجدر:

- القبس : ٤ : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ) [الأنفال : ٤١]
- ٢١٩
- ٢١٩ إخراج الحقوق الشرعية: الوجوب والإشكالات.
- ٢٢٠ أسباب حرمان البشرية من لقاء الحجة :
- ٢٢٢ كيف يبخل الناس على الله بما رزقهم؟
- ٢٢٣ لماذا نركز حديثنا على الخمس :
- ٢٢٤ مانع الخمس يستحق النار :
- ٢٢٤ ما هو الدليل على وجوب الخمس؟
- ٢٢٦ هل يسقط الأئمة (عليهم السلام) حقهم بسبب الظروف؟
- ٢٢٨ الوعيد بحق مانع الزكاة يشمل الخمس أيضاً :
- ٢٣١ لعدم دفع الخمس آثارٌ وضعية :
- ٢٣١ علاج مشكلة عدم دفع الناس للخمس :
- ٢٣٣ المحفزات التي تدفع المكلف نحو التطبيق :
- ٢٤٣ علاج عدم دفع الناس الخمس :
- ٢٤٦ الآثار الإيجابية المترتبة على دفع الحقوق :
- ٢٤٨ كيف نفهم فلسفة هذه الأحاديث ؟
- ٢٥٠ دور الحوزة في توعية المجتمع :

- القبس : ٥ : فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم
٢٥٣
- المقدمة: ٢٥٣
- فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القرآن الكريم: ٢٦٢
- تقريب الاستدلال ببعض الآيات الكريمة: ٢٦٧
- القبس : ٦ : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ٢٦٨
- القبس : ٧ : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ) [آل عمران : ١١٠] ٢٧٩
- حل التنافي بين الآيتين: ٢٨٢
- القبس : ٨ : (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ٢٨٩
- القبس : ٩ : (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنِ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ
السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) [المائدة : ٦٣] ٢٩٥
- القبس : ١٠ : (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ) [المائدة : ٧٩] ٣٠٠
- القبس : ١١ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) ٣٠١
- إشكال التنافي مع آية [عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ]: ٣٠٢

- القبس : ١٢ : أعطوا للقرآن الكريم دوراً متميزاً في حياتكم ٣١٤
- القبس : ١٣ : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ) [الأعراف: ٩٦] ٣١٧
- الحل والعلاج في العودة إلى الله تبارك وتعالى ٣١٨
- علة البلاء: ٣١٨
- الله تعالى يعلمنا طريق الحل: ٣١٨
- وابتغوا إليه الوسيلة: ٣٢٠
- الانفعال والارتجالية: ٣٢١
- هل غضبنا لله تعالى أم لأنفسنا؟ ٣٢٢
- التربية إلى نصف الطريق: ٣٢٢
- المعركة الكبرى: ٣٢٣
- النصر الحقيقي: ٣٢٤
- ابتعادنا عن أدب السلف الصالح: ٣٢٥
- القبس : ١٤ : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ) [آل عمران : ١٩١] ٣٢٧
- رفض العبثية في الحياة ٣٢٧
- درس بليغ من النبي ﷺ: ٣٢٧
- خلقنا للمعرفة: ٣٢٨
- المعرفة غير التصومع: ٣٢٩

- ٣٣٠ أوثق العرى:
- ٣٣١ وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ:
- ٣٣١ كل مخلوق ميسر لما خلق له:
- ٣٣٤ القبس : ١٥ : (وَلَتَنْظُرَنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)
- ٣٣٤ لنراجع أنفسنا:
- ٣٣٥ سفر الآخرة:
- ٣٣٦ التقوى حركات وسكنات:
- ٣٣٧ من حكمة الله تعالى تنوع القابليات:
- ٣٣٩ القبس : ١٦ : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [الملك : ٢]
- ٣٣٩ تمام حسن العمل بإتقانه والمداومة عليه
- ٣٣٩ العمل وحده لا يكفي:
- ٣٤٠ لنضرب لكم مثلاً:
- ٣٤١ اقتران العمل بتحسينه:
- ٣٤١ كيف يمكن تحسن العمل؟
- ٣٤٣ المداومة على العمل:
- الثاني: المداومة على العمل وحفظه ومواصلته، ولا نعني بهذا الأمر تكرار الحج لأن هذا غير متيسر إلا نادراً فللمداومة أنحاء عديدة ربما نتعرض لشرحها في خطبة مستقلة بإذن الله تعالى .
- ٣٤٣

- القبس: ١٧: (وَمَا يَعَزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ) [يونس : ٦١] ٣٤٥
- لنستشعر الرقابة الإلهية ٣٤٦
- من مصاديق الغفلة: ٣٤٧
- الغفلة عن إمام الزمان (عجلتعالى): ٣٤٨
- القبس: ١٨: ما المراد من رمي الجمرات؟ ٣٥٠
- الاصنام التي تعبد من دون الله تعالى: ٣٥١
- التشريعات البشرية: ٣٥٢
- آلهة الأعراف والتقاليد غير الصحيحة: ٣٥٤
- الحكام والطواغيت: ٣٥٥
- كونوا موحدين: ٣٥٥
- موعظة الشيخ جعفر الشوشتري: ٣٥٦
- خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً: ٣٥٧
- القبس: ١٩: (أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) .. ٣٥٨
- أسباب البلاء ٣٥٨
- السبب الأول للبلاء: ٣٦٠
- السبب الثاني للبلاء: ٣٦٤
- السبب الثالث للبلاء: ٣٧١
- السبب الرابع للبلاء: ٣٧٢

- ٣٧٤ القبس : ٢٠: (يَوْمَ الْفُرْقَانِ) [الأنفال : ٤١]
- ٣٧٤ يوم بدر كان فرقاناً بين الحق والباطل:
- ٣٧٦ معركة التأويل:
- ٣٧٨ يوم الدفاع عن الإمامة:
- ٣٧٩ الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) الفرقان الحقيقي:
- ٣٨٠ اجعلوا الزهراء (عَلَيْهَا السَّلَامُ) نصب أعينكم:
- ٣٨١ التقوى فرقان القلب:
- ٣٨٣ القبس : ٢١: (وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) [الصفات : ٢٤]
- ٣٨٣ المسؤوليات الثابتة والمتحركة:
- ٣٨٣ لكي نؤدي مسؤوليتنا:
- ٣٨٤ أصناف المسؤوليات:
- ٣٨٥ التأثير بالموقع:
- ٣٨٦ تأثير المسؤولية بالظروف المحيطة:
- ٣٨٧ تأثير المسؤولية بالبلد:
- ٣٨٨ تأثير المسؤولية بالعلم:
- ٣٨٨ نأثر المسؤولية بالمعرفة الإلهية:
- ٣٨٩ الإيمان عشر درجات:
- ٣٩٠ قصة للجد الشيخ اليعقوبي مع الميرزا النائيني:

- تأثر المسؤولية بالانتماء: ٣٩١
- مسؤولية الإيمان بالإمام المهدي (عليه السلام): ٣٩١
- ما الذي نفهمه من دعاء الفرج؟ ٣٩٢
- تكاليفنا تجاه أحداث الظهور: ٣٩٤
- لا تكونوا من المطففين: ٣٩٥
- لنحاسب أنفسنا على ما أدينا من مسؤوليات: ٣٩٦
- ما الذي يقتضيه الشعور بالمسؤولية؟ ٣٩٧
- القبس: ٢٢: (وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا) [آل عمران : ١٠٣] ٣٩٨
- أساس وحدة المسلمين ٣٩٨
- القبس: ٢٣: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ) [النساء : ١١٤] ٤٠٤
- أهمية الكلمة وتأثيرها ٤٠٤
- القبس: ٢٤: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) [الحديد : ١٦] ٤٠٩
- الأمر الأول: ٤١٦
- الأمر الثاني: ٤١٦
- القبس: ٢٥: مقامات القرآن الكريم وصنوه أهل البيت (عليهم السلام) ٤٢١
- التلازم بين القرآن واهل البيت (عليهم السلام): ٤٢١
- لا يرتاب مسلم في معنى أهل البيت (عليهم السلام): ٤٢٢

- ٤٢٣ الزهراء (عليها السلام) عدل القرآن الكريم:
- ٤٣٠ القبس: ٢٦: القرآن الكريم يدعو الى التعامل مع الحياة بإيجابية
- ٤٣٠ معنى أن نقول المؤمن خير:
- ٤٣٠ الحث على قضاء الحوائج وإدخال السرور:
- ٤٣١ العفو والصفح عن الإساءة:
- ٤٣٢ الحمل على الحسن:
- ٤٣٣ بركة الانسجام مع الكون:
- ٤٣٤ أهمية التفكير الإيجابي في التنمية البشرية:
- ٤٣٥ وبَشْرُ الصَّابِرِينَ:
- ٤٣٥ أمثلة من التفكير الإيجابي:
- ٤٣٦ نتيجة التفكير السلبي:
- ٤٣٧ مثال عن التفكير السلبي:
- ٤٣٨ لكي تفكر بإيجابية:
- ٤٤٠ القبس: ٢٧: (وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) [الحجر: ٩٧]
- ٤٤٠ القرآن الكريم يخفف آلام العاملين الرساليين
- ٤٤٠ القبس: ٢٨: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)
- ٤٤٦ [الزخرف/٥٤]
- ٤٤٦ قابلية الشعوب على الاستعباد

- ٤٥٨ القبس : ٢٩ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)
- ٤٦٦ القبس : ٣٠ : (فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً) [الأنفال: ٣٦].
- ٤٦٦ من لا يقدم ما عليه في طاعة الله تعالى يعطي
- ٤٦٦ أكثر منه في معصيته
- ٤٧٧ الفهرس